

سمريزبك

جوابات أرض العدم

دار الآداب

أكتب بأربعين إصبعًا .

أكتب بعيون عمياء .

أعيش الواقع . أكتبه ، فأختفي .

أنا التي يمرّ الموتى عبر حنجرتها ، واحدًا واحدًا ، يجذفون في
صعودهم الإلهي ، ثم يتساقطون في دمي !

أما الحكواتية التي تتأمل حيواتكم القصيرة . تتأملكم بنظراتها ،
كما فعلنا في ليالي طويلة ونحن نضحك ، ونختمن : من متى ستأخذ
الفذيفة التالية . أفعل ذلك من أجلكم . لا مفر من استحضاركم ،
ونحويل قصصكم أعمدةً تصل الأرض بالسما .

أكتب إليكم . من أجلكم ، ومنكم : شهداء الثورة السورية
المغلورة .

البوابة الأولى

آب ٢٠١٢

تخذه ظهري الأسلاك الشائكة. قشعريرة تستقر في منتصف رأسي. كانت تحت الأسلاك الممتدة على طول خط الحدود، حفرة تكفي لتسريب شخص واحد. استطعت اجتياز حفرة، ثم ركضت سريعاً، نصف ساعة من الركض، مسافة كافية لعبور الحدود بين بلدين. لم يكن بصحبي آنذاك غرباء كثراً، ولم أعرف أنني سأكون قادرة على متابعة هذه التفاصيل، إذ كنت أظن، لسبب غامض، أنني سأضيع في زحمة الموت هناك، حيث قرّرت العودة إلى الوطن. في تلك اللحظة، وقدمي تنغرس في الحفرة، وظهري يحتك بالأسلاك الشائكة، في المسافة الفاصلة بين خطي حدود، أرفع رأسي وأنظر، للمرة الأولى، إلى السماء البعيدة التي كانت تميل إلى التواء، بعد انتظار حلول الليل لساعات طويلة، كي نستطيع العبور دون أن يتنبه

إلينا الجنود الأتراك. هناك، في تلك اللحظة، تنفستُ بعمق ورفعتُ ظهري، وركضت حسب التعليمات. أخذت أركض كي أجتاز منطقة الخطر. الأرض صخرية وصعبة، ولكنني ركضت بخفة. رافعة من قلبي تحملني وترميني في الهواء. لقد عدت! ها أنذا هنا من جديد! كنت أتمم وألهث: لقد عدت! ولم يكن هذا مشهداً سينمائيًا. كان حدثًا حقيقيًا. أركض وأتمم: لقد عدت... لقد عدت.

سمعنا أزيز رصاص متقطعًا، وهدير آلية عسكرية تتنقل في الطرف الآخر، لكننا استطعنا التّفاذ والركض.

كل شيء يبدو كما لو أنه مقدّر منذ زمن بعيد.

وضعتُ على رأسي غطاءً، وارتديت سترة طويلة وبنطالاً عريضاً، حيث كان علينا بعد ذلك اجتياز هضبة عالية صعودًا، قبل أن ننحدر ركضًا وبسرعة، لنجد سيارة في انتظارنا. خيم الليل، وكل شيء بدا عاديًا، أو هكذا اعتقدت. في العبور المتكرّر لاحقًا، سيتغيّر المشهد.

مطار أنطاكية وحده كان كافيًا لمعرفة ما حصل في سورية خلال سنة ونصف من الرحلات إليها. وعبور الحدود أيضًا يؤكّد ذلك، وكلّ المظاهر التي وضعناها في رأسي لاحقًا كمؤشر للتغيير السريع والعميق الحاصل. لكنني، حينذاك، وأنا أنزل من الهضبة ركضًا مع ألم ساقي، لم أفكر في كل ذلك. وصلت إلى أسفل الهضبة، ثم ركعت على قدمي، وبقيت لأكثر من عشر دقائق، أتنفس بصوت مخنوق، محاولة تهدئة ضربات قلبي. اعتقد الموجودون أنني منفعلة برؤية البلاد. في الواقع، لم يكن المجال متاحًا لذلك الثّرف. ركضنا لفترة طويلة، وصدري يوشك على الانسلاخ مني، ولم أقدر على النهوض.

أخيرًا، ركبنا السيارة، وتنفست قليلاً. هناك شاب يقود، نحن في

الخلف ثلاثة، في الأمام اثنان. ميسرة ومحمد، سيتحولان في ما بعد جزءاً من عالمي. إنهما مقاتلان مختلفان ومن عائلة واحدة. العائلة التي سأمكث في كنفها. محمد وهو في العشرين من عمره، سيصير صديقي الدائم ويشاركني العمل.

كنا في ريف «إدلب» الذي لم يتحرّر بشكل كامل من سيطرة قوات الأسد. هناك حواجز كثيرة تعترضنا، وهي تابعة لكتائب الجيش الحر. نجنّاز حقول الزيتون ونركض. ندخل بوابة أرض العدم الأولى. مقاتلون يحملون أسلحتهم، ويرفعون شارات النصر. الرحلة طويلة. أحاول سرقة الصور من الواقع. أمد رأسي من نافذة السيارة، وانفصل عما يحيط بي. السيارة تمضي، وصوت القذائف يُسمع من بعيد، ولا تنتهي الطريق. دهشة منسوجة من فرح تدغدغ خلايا جسدي، وأنا أرى الأرض المحرّرة. هذه أرض محرّرة، لكن السماء لا تدعنا نضحك. السماء تشتعل، والمشهد يتحوّل إلى أربع شاشات سينمائية متقطعة. لا أنظر إلى المشهد بعينين اثنتين فقط. أضع عيني في رقبتني أيضاً. على طرفي أذني لي عيون أيضاً. وحتى في أطراف أصابعي، مثل كائن وحشي خرافي. أثبت الرؤية أمامي. يتوزّع البصر بين ثلاثة مشاهد. الأليات المدمّرة، السماء المشتعلة وسيارة في داخلها امرأة وثلاثة رجال يتجهون إلى بلدة «سراقب».

كلّ ما يحصل في سرد هذه التفاصيل هو واقع. لا يوجد سوى شخصية واحدة متخيّلة تلاعب السرد هنا. أنا الوحيدة التي تستطيع العبور وسط الدمار، وكأني شخصية متخيّلة في كتاب. أستعين على الواقع بالخيال. أراقب التفاصيل والواقع وما يحدث، ليس على أساس ما أنا عليه الآن. ولكن، أفترض أنني شخصية روائية، أفكر في عبارات شخصية مُقترضة في رواية، لأقوى على الاستمرار. المرأة

الواقعية أتركها جانبًا. أصير الأخرى المفترضة، التي يجب أن تقوم
بردود فعل تناسب ما عاشت لأجله. ما هو هذا الشيء الذي من خلاله
تبحث عن سؤال الوجود؟ الهوية؟ المنفى؟ العدالة؟ جنون اللّماء؟ وكل
هذه الطرقات التي تعبرها السيارة في عتمة حالكه، متجهة إلى بيت
العائلة التي ستصير جزءًا من عالمي.

الغريب أنني الآن أذكر حوادث تأتي وتروح. لم أكن أنوي كتابة
هذه الحوادث حتى رحلتي الثانية. كان الهدف من مشروع عودتي إلى
سورية في آب ٢٠١٢، بعد خروجي منها في تموز ٢٠١١، هو إقامة
مشاريع صغيرة للنساء، وتأسيس منظمة في الشمال السوري لتمكين
النساء اقتصاديًا ومعرفيًا وتعليم الأطفال. كنت أبحث عن فكرة قابلة
للتطبيق نستطيع من خلالها إقامة مؤسسات مدنية ديمقراطية في
المناطق التي صارت خارج سيطرة الأسد. لم أفكر أبدًا في كتابة هذه
اليوميات. كنت أستعد للبدء بروايتي الجديدة. تغير الأمر، وأنا أغادر.
حادثة صغيرة غيرت المسار، وجعلتني أفكر في كتابة شهادتي هذه.

قبل الحدود في طريق العودة، كنا نتجه من بلدة سرمدا لنعبر من
سورية إلى تركيا، كان اللقاء بالمقاتل الشاب الذي جعلني أمسك
بفلمي وأدون في دفتر صغير ما قال. في تلك اللحظة، قررت أن
أكتب، بعد أن قال: «ونحن نريد دولة مدنية».

كان ذلك في اليوم الأخير، قبل ساعات من الرحيل، على حاجز
كتيبة «الفاروق»، والشاب الصغير الذي تلمع النجوم في عينيه يروي
وهو يطلع ريفه كيف انشق عن «الوحدات الخاصة» في الجيش لأنه
رفض قتل الناس، ثم يتابع الحديث: «يعني أنا كيف سأرمي نفسي في
الموت، من يريد الموت؟ لا أحد! لكن، كنا موتى ونريد أن نعيش».

كانت السماء زرقاء. لا شيء يعكّر صفونا، ولا حتى أزيز
الزئاض، ولا الحواجز، ولا كل الأبنية المهتمة على جانبي الطريق.
لا تبعد عن بلدة سمرمدا إلا قليلاً. تركناها وراءنا مع جدرانها الملونة
بعلم الثورة.

«ونحن نريد دولة مدنية...» يكرر الشاب الأكبر سنًا. يقول لي
شاب آخر: «يلعن أبو هالضباط، كلهون علوبين!». ينظر إليه الآخر،
ويتنم: «لا مو كلهون».

أنصت إليه، وهو يروي لي قصة انشقاكه للمرة الثانية، فيقترب
صديقه منه، ويهمس في أذنه شيئًا ما. الشاب الصغير، ذو العينين
اللامعتين والذؤبة العسلية، ينظر إليّ مذهولًا. يسقط سلاحه على
الأرض، ثم تنكسر نظرتة. حدقت في عينيه المرتجفتين، وبقي سلاحه
على الأرض، ثم أدار وجهه.

السماء لم تتغير. ما زالت زرقاء، والجبل الحجريّ الذي خلفناه
وراءنا يحدّق بصمت. لكنني استطعت سماع طقطقة ما، حين أدار
الشاب وجهه نحوي. كان بعض على شفتيه. قال بصوت مرتجف -
هو الشاب نفسه الذي كان يقف على حاجز مسلّح، ويحمل سلاحه،
ويشهر عصبه في وجه السماء - «سامحيني يا خالة، والله ما كنت
أعرف».

وجهه القموليّ عاد إلى سماحته، والشباب الذين يحملون السلاح
نحت الجسر ينظرون إلينا بفصول. كان علم أبيض يرفرف بالقرب منهم
كُتب عليه «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». اثنان منهما يطلقان لحية
طويلة. السماء لا تزال زرقاء، لكنّ الجنديّ الذي صار طفلًا، اقترب
منّي وقال متلعثمًا: «أنا ما بكره حذاء، يس هن كلاب بدهون يانا نقتل

الناس... سامحيني يا خالة».

وقف المقاتل الأكبر سنًا إلى جانبه. كانت عيناه تحدقان بغضب وهو يكرّر: «نحن نريد دولة مدنيّة. أنا في كتيبة الفاروق، وأريد دولة مدنيّة. أنا طالب جامعيّ تجارة سنة ثانية».

لم يطل بقاؤنا معهم. استمعت إليهم، وقلت: «ما في مشكلة... حصل خير». لكنّ الشاب الذي صارت عيناه أقلّ لمعانًا، كان مصفّمًا على أن يشرح لي أنّه لم يقصد إهانتني. قلت له قبل أن نرحل مع ثلاثة شبّان: «لكنني لست علويّة، وأنت لست سنّيّا. أنا سوريّة، وأنت سوريّ».

نظر إليّ بدهشة، فقلت له: «هذه حقيقة. نحن سوريّان فقط».

كنت أبرطم في السيّارة، ونحن نغادر حاجز كتيبة «الفاروق»: «من يحتاج إلى التّطمين هنا؟ من يريد أن يبني وطنًا من دم ونار، أهذا الجنديّ المنشقّ الذي تحوّل طفلًا؟ أم أولئك القتلة أتباع الأسد؟»، وكان الشّباب ينظرون إليّ باستغراب ويضحكون، ولا يفهمون شيئًا ممّا أقول.

من أين تبع قوتهم؟ من الغريب فينا عن معنى الحياة؟ من الأكثر النّصاقًا بجوهر العيش، نحن أم هم؟ الذين يعيشون في حضن الموت ويلتهمونه كلّ لحظة سائغة في ضحكاتهم التي قد تبدّدتها في لحظة أشلائهم المبعثرة. إنهم مجرّد وهم في عقول الناس. أن تقول «الجيش الحرّ» يعني أن تتخيل جيشًا، لكنهم هم أنفسهم من يمكن أن تصادفهم في الشارع. وهم مجموعات متباينة في التوجّه والصفات، في الفسوة والرّحمة، مختلفون في الانضباط بأخلاق الثورة، والتفكّلت منها، لا يحملون صفة الشّابه في ما بينهم. كتاب «الجيش الحرّ» هي

نسخة عن حياتنا وتنوعها، فيها تفاوت شاسع. الفارق فقط أن موتاً بخفة ريشة يتبختر بينهم، وأن توصيفهم الأكثر واقعية هو «كتائب المقاومة الشعبية المسلحة».

لا أعرف السبب الذي جعلني أبدأ الكتابة عن بوابات أرض العدم، بالحديث عن آخر حاجز مسلح قبل مغادرتي، سوى تأثيري بالجندي المنشق الذي تحوّل طفلاً. كلما أغمضت عيني، انفجرت صورة الجندي الصغير الذي رمى سلاحه ليعتذر إليّ عن ذنب لم يقترفه حقيقة، وهو أن «الخالة» التي أمامه، من طائفة ضباطه في الجيش.

كانت البوابة الأولى التي عبرنا منها إلى سورية تمر عبر المشفى المحاذي للحدود التركية - السورية في الریحانية. هناك طبقة خاصة بالسوريين الذين يتم إسعافهم بعد القصف. غرف متجاورة تفوح منها رائحة من يتمددون على الملاءات البيضاء، بأقدام مبتورة وأذرع مقطوعة وعيون حالمة. تطير أعضاؤهم سابحة في الفراغ. طلب إليّ منهل، وهو أحد نشطاء الثورة الأوائل في «سراقب»، أن أتماسك، ونحن ندخل غرفة طفلتين: ديانا ابنة الرابعة، وشيماء ابنة الحادية عشرة.

ديانا التي استقرت رصاصاً في نخاعها الشوكي، سببت لها شللاً دائماً. كانت تستلقي باستسلام مثل أرنب أبيض مذعور. كيف لم تهتم الرصاص جسدتها الهش الصغير؟ هذه معجزة؟ بيم كان يفكر القناص حين صوب رصاصه إلى ظهر طفلة تعبر الشارع لشراء حلوى للإفطار؟!

إلى جانب سرير ديانا، كان سرير شيماء التي بترت ساقها القذيفة. فاجأتها مع أهلها وهم يجلسون أمام البيت. قُتل تسعة من أفراد عائلتها، بمن فيهم أمها. كانت عمتها تقف إلى جانب السرير.

شيماء تنظر بعينين غريبتين، فيهما رجاء وغضب. ابتسمت أخيراً عندما وضعت أصابعي على جبهتها. يدها اليسرى أصابتها شظية ونعّضت للفتت. لفافة بيضاء تحيط بحوضها، تنتهي بأعلى فخذهما. الفراغ يحتل مكان الساق المبتورة. الفراغات تحدّد شكل العضو البشري الناقص. نحن ناقصون بالكمال. نحن كمال النقصان. لا كلام يقال لهذه الضبيّة الصغيرة التي تنظر إلّي بعينين ساحرتين. قدمها الأخرى مصابة أيضاً، وهناك إصابات متفرقة في كلّ أنحاء جسدها.

أصابعي على جبهتها، وابتسامة صمّاء بيننا. لم تكن شيماء وديانا وحدهما في هذه الطّبة. في الغرفة المجاورة شابّ ينتظر أن تُبر ساقه بعد أن فتّنتها قذيفة. يضحك بعينيه. وشابّ آخر ينتظر أن تشفى قدمه من شظية، ليعود إلى سورية ويقا تل. كان قائد مجموعة عسكريّة. هذا هو عبد الله الذي سألتقيه في المرّة القادمة يتلّكأ في مشيته، ونصير صديقين، ونذهب معاً في البوابة الثالثة للعدم، تحت وقع القذائف لترتشف القهوة مع خطيته الجميلة.

في مرّ المشفى، وقبل الحدود بقليل، كانت كلّ أعضاء التوريتين المتروكة خطأ في ترابها تفتقد الفراغ. الشباب الذين يرقدون أنصاف أجساد ممزّقة ينظرون من نوافذ المشفى القريب من رائحة البلاد. هناك، حيث عبرت الخطوة الأولى للدّخول في أرض العدم، وحيث سنلمع السماء بعد قليل، حين تشتعل بالقذائف فوق رؤوس البلدات النائمة، وبتناول العشاء الأول لنا، مع إحدى الكتائب بعد «تفتناز». هناك، حيث سأنظر مذهولة إلى وجوه الشباب، وهم يضحكون حين تمرّ القذائف فوق رؤوسنا.

لا بطل سوى الموت. لا قصص يرويها الناس سوى عنه. كلّ شيء قابل للنسيّة والاحتمال، إلّا بطولة الموت المطلقة، أو لحظة

حارحة عن السباق الرمي، حين كنا نحتاز الأسلاك الشائكة ليلاً. نعبث
 إليه إلى التيه، حيث حفر الشاب بوابةً لمرورتنا. كنا نركض حيناً،
 ونسير على مهل حيناً آخر. تلك اللحظة المتأرجحة في سؤال المنفى
 والوطن. هناك على طرفي السباح، كانت الأجساد تخرج فجأة من
 الظلام، وسير كالعميان. تحتك كتف بأخرى. نسمع صوتاً يقول:
 «مساء الخير»، صوتاً يروح، وصوتاً يأتي، كأننا قطع سوطاً، لكن
 عيوساً لا نلتمس. المسافة الحدودية التي صار الثوريون يختفون في
 الليل تحتها ليست كبيرة. يدخل ناس ويخرج ناس، يتقاطعون عند
 مسافة سلام الليل، والكثيرون لا يلقون السلام. هلاميون في
 الأسلاك.

في طريق عودتنا، وعند الأسلاك نفسها، التقينا شابين تونسيين
 بعبان الحدود. قال لي الشاب الذي دخل برفقتنا: «إذا بقي الدعم
 والتمويل لمجموعات معينة من المقاتلين على حساب مجموعات أخرى
 لن يكون بحير أبداً». هذا الكلام رذده الجنود المنشقون الذين لا
 يملكون الذخيرة الكافية، كما يحصل مع مجموعات إسلامية ناشئة
 حديثاً. تمتد العناد والذخيرة، ويقولون عنها إنها متطرفة وممولة من
 عصر الدول الكنائس الممتدة في ريف إدلب وحماه وحلب قالت في
 العائت الكلام نفسه. لكن هذه الكنائس الضعيفة التمويل تجد دائماً ما
 يقدم من الانضمام إلى المجموعات الإسلامية، فعناصرها يبيعون
 أشياءهم وأعراضهم، يساعد بعضهم بعضاً، كأنهم أفراد عائلة واحدة،
 ويقومون أحياناً ببيع خليق روحاتهم. إحدى النساء، وعندما كان قائد
 مجموعة يقوم بجمع بعض المال لشراء سادق، خلعت حاتم زواجها
 وقدمته إليه، لكنه رفض. قائد مجموعة آخر قال لي: «إذا بقينا على
 هذه الحال، فلن نتوانى عن الانضمام إلى الشيطان لرواحه نظام بشار

الأسد». بدا غاضبًا وحزينًا.

ليس لديهم السلاح الكافي لتوسيع أرض المعركة. يريدون تعبير
القتل عن مدينة حلب، ويشعرون بالعجز. مماصرة السلاح يشغلون.
والمعارضة السياسية لم تشعل بواقع الكتاب المسلحة على الأرض.
ولم تهتم بتشكيل قيادة موحدة. يقول قائد المجموعة. «تحت القصر
والجوع والحصار والقصر والاعتقال، الكلّ سينتجبه إلى المجموعات
الممولة جيدًا بالسلاح». سألته: «أهذا ما يريده النظام؟». ردّ بقص
«قولي هذا لنخبة المعارضة السياسية والثقافية، أين هم؟ الضباط
الكبار، لم يعيشوا في تركيا؟ المعركة الحقيقية هنا! نحن نموت كل
يوم، وسنموت، ولا نستطيع أن نقدم أكثر من أرواحنا، ولن نتراجع
عن مواجهة النظام. ربما سنموت، لكن أولادنا وأحفادنا سيقاثلون
نظام الأسد. أين أنتم من كل ما يحدث؟».

لا أستطيع الكتابة عن طريق التسلسل، لا أريد السرد المتسلسل
لا بد من كسر الزمن.

أعود إلى أحاديث الشباب، وأنحدث عن عبورنا الثاني بين حدود
بلدين، وكيف استقبلتنا بساتين الزيتون ورائحة البلاد الحديدية، وكل
الحبات التي عمرتها من قتل مع جدران البلدات المزيّنة بصور الثورة
وأعلامها، ووحوه الناس المتعبة.

في السيارة التي تحترق حجاب الليل، تجاوزنا حواجر عدة
لـ «الحيش الحر». لم تكن حواجر صخرة، لكن الشباب يعرف بعضهم
بعضًا. القرى محرّرة، ومنها ما هو شبه محرّر. وكلمة «محرّرة»
«صفاء»، لأن السماء ما زالت تحت سيطرة النظام تنطلق قدائف عدة
من حولنا، وسمع أحيانًا هدير طائرة. الشباب يطمئنوني. كل شيء

بحير، لكن هناك بصعة كيلومترات من الخطر: «بسيطة حدًا»، يقول أحدهم، وهذه «السيطة» تعني أن الموت سيأتي من السماء! نحن في السيارة. سمر على «بشر» وشارك في التظاهرة، ثم ملتقي إحدى الكتائب.

التظاهرة في «بشر» خالية من النساء، وفيها رايات كُتب عليها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». كنت وحدي وسط الرجال، وكانوا يحدقون إليّ بعراة. تعرّفت إلى بعض الشباب منهم. كانوا عاية في التهذيب غتوا وصفقوا، ثم جاء شيخ يخطب فيهم. لم تعادر البلدة فورًا. تحدثت مع بعض النساء اللواتي كنّ أمام السيوت يراقبن التظاهرة. قالت إحداهن: «كنا نشارك في التظاهرات، والآن لم يعد ذلك ممكنًا. رحالنا يحافون علينا من القصف والقصف». «بشر» كانت محزنة فعلاً، لكن السماء حائنة. هناك حالة من الغدر والخسة، عصيّة على الشرح تقوم بها القذارات ومدافع الذبابات. لا يستطيعون مواجعة الثوار على الأرض، لا يحرّضون على الدخول إلى البلدة بعد أن جرّبوا الممارك مع أهلها. يأتون ليلاً وفي أول المحر يقصفون ويهربون. يموت الأطفال والنساء والشيوخ غالبًا، ولا يملّ الأهالي والكتائب من مواصلة القتال، «هذا قدرنا»، يقول الشباب في «بشر».

لم أسمع امرأة سافرة. وهذا جزء من تقاليد المكان، فهم يمارسون شعائر الإسلام وفقت في تظاهرة «بشر» سافرة بينهم. وعندما تقبنا بين اللدات والقرى، وصعت الحجاب كيلا ألفت الانتباه إنني ونكر، عندما اجتمعت مع الشاب، جلست بيهم سافرة، لكن بعضهم لم يصافحي. الحوار الذي دار بينا كان ذا مستوى عقلي وإساني عالٍ. هم أنفسهم أحروسي بأن عصر الكتائب الأخرى لن نقل وحوادي إلا محنة. لم يتحدث أي منهم عن قيام دولة الخلافة

الإسلامية، بل عن دولة مدنية. كان وجود الكتائب الجهادية صعباً. وفي العموم لم تكن نسبة هذه الكتائب وتوزعها عالية، ولم تبدأ إلا قبل أشهر قليلة. حتى الحديث عن «الجهاديين العرب» كان مبالغاً فيه. لكنه بعد كل محزنة، كان يرداد. في «سراقب» كان هناك قرابة تسعة عشر محامداً عربياً، من أصل سبعة وخمسين مقاتلاً.

العشاء الذي تناولناه في «بنش» كان باذخاً، بيتٌ وسط سيار زيتون، ومجموعة من الشباب تجتهد في تقديم أفضل ما عندها من طعام إلينا. قند المجموعة في أوائل الثلاثينيات، وسيم وهادي. هو ابن بلدة «سش». أدهشتني مرونة الشباب في الحوار ودمائهم، ورغبتهم في الحديث عن المشكلة الطائفية، وضرورة حلها. تحدثنا عن محاور عدة، وعن ضرورة عدم الإفساح في المجال لحرب طائفية. قال لي أحد الشباب: «إن هناك ردود فعل عنيفة ضدّ عنف النظام، لكنها قليلة، ولا تتجاوز حالات فردية يتمّ تصحيحها ونيلها». يقول لي الشاب منه بعد أيام أيضاً: «إن هناك شاباً ينتمي إلى الطائفة العلوية تمّ دسّه، رداً على محررة، ونحن وقفنا ضدّ هذا العمل. حتى الآن لم يكتمل للنظام ما أراد، ولم تهجم قرية سيّة على قرية علوية. هذا لم يحدث، ولن يحدث أبداً، ولو دفعنا أرواحنا ثمناً لذلك. لكننا لا نستطيع السيطرة على حالات العصب عند بعض الذين يتمّ قتل عائلاتهم كمنّة، أو قصف بيوتهم. الزمن ليس في مصلحة هذا العصب». الشاب الذي قال ذلك قتل بعد أشهر عدة على أيدي مشير، انصح أنهم ينمون إلى محاهدين عبر سوريتين.

بروون لي الكثير من التفاصيل عن بعض العصابات المرتقة التي تسرق باسم «الجيش الحر»، وتخطف باسم الكتائب، وهم يشعلون بها وحل مشاكلهم عن مفائدة النظام. كما يشعلون في بعض التفاعلات بين

الكتائب المسلحة التي تنسب فيها تفاصيل وصيعة أحياناً، تصل إلى حد أن بعض الكتائب تحطف عناصر من بعض البلديات التي يدخل أفرادها في براع شخصي، ويقوم الوجيهاء بحلها في ما بينهم. ويتحدث الشباب عن بعض أخطائهم، ويمكثون في تصحيح مسار الثورة. من الممكن ألا يمثل هؤلاء جغرافيا الشمال كاملة في ريف حلب وإدلب وحماه. نكرر كل الكتائب التي انتقبتها لم تشذ عن هذه القاعدة، بمن فيها شيخ إحدى العشائر.

كنت أستمع إلى شاب «ش» حين دوى انفجار كبير، ونحن على الشرفة المطلقة على سندان الريتون. القمر جعل الرؤية شبه واضحة. كانوا نحو عشرة، في الجهة المقابلة للشرفة. لمعت السماء، فقال أحدهم: «قصص على نهار». وعادوا إلى متابعة الحديث وطلبوا إلى الاستمرار في تناول العشاء. أكلت بصمت، وأنا أسمع دقات قلبي من الحروف. سيكتب لي أحدهم لاحقاً: «بعد أن غادرت، بدأ القصف غنياً. الحمد لله أنك رحلت».

أصر عليّ الشباب أن أرى مقبرة الذبابات في «الأتارب». مجموعة من الأنثبات المحترقة تشكّوم فوق بعضها هياكل معدنية معطوبة، وانز الحريق تمتد في أرجاء المكان، ووسط البيوت الضيقة، مثل عذب كرنون مبرقة. انضمت والوحشة. لا صوت في «الأتارب» لا شيء حتى نهيس، أو ساح الكلاب! لكن في نهاية إحدى الطرق المربعة، إذ كنا نبحث في الخراب الهائل الذي فتر لنا معى كمنة «إددة»، كان هناك صوة شمعة داخل دكان صغير، وثقة من معبد يملوح حياً امرأة تتحرك. كان هذا الدليل التوحيد على أن «الأتارب» ليست مدينة أشاح معزود ركام بلا تشكيل ولا هوية. وكنا لا نزال نسمع أصوات القذائف القريبة.

تابعنا طريقنا إلى «سراقب»، وحرك القائد بندقيته وقام بتفصيل
بسرعة. ارتجفت. ثم وضع قسلة بجانبه. كانت القبلة إلى جسي
مباشرة. نظرت إلى كتلتها الخضراء. بضعة سنتيمترات والمسها
ارتجفت ثانية. وإذا اجتزنا المنطقة الخطرة، أحكم قبضته على القبلة
وضع سلاحه على طرف الزجاج. انتهت إليه وهو يجول بعينه كدس
في الليل. قال: «يا أمّا كلاب النظام، يا أمّا الزعران والحرامية التي
يثلحوا باسم الجيش الحر».

ميسرة في الأمام حهز بندقيته، والسائق كان يقود شات الأنيا،
ومحمد إلى جانبي قام بالحركة نفسها بسلاحه.

استطعنا المرور في العتمة المخيفة. أشجار السرو العالية تحيط
بالطريق الإسلامية الضيقة. بدا لي أنّ هذه الطريق لن تنتهي. تظاهرت
بالشجاعة. لكن استرخاء البندقية إلى جانب قائد المجموعة، ووضع
القبلة في حيب سترته، جعلاني أفكر في أنّ الوقت حان للزفير، لولا
فوهة الدفقة التي صارت في مواجهتي، إذ وضعها القائد بيني وبينه.
الموهة أمام عيني تمامًا. فكّرت في أنّ حركة سنتيمترات من أصابعي
على الرّناد، كهيئة إعرافي في العتمة الأبدية العذبة.

موهة صغيرة حدًا وشهية، تحذق إليّ وسط العتمة. انتشني منها
صوت القائد، وهو يقول: «روح كلّنا ولا تمش شعرة منك».

دخلنا أرفة «سراقب» بحذر. لم تكرر البلدة محررة بالكامل،
وقناصر الإداعة ما زال موحودًا، حيث مات كثيرون بيديه حتى هذه
اللحظة.

دخلنا البيت المكوّن من أقسام عدة، بيت عائلة كريمة، ميسورة
الحوال. يصم في داخله ثلاثة بيوت. هناك ناحية وسط البيوت الثلاثة

في النجف المحمدية، عرقه عديمه يستوفها القوم، حيث ضرب أفضل
 هذه، إنها ماء عديم مغت يعمد لأعداد العذلة إلى اليسار، بيت
 لاس الأكبر، أبي إبراهيم وروحه نور، سابت عدهما إلى اليسار
 بيت لاس الأصغر، مبصرة وروحه مال وأطفاه آلاء ورها ومحمود
 وبلا، وهم يعيشون مع الأم الكبيرة والحالة المحور الاثنان مقعدان
 غرب، نشرف عبيهما غيوش، الألة أبي لم تروخ

م. ب. وصد، حتى استمر البت لإعداد العشاء مبصرة من الأديس
 حرجو سميًا صد نظام لأمد، ثم تحوّل إلى مقاتل محمّد كان طالت
 في بداية العشوين يدرس التجارة انخرط في الحراك السلمي، ثم
 صد إلى صفوفه لمصلحة يترنح على الأرض حول طلق العشاء،
 وإلى حاسن دانتا زهاد وآلاء

صباح اليوم التالي، وقبل الخروج لرؤية نساء الشهداء ودراسة أحوالهنّ، وفي بيت العائلة الكبير، تتحلّق الجاراتُ الجميلات حولي، ويسدان الحكايات عن «سراقب». آلاء إلى جانبي تنصت، تمسك بيدي. ورّها تساعد أمّها، وتنظر إليها شزراً، وأنا أحاول استرضاء الاثنتين. أهمس في أذن آلاء بأنّ علينا سماع هذه الحكاية، فتغمري ونصع بعدها على دقّها، وتنصت معي إلى حكايات النساء.

المرور على بيوت النساء لم يكن سهلاً. كان على محمد أن يرافقني بشكل دائم في السّيارة، وكان ممنوعاً على الرجال دخول بيوت الأرامل، خصوصاً أنّهنّ في مرحلة العدة، التي تقتضي، حسب الشّرع الإسلاميّ، أن نمنع عن مقابلة أيّ رجلٍ إلّا بعد مرور ثلاثة أشهر وعشرة أيّام.

في طريق عودتنا من آخر زيارة، اقترح محمد أن نرور الحفظ والنّظام الّذي يقوم منطوي حدران «سراقب». من «العرافيتي» كان أحد

أهمّ الضوون التي لحأ إليها النشطاء في الثورة. ما إنْ تتحرّر البندات حتّى تتحوّل جدرانها إلى كتب مفتوحة، ومعارض متقلّة. الترحل الّدي يقوم بتلوين حدران «سراقب» ورسم لوحاتها، هو من يدفن شهداء القصف قال لي. «أنا أدفن الجثث» يقول جثث، ويُفرد كفيه، ويصيف: «سأحكي لك حكاية كل واحدة منها. لكنّ ذلك قد يحتاج إلى زمن طويل أنا أدفن الشهداء، وألّون حدران سراقب! ولن أترك هذا المكان».

نقف أمام الحدران المواجهة لمبنى المركز الثقافي في «سراقب». ألوان مشقّة تكسر شحوب المكان. في الجهة المقابلة، بناءٌ كُتبَ على حداره الأمامي: «صدق يا حاف العين ما تنسى الجفن، وصدق يا حاف الوردة ما تنسى العصر». وفي المقابل، جدار آخر مكتوب عليه: «دمشق، نحن والأبدية سكّان هذا البلد».

سحوّل في الشوارع. أصوّر الجدران وواجهات المحالّ، بينما المدينة غارقة في أصوات التّكبير للموت، وجنارات الشّباب والأطفال، السّوة وكبار السّر. عبارٌ وقحط، ولهيبُ الشّمس الحارق، وبحر ممّشي. كن رجال قلائل يمرّون، عيونهم محمّرة، لكتها مشقّة. وأربير رصاص القصاص لا يزال مسموعاً. القذائف لا تتوقّف. في المساء، سيأتي شات أسمر، وهو قريب عائلة ميسرة، محروق الحذّين. سيحس صامتاً لبعض الوقت، قبل أن يقول إنّ القذائف سقطت في حفله وأحرقت التّش الّدي كان يتأحر به. «موسم هذه السّنة انتهى». قال حملته، وأسد رأسه إلى الحائط. كنّا نجلس فوق حصير بلاستيكيّ، على فراش إسفنجي، نصفي بصمت. أمّه تنظر إليه بذهول، وسمع نحيبها لشواب، قبل أن تصمت أيضاً، وتصفي معاً إلى صوت رصاص القاصّة.

في اليوم التالي، قال محمد، ونحن نقف مقابل أحد الجدران في
الطهيرة: «بحرقون الأراضي الزراعية المحيطة بالبلدة لمعاقة أهلها.
لكني لست متأكدًا مما إذا كانوا سيوجهون قذيفة إلينا الآن. ربما
ي فعلون!». ننظر جميعًا إلى السماء الزرقاء الصافية التي نرعد
بالتفان. «عندما تسقط قذيفة فوق رؤوسنا، لن يتسنى لنا حتى
سماعها»، يقول، ونضحك. كان رتل الذبابات الذهاب إلى حلب، لا
يزال يتابع مروره قرب البلدة.

«سراقب» ستكون منطقة تماس لاحقًا عندما تحتدم المعارك، ولن
ينوقموا عن قصصها. يؤكد ثانية ونحن نتابع التقدم بالسيارة. نصير أمام
بيت مهذم نتوقف، ويردف محمد: «هذا البيت قصفوه بقذيفة، بعد أن
تم حرقه وقتل أحد أبنائه. الابن الذي مات تحت التعذيب في
النحر، لديه سبع أخوات، وأخ واحد، وهو يتيم الأب. بعدما قتلوه،
عنفوه في سيارة، وسحلوه في الشوارع. كان من الشباب الذين خرجوا
في تظاهرات سلمية. شاب آخر كان يقوم بتصوير التظاهرات، أمسكوه
ثم وضعوه تحت الذئابة، وقالوا له إن الذئابة ستمر فوقه. ثم حركوا
الذئابة، وكد تحتها طئوا على هذه الحال لبعض الوقت، ثم أطلقوا
صحبكهم. فل أن يعنفوه ونحن بعيد باء ما يقصفونه. في الجهة
الشمالية، نرى هذا البيت»، يشير إلى بيت في الطقة الثانية، فيه حجرة
كسرة. «هذا البيت لأخت أحد المشفقين، قصفوه فقط انتقامًا من
أبيه»

هنا حافض من الحامسة صباحًا على أصوات القصف لا
وب محددًا مضائف في الليل. بأني القصف في نوقيت دقيق بين
كل نصف ساعة وساعة تسقط قذيفة. مد ثلاثة أيام، سقطت منه
وثلاثون قذيفة. روح مبسرة، قالت إنهم مد بداية الثورة، لا

يعرفون النوم جيداً. ينامون ساعة واحدة، ثم يستيقظون. كانت عيوتهم عائمة. أحدثت آلاء ورّها، وبرلت بهما سرعة إلى الملحج. آلاء أمسكتني بعدعي وبحر برل القرحات، ورّهام أحاطني بدراعيها. كنا برل بطء لأن الظلمتين ممسكتا بي من حاسبي، وأي حركة عبر محسوبة كمبة بأن سقط نحن الثلاث. البيت كبير، لكنه يعغ بأفراد العائلة الترحين من بيوتهم: الحدة الكبيرة، أم الجميع، والحالة أيضاً، وجيل نسبت وأرواحهن، والرجال وروجانهم، وجيل الأحفاد، وأولاد الأحفاد. كل بيت تشكّوم فيه عائلات عدّة، هناك بيوت افتحمت وخربت، بيوت أخرى في مرمى القصف، أو يشكّل موقعها نقطة تماسق بيوت تقع تحت عين القنّاصة وبيوت لمنشقين اختفوا. العائلة كبيرة هـ، لكنّ الحير موجود كما تقول إحدى النساء.

الملحج عذرة عن عرفة واسعة، والعائلة تستخدمها لوضع لوازم العمل في الأرض والأنايب والمعدات. في الملحج فتحة تمّ ردمها. قالت مكال إنها أثار قذيفة سقطت من السماء، وباب الملحج غلّف بأكاس من نابون. الأطفال والنساء هن، ويتضمّن إليهم بعض الرجال. المحوزان نفيان في الأعلى مع رجال العائلة. تقول البنت الكبرى: «لا نستطعم التحرك، والنوقت اللّارم لبرولهما وحروجهما غير كاف لنهرب من معاداة الموت قذيفة وهما مريضتان، وتبقيان في الغرفة، نسمع أصوات القذائف وعدم يهدأ القصف، نسمع صوتاً من منده النجم مع معنى موت أحد الأهالي، تنقى المحوزان في الأعلى سفرا إلى انمراع السبط الذي يتيحه رجاج النافذة».

بعد أن برنا إلى المنحل، كانت آلاء ورّها ونالا يزهران بأنفسهن، ويتحدثن عن أنواع القذائف والقنّاربع، وتحمل إحداهن بيدها قذيفة، نحتفظ بها ذكرى. جاءت عائلات من الحوار. وبرلت إلى الملحج.

عائلات كثيرة لا ملاحى لديها . العائلة التي يتمركز القصاص في مواردها بيتها . هربت إلى هنا أيضاً . رأيت بيتها ، كانت آثار رصاص القذائف تتوزع على الحدران . قالت الأم ، ونحن نتجول خائفين ومسرعين ، أتت عندما تريد الانتقال بين العرف ، وعورَ صحن الدار ، تقف طويلاً وهي ترافق القصاص . تعافله ، ثم تهرب منه لتشرب كأس ماء ، أو تاتي لأولادها بالطعام ، أو لتقضي حاجة . «أنا ألعب مع ابن الكلب هذا القصاص» ، تقول وتضحك . تضع على رأسها حجاباً زهرياً ، وترتدي فستاناً مريكتاً نباتات استوائية . الفستان يلامس الأرض . النساء كنهن هنا يرتدين فساتين طويلة ، والأم التي تلعب مع القصاص بدت عربية برهوها وسط دمار بيتها . قالت لي نساء البلدة ، لاحقاً ، أن القصاص نفسه قام باستهداف امرأة في عضوها التماسلي ، وقتل طفلة في الثامنة عشرة من عمرها يوم مغادرتي البلدة . وهو القصاص نفسه الذي اضطر الشباب لحملني أدخل بين البيوت ، لتحنّب المرور في الشارع الذي يطل عليه تلك الحادثة التي جعلتني أتوقف ، وأشعر بأن شللاً ما يمع ركني من الأسفمة . صرح الشباب : «هيك ما يمشي الحال ، بدنا قوة فلنا» . أيضاً نعلمت من تلك الحادثة أن أوخل حزبي وشقائي لوحدي . كانت أبواب البيوت مفتوحة أمامنا ، ونحن نراوغ القصاص بصر من نافذة ، إلى أنه في أسفل الدار ، ثم يدخل صحن دار أخرى ويحمل أحدث . ونحن ندخل البيوت العربية . العجوز التي اجترأ سه . بما كـ في عرفة الخلو . ألقيا عليها السلام ، وردت وهي مستغية ، من دون أن تتحرك . كانت معنادة على مرور أهل السند حرسها . لقد فتحوا أبوابهم وهدموا الحدران في ما بينهم ، وجمعوا من سونهم شوارع لهم . تحت نقاص وأن أقصر من النافذة ، حدثت مني ألمع اسمعان ما . كنت تحذف النظر في السقف ، كأنها لا

نراها نحن الثلاثة. عبرنا بيوتاً كثيرة، وصرنا بأمان. كانت هذه هي
الطريقة الوحيدة للاحتفاء من القناص!

في النهار أيضاً، كانت القذائف تنهمر رغم سطوع الشمس،
وانضمت لا تقطعه في وصح النهار إلا أصوات القذائف، ورصاص
القناص. قلت الأم صاحكة، ونحن نتجاوز عتبة البيت: «ما تخافي،
لن يكون القصف شتال، القناص يهذي اللعب». غمرت لي عينها،
ثم حمت ابها بيد واحدة ورفعت في الهواء، ورمته في حضنها. كان
بينها ورجلها، مجرد بساط يعطي أرض عرفة واحدة. عندما عدت معها
إلى المنحدر، جاءت عذبة جديدة من الحيران. قالت آلاء التي دأت
عنى سرد حكاية ليلية قل التوم، وهي تشير إلى العائلة الجديدة:
«أنهم معاً، وأبوهم مع بشار أنا أبي من الثوار، وهدون مع بشار
كمد، يعني مو معاً من معيش، لازم يتحتوا عنا مشان ما يموتوا».

هذه الشمراء الصغيرة - شهرزادي - كانت تملك أجمل عينين
سوداوين رأيتهما في حياتي. تمشي بخفة، وتسرح شعرها كل ساعة.
يصبح عيبه النورود الاصطاعية، وروداً صفراً وحمراً وزهرية، تختارها
بأنوار لونها. تراف الجميع، وتصيح أكثر دقة عندما يزل إلى الملجل.
بهذا أحنها الصغيرة ابنة الشين ونصف السنة الشمراء تراقب جميع
الأطفال حولها، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها، ثم تشرح لي
- تفصيل - حكايات موت الحيران، والشباب الذين اختفوا من البلدة
واحدًا تلو الآخر.

كل توقف القصف بقليل، سحبت القديمة من يد أحنها ابنة
تشرين ونصف، وقالت لها بكل هدوء: «الضمار لا يحملون
القذائف» هي لم تتجاوز الشائعة، وعندما كانت نسمع صوت قصف
جديد، ونحن ننظر منكوبين بعضنا فوق بعض، تهرع لتحضن أحنها،

وتضمنها بشدة. امرأة أخرى يتكؤم أطفالها حولها في زاوية الملجأ.
تقول: «كان جنود بشار ورجال الأمن والشبيحة يدخلون وينهبون
يأتون بالشاحنات المعبأة بالذخيرة، يقتلوننا بها، ثم يعودون بنسب
الشاحنات ممتلئة بأثاثا المسروق. قتلوا أولادنا وسرقوا بيوتنا. ولكن
لماذا فتحوا خزانتي، وقاموا برمي فساتيني في ساحة الدار، ومسحوا
مؤخراتهم بها، وبالوا في أكواب الشراب؟ حتى فستان عرسي القدي
لم يسلم منهم، صار كله خراء».

في بيت آخر، سأرى أطفالاً كثيراً صامتين. كانت هناك امرأة
تقارب الأربعين تمسّد ظهرَ ولدٍ تجاوز العاشرة، وهو الوحيد الذي بقي
لها، لكنه مصاب بخللٍ عقليّ. لا يتكلّم، عيناه الزرقاوان تصحكان.
وحفه قمحيّ جميل، وفمه مفتوح، يسيل منه اللعاب. كانت المرأة
أمّاً لثلاثة شبانٍ آخرين، حكّت قصتها، وبقيت عينها مفتوحة على
اتساعهما، وهي تشرح بالتفصيل كيف سحقوا ابنها من حضنها
احمرّت عيناها، وسقطت دمعة. قالت إنّ الدمع لم يعد يخرج، كانت
دمعة كبيرة جداً، سقطت بهدوء، وهي تروي قصتها: «أخي كان من
أوائل الناس الذين خرجوا للثورة. كيفما اتجهت هنا يعرف الناس
محمد حاف. إنه بطلٌ سراقب. خرجوا في تظاهرات سلمية أولاً،
لكنهم قصصونا، وأعدموا تسعة من أولادنا أمام الجميع. بقي أخي
يقاقل حتى الرّمز الأخير. كان يقول لي: لن نموت كالحبّاء، سموت
كما يليق بنا. أخي الثاني أيضاً قتلوه. حرقوا بيتي، وهربا من البيت
قُتل أحوا لي، واسي اترعوه من حصني، رحتهم أن يتركوه معناه،
لكنهم لم يستحيوا لي. اسّي الثاني أيضاً قتلوه. ما زال لديّ هذا ولد،
نكنه مع الثوار ذهب أولادي راحوا كلهم، وبقي هذا الصغير، نشير
إلى اسها المريض الذي ينظر إلينا باستعراب، ويصحك. تناع وكما

تربس . يا حسرتي! ابي الذي بقي مع الثوار قال إنه لن يعود حتى
تصير سورية حرة».

بأتي بصور ولديها الشهيدين . الأول، عيباء خضراوان وشعره ذهبي،
في التاسعة عشرة من عمره . أصابعها على الصورة تتحرك كأمواح . تصرد
الصورة الثابتة لثابت لم يكذب يعمو رعب فوق شفتيه، ثم تسحب صورة
«محمد حاف» وترفعها عاليًا . الصورة الرابعة، تتوقف عندها تطرق
رأسها أرضًا . تقول: «استزعوه من يدي . بقيت ممسكة به حتى اجتمعوا
عليّ وسحبوه من حصني . توصلت إليهم أن يتركوه . ركضت وراءهم،
لكنهم أحدوه . كان ناشطًا في الثورة، قتلوه . كان طفلًا . . .» .

فصصر الضاح لا تنتهي في المساء، حين يعود من حولة في
القرى مع الشاب، يحصر أحد المقتولين المشفقين من حبل الزاوية،
وهو قائد كتيبة عسكرية . عيباء تصحان بالحيوية، لكنه بين حين وآخر
يسهر، فيلتحم حملاه، ويبدو وجهه هادئًا إلا من الموت . قال . «أخي
الضعيف، أحدوه إلى السجن، عذبوه، وأخبروه بأنني قُلت، وأنهم
فقطوا حلي ورموا أجزائه في الجبل بعد أن عذبوه، أحرقوه حيًا .
نحن من قرية عين لارور، قُتل منها ستة أولاد . أحي كان في السادسة
عشرة كان حيًا عندما أحرقوه . وقد بلغ عدد الشهداء في قرية ستة
عشر شهيدًا أهلي تركوا البيت، واحتسأوا . في بداية الثورة
والاشتدات، كنت أتواصل مع صابط عنوي؛ كان صديقي، تواصلت
مع صف الضبط أيضًا، ومع الأهالي وخلال شهر في بداية
الاشتدات كان لدينا سبعة عشر، أربعة هربهم لي هذا الضابط
العنوي الذي كان يقوم بمساعدتنا . في البداية حدثت معه، ولكنني
حارفت بالتعامل معه، وبقي يساعدا حتى آخر لحظة . كانت
الاتصالات بيننا تتم سرية تامة لم يكن يحدث عن الهاتف فجأة

أحس ولا أحد يعرف عنه شيئاً النظام يحاف من الانشقاقات، فكر
يقوم بتعبير الضابط دائماً. بعد ذلك، سيطر الجيش على المنطقة كلها.
وسحب الآن تكتيكياً إلى حلب، لكنه سيعود. نحن نقوم بتصنيع
بعض الأسلحة حين لا يتوافر السلاح. جربنا أن نصنع صاروخاً بمواد
مدنية، نضام كنا نعمل ذلك، لكن في إحدى المرات، انطلق
الخروج ندي كنا نحرقه، نحو السماء واختفى. حفنا، وركضنا. كنا
في حفل فصح. كنت تحربة فاشلة.

بفهمه، فتعرف عيبه في محجريهما. يتابع: «ركضنا مثل نوم
وحري، وحشيب أن يسقط فوق البيوت، رغم أننا كنا بعيدين جداً
منها، لأن وزنه كان ستة عشر كيلوغراماً، وهذا يعني أنه سيسقط بوزن
سبعة عشر رطلاً وحده بعد أيام في حفل القمح نفسه. نحن نعلم
ألف، ومن لم يكن في أي لحظة أن تنفجر بنا الصواريخ».

نصبت شنت، يطر إلى الجمع حوله. كنا كثيراً، نجلس في
المرسى العائنة الكبير، وكان عدد المقاتلين يفوق العشرين، وصوت
القذافي لا يزال يسمع

يريد المعدل الاسترسال في حكايته. لكن صوت القذافي لا
يوقف، ولأنه الضمراء نظير عنب وزق، لأن وقت التوم قد فات،
وهي لا تسمع بل أن نحكي لي حكاية، حكاية الجيران الذين قُتلوا،
وسمع تحت عدد صدائهم واحداً واحداً، وهي تقرر من كان أحبتهم
إلى نفسها. فالتت لي، ونحن نعاود القبور. «يعني إنتي كمان رح
توري» صحت. وقتت إلا... لى...!

فل أن أنه حمضني، هزت رأسها، وقالت بسخرية: «هي... هي...
هي... كل التي ماتوا فأتوا بصر الشئ!».

تركت آلاء هذه المرأة بعيدًا من الحكايات. طلبت من ميسرة
ومحمد عدم رواية ما يحصل أمامها. أخذت تلاحقني بعينيها مد
الضاح، كأنها أدركت خيائتي لها. الشاب الذي سيذهب معا كان
ينظر في الخارج، وعندما أحرثتها بأني ذاهبة إلى جبل الزاوية، شمال
عربي «سراف»، عشت، وأدارت ظهرها، ثم رمقتني بنظرة قاسية.
قلت لها: «سذهب إلى جبل الزاوية، يجب أن نرى روجات الشهداء،
وسرى ظروف كل واحدة منهن، والمشروع المناسب ليصبح بإمكانهن
الاعتماد على أنفسهن. كنت أتمنى أن أتمكن من اصطحابك، لكن
هذا خطر عليك وانقص مستمر». قالت: «أنا ما بخاف». حسمت
أنها الموصوع «السنات ما بيروحوا لهلك محلات». بطرت إني
«سنعراب». عمرت لها بعيني وهمست. «أنا رحل متكر مثل السنات»،
فصحت بصوت عالٍ، ثم غمرني أيضًا، وانتعدت عن أمها، وهمست
نبي «اليوم صحتي بالنيل رح أحبك شو بصير» صحت وأعنت
الاب بقوة.

في الطريق إلى «جبل الزاوية» توافر الوقت لسماع المرید من القصص. كل شاب يروي لي قصة سخلت مئآت القصص، ومنها

«وجدناه بعد ستة أيام. كان ملقى في الحرش. احتفى يوم الرابع والعشرين من دار سنة ٢٠١٢. وهو اليوم الذي اقتحم فيه الجيش مدينة سراقب كان متكوّماً، ورائحة نمتة تفوح من المكان. دمه القاسي واضح، لأن حرقاً تخيلاً بدا جلياً في رقبتة. مات دبحاً. ثيابه على حائها. يبدو حسده من بُعد كقطعة قماش مرمية. لكن قطعة القماش تلك حملت في ذلك الحرش جسد شاب من بيت العبود، هو أول من استشهد يوم اقتحام سراقب. ظننا أنه معتقل مثل كثير غيره، لكنه كان ميتاً بقي حياً في قلوبنا ستة أيام إصافية، أنا واثق من أنه تمّ القصر عليه بطريقة عادية. يومذاك لم يحمل سلاحه، تركه في البيت، ثم حرق واحتفى لو كان يحمل سلاحه لما سلم ببساطة، لكنهم غدروه الحرح الذي حرّ رقته كان من الحلف، لقد شرب التراب دمه.

ونابع اسحب الجيش بعد الاقتحام الأول، وكانت خدعة لنا في القبل من عاصره. كان ذلك يوم السبت. عاد يوم الثلاثاء ليقتمهم نمنار وحرّحار. وأيضاً لإحصاء المطفة كلّها مجدداً، بعد أن سيطرنا عليها أحرق سبعين بيتاً في حرجاز، ومئة في سراقب. دخلت دباباته واقتحم البيوت، كان عديده كبيراً. عندما حرج، كانت سراقب كتلة من حراب يومذاك قتل حيرة شاسا. سعد باريش طويح الفراش بعد إصابته شظية في يده، وأخرى في رجله. كان في بيت أخته، والأخت واسها عدي معه، حين اقتحم عاصر الجيش البيت وخرّبوه، ثم سحوه وس أخته من حصر أمه أحدهما، وحرّوهما في الشارع. كان الحرج بصرح، لكنهم لم يلتفتوا، بل ظلوا يسحلونهما في شوارع سراقب حتى نواروا عن الأنظار أحدث الأم تصرّح وتلحق بهم

رموها أرضاً، واحتفوا، وسمعنا رشقات رصاص. كانت الأم تركض
حيثاً، وترحف حيثاً آخر، في اتجاه مكان إطلاق الرصاص وحدها
منفيرة على الأرض مقابل حائط. رصاص في الرأس وفي كل أنحاء
الجسد، حتى في مكان إصابة الجريح، في رجله ويده. رصاص مرق
النجم الأم نفسها التي انتزعوا منها من حصنها وجزوها على الأرض
فل أن يمرقوا حسد الابن بالرصاص، استقبلت حدوداً آخرين بعد
مرة. حاؤوا من أحل منها الثاني. كان الحدود جائعين، فطاحت لهم
بقدم. أحدهم صار يصرح بها، فشمته وقالت. أنت في بيتي وتأكل
من طعامي، وتصرح في وجهي؟ صمت الجدي، وطلب من رفاقه ألا
يؤدوا المرأة، لكنهم أخذوا ابناً المراهق. حين خرجوا، كان الجدي
الذي صرح بالمرأة حزينا وهو يراها تنكي، وتتوسل لكي يعيدوا إليها
خرجوا، وعاد الابن ميتاً.

مع ذلك، لم يتسلم الثياب، ولم يحافوا من أعدادهم
نضمة، ولا من قصفهم وقتلهم، وطلّوا يدافعون عن البيوت حتى
دعت دحيرتهم بقي ستة منهم محاصرين بلا ذخيرة، فاستطاع الجيش
الفتح المرل الذي ينحضون فيه أحرقوا القوم، وكانوا سيعدمون
صاحب الدار رغم أنه رجل عجوز، لكن زوجته حثت عبد أقدامهم
وقد نههم. توسر رجليكم يا أولادي لا تقتلوه، توسر رجليكم
أتركوه. رزمة اختيار. وما إلو دخل شيء لم يقتلوه، لكنهم
صروه بوحشية، ورموه في الشارع. أخذوا الثمن الشقة، كانت
عندهم بين العشرين والثلاثين. أسدوا ظهورهم إلى أحد الجدران،
وأضنفوا النار عليهم دفعة واحدة، فمخروا جميعاً خلال لحظات،
وتكفوا بعضهم فوق بعض، وغادر الحدود المكان، كأنهم لم يمعروا
شيء في اليوم الثاني، حالوا في شوارع مراقب. أوقفوا محمد عنود

في وسط الشارع، وأطلقوا النار عليه، ثم اعتقلوا أحاه. يومذاك، قتل محمد ناريش المنقب محمد حاف. لم يتحاسروا على مواجته، لأن غرف بشدة الأسر، وكان قائد كتية حطيت بشعبية كبيرة في سراق حامت طائرة في السماء لا غيباله، وفي داخلها حود يطلقون عليه اسم من أسلحة رشاشة. يعدونهم على الأرض عناصر في عربة بي إم دبليو يضفون رجايت متواصلة من الرصاص في كل الاتجاهات بعد أن قنبوه. ونادى من أنه هارق الحياة، اقتربوا منه، وقاموا بالرقص والهدف انتهاجا أما رهير عبود الذي اعتقلوه في ذلك اليوم، فقد خرج بعد ثلاثة أشهر من التعذيب. وبعد أيام قليلة كان يسير في أحد شوارع سراق، فدهمه رصاص قاص. حققوا بصرا مؤقتا علينا. كن نصير نكلانسيكوف، وكاسوا يردون علينا بقصف الذبابات والقذرات. نكر، كما قلت لك، كان هذا النصر مؤقتا فقط.

اسهت رواية الثت، قائد المجموعة، عن الافتحام الأول لـ «سراق». ولدي كان يرافقا في السيارة. قصة واحدة تكفي لتدوينها من بين مئات القصص.

الشمس بحرف، وسحب بحوث الزيف الشمالي لحلب وإدلب وحماه. أنه مرور بتوقف عند حواجز الكتائب المسلحة ومقارها كان ذلك سنده كتف مآخري نهوية السورية، ولحفرافية بلد من طين وده ودر، ومحدث لا نهبي العمار في كل مكان، ولهيب من نار حل بروج من بعد، ثم ذلك الضمت المريب في القرى. كآتها محرد وبعد الناس لا يظهرون إلا قبلا، وأصوات تحليق طائرات في حوز مصف صر بعدا عن قل الشاب «ممكن في أي لحظة أن سمع صهده، ونكر لا يبدو الآن أنها منسقط».

مخبرو العدوية، واحتبار القرى الضامنة، وحواجر الكتائب

نمسحة في الظهيرة، والملوحة في عيني. كن ذلك ألقى بي على
حوت اسكاه، نولا أني لمحت شيئاً ما ينحرك. بطرت هذا حقل
وسبع، في بهانه مجموعة حيوط من الماء ترش الحقل. إد، الحياة
مسيرة رعه كل شيء! وفي نهاية خط الأفق لاحت فتاة لا تتجاوز
خامسة عشرة. حقق قسي وطرث إلى السماء، هل من الممكن أن
يكون هدف نقاص في طائرة؟ كانت تقفر بفرح وتضع رأسها تحت
ماء. سرع حديثها وتلله مع شعرها، وتمسح وجهها.

وحدة، ظهرت بيوت طيبة صغيرة مقسة، ثم مرّت شاحنة صغيرة.
مجموعة من القبات الضغيرات المثلثات تحت الشمس، انحسرت في
صدوق الشاحنة. كن واقفات، وبهد كل واحدة مهن معول، وإلى
حسب صبح مساء. تتوقف السيارة، يزلز منها ويتجهن إلى الحقل
من غير الممكن أن تكون هذه المناطق عرضة للتحوّل إلى حاضنة
نمعة بحمدنيس واستفيس، لأن طبيعة الحياة الزراعية والرعية لها
بصن وحوود انشاء في العمل قبل الرجال. إلا في حال تم حكمها
عزة السلاج

فرى على امتداد الشمس والعمر والثعب، لأسماها رنب حاص
ومعها مصاحنه اربان، لوف، معصراني، قطرة، كفر عسيم،
صه. وفرى أخرى تقاوم الموت التارل مباشرة من السماء. تزل
مست الضغيرات والتماء بانحاء الحقل اللثام الذي نتلثم به كن
وحده، وندي لا يبدو منه سوى أعينهن، وضع بطريقة تكمل حمادة
وحدهن من الشمس لأنهن يقمن بعرق الأرض في عز الظهيرة

هذه نفة تنوح من بعيد: إنها «ملكة ييلا»، في قرية «تل مرديج»
في ردهوت حصارها مد ألف الثالث قبل الميلاد، قال الشاب بن
صانف صاروحيّة علة انهمرت عليها.

الروح الحارق يلفحها. اختفت الحياة من جديد، لولا أسراب من
الطيور تقطع الضمت. كان يحب المرور أمام مجموعات عدة من
الكنائس، والشبان بحاجة إلى ذخيرة ويريدون الحصول على بعض
إضافة إلى أن هناك مشكلة حطمت سيقوم أمير إحدى العشائر بحمل
وصلنا إلى مقر كتبة «لواء أحرار العشائر» في منتصف الظهيرة. كن
مجموعتين في سيارتين. الشبان يفاوضون على شراء كمية من السلاح
لم يعد لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم. وقفت بعيدة أراقبهم
الرصاصات تدمع تحت الشمس، والشبان يحركون أصابعهم بيها
ويذرونها مثل حبات العدس. لم تكن كمية كبيرة، وبصعوبة تكفي
للدفاع عن بضعة بيوت، ولكنها كانت ضرورية لكي يواصلوا التفاوض
لحصول عليها، والأفضل بسعر أرخص أيضاً، لأنهم لا يملكون المال
الكافي.

دخلت النساء الشمس تجلد الوجوه. أربعة شبان كانوا في
بعضهم كل سلاحهم لا يتجاوز «الكلاشنيكوف»، ومقرهم لا يوجد
في هاتف أرضي، أو إنترنت، والهواتف الحوالة غير متوافرة لأن خدمة
الاتصال مقطوعة عن المنطقة كلها. كانوا يشعلون غرفتين فقط
محمومة من الأسلحة البسيطة، يواحهون الدبابات والطائرات. وعلى
رغم ذلك استطاعوا أن يهرموا قطعاً عسكرية عالية التسليح، وأن
يحرقوا على الشرائع الشات الأسمر الذي جلس إلى جانب قائد
المجموعة بعد عن فوضى المكان. كانت هناك طاولة ويضع كراسي،
والشمس تحرق العرفة وجوههم ملوثة بسمرة قاتمة. في الزيارة
اللاحقة سأعرف أنه تم قصف المقر حينذاك، وقتل القصف، كنا
مستعجلين لموصول إلى عشرة «أمار الموالي» في «الذقرة»، وهي من
عشائر ريف «معرفة النصارى»، التي ستنفي بأحد أمرائها، فساكتشف فقر

أسائها وكرفهم وعرة نفوسهم وشجاعتهم سأسمع أيضا قصصهم
الكثيرة، التي كان أحرها حماية صوامع الحبوب من الشرقة، كي لا
يجوع الناس هناك، ستحدث مع مجموعة من الشباب، ومع أمير
العشيرة، عن أهمية وحدود دولة مديّة، وعن سورية واحدة، طائفها
الحرية فقط.

أمير العشيرة، عبد الرزاق، كان رجلاً في منتصف لحمسيات،
بحول فت أحد المخطوفين روحته تعدّ لنا الغداء، واسه دو الثلاث
عشر عامًا يقوم بخدمة الضيوف.

مرت طائرة في السماء، خرجتُ لأنظر. حرح الجميع يظرون
بها مثني الحوف يستمرهم. وحين نظرت في تلك اللحظة، عرفت
معنى لمعى والوطن، رغم أنني أتسلل هاربة وبطريقة غير قانونية عبر
حدود بلدي فالوطن هو أن أحقق الآن في طائرة ستلقي قذائفها
عسا، وأحرق إليها بثبات ودقة، ومن دون خوف، وأتابع أين سترمي
المدى والمعى هو أن أكون حالسة في ساحة «الباسيل» وسط
باريس، أرتشف قهوتي تحت شمس لطيفة، وعلى يساري عاشقان
يسدان نفل، ويحط عصمورٌ على ركعتي، فأقفز من الفزع والخوف.

عند إلى مصافة أمير العشيرة، ستابع تفاصيل تحرير أحد
سجنائهم قال الأمير «كما تريد نحن هنا انتفضا ضد الظلم لا
نريد سوى مطالبنا العادلة في وطن فيه القادون هو ما يحكمنا، نحن
الأصل عشائر ولدينا سلاح، وعبر أننا خرجنا بشكل سلميّ ونكز
عند أرادوا قتل أطفالنا وسائنا حاربناهم والله العظيم أنا رجل
حرمي ومنعّم، لكن طمر طفل من عشيرتي بساوي الذب عنها، ونر
أقل أن تضمنهم كرامته وكرامة أيّ سوريّ والله أنت كأحني، وأندي
بمعي شعرة منك، فكأنه من أحني أنت معي في موقف ضدّهم»

وضعان بيت الأسد. وبحر كنا سورتيون ضد الظلم

تحدث الأمير مطولا، وأنا أصغي إلى حديثه الذكي والمثقف،
اليسط ولعميق، وهو يروي كيف صاعت ثروته منذ بداية الثورة،
وكيف نفسمها مع الناس وتحدث بمخر عن أخيه، القائد المقاتل ضد
شار الأسد

كنت تلك الاكتشافات المذهنة في قرى الريف المتناثرة لم تسمي
من اسحضر حديث حندي مشق، في مقر الكتيبة المقفر التي
ركبها وحين وقف بعيدين قبلا من رؤية السلاح ومعابته، ألتفت
عني حكيمته ونمعد عبيه المحفورين في ذاكرتي. قال الحندي المشق
في حكيمته

«مطوع أن ومحمد معا كان دائما إلى جاببي، في حمص حبر
ك يدهم أحد لأحد، فلو لنا، توجد عصابات مسلحة وإرهابية.
دحت بك وكنت كل ما فيه، مصرح الضابط فينا، وهو يسب وبشتم.
أول يوم أخذنا عصابة فتاة. كانت العائلة تختبئ في إحدى
الغرف، أمرنا الضابط بالتأهب، بعد أن وقف وسطنا، وأخذ يستعرض
وحواف برصعه، إلى أن وقف وحيط بكفه على ظهر محمد، وأمره بأن
يدخل الغرفة محمد من قبة الضابط نفسها، في منطقة العاب. تراجع
مدحور، وأخذ الضابط يسه «يا مرا» يا حريمة! ركع محمد على
الأرض، وبحر على حده الضابط، ويقول له: «دحيلث يا سيدي
و... يا سيدي، عسي من هاشعنة» ركه الضابط، ومد يده إلى رتار
صده، ود... رج افمع لك يده يا حريمة! صار صديقي بكلي، نو
بحر من محمد محمد لا بكلي هو شات شعاع لكنتي رأيت دموعه
جهدت كد بكلي مثل الأخدان، ورأيت محاطه بسبل فوق فمه كأن
يوسل إلى الحاد أن يعمه من الحمة محمد صديقي، ولديها الكثير

من الأسرار المتبادلة، وأعرف أن لديه حيلة. عندما مذ الضابط يده
 من فحدي محمد، وقال له: «تعلمت كيف تعملها يا حريمة» بذلك
 علمت كيف؟ ركنه محمد، وهجم عليه. كان قويًا، واستطاع أن يطرح
 نفسه صرته، ثم توقف ورعى سلاحه بهن الضابط على الفور.
 وصل النار على محمد، فأرداه. أنا رأيت هذا يعني وهل تعرفين
 على أي حرة من حسد محمد اختار الضابط أن يطبق النار؟ صمت
 سلا. قل أن بشير ومن دون أي تدخل إلى ما بين فخذه «هول»
 نه - مع حديثه

عندما ضمت من صديق الثاني أن يدخل ويعتصب انقضاء، دخل
 صمت. ثم سمع صراخها، وصراخ أمها وإحوتها لأنهم حشروهم في
 عربو ذبابة كان أبوهم مشفقًا، وقد قُتل قبل يومين. فعلوا ذلك في
 يد حمص، وبعض أحياء حمص يومذاك قررت أن أشق. والله،
 لا يمر يوم من دون حبال محمد. هو في قلبي، أحتفظ برسائله لحبيته
 في بيت أمي، وإذا عشت سأوصلها إليها، سأفعل ذلك، هذا قسم
 «نور في رمي، إذا بقيت على قيد الحياة»

عند ذلك، وهو يرقد «إذا بقيت على قيد الحياة»، كانت شمس
 جبهة الحارقة تنفحها تحت رعد القذائف.

في مساء عدت صامنة، بوجه محروق لم أعثر شمس ناديه
 «حرب غوش في سطر مع النسوة والأطفال آلاء كانت تحلس في
 عصي، ونمش شعري، ونراوغي لمعرفة الحريد عن بهاري، وعن
 عصي سي سمعتها كنت مشروعه لحكمة قادمة أراد بحوي
 في حكيه، وحمي مشروعه التحكمني قبل أنوم صوف شعري
 «بريد أن تكون ندي مائة تفضي عني للأحرار عول به حبه
 كبر حركات من حولها نكن سكت شتعة لحفنه سي وسر به

الساعة لم نكتمل، فقد بدأ القصف. حملتها بسرعة، وأمسكت
 رُها وركبنا مدعورات إلى الملجأ. كان دوي الانفجارات قويًا
 المحوران بقينا في الأعلى. لحقت بنا العائلة من الغرف المجاورة
 وهناك، في الأسفل، قلت لآلاء جملة سحرية جعلتها تنفص: «ندى
 أحبك لك حكايتي». لمعت عيناها في الظلام، والأخت الزرية زهد.
 أمة الحادية عشرة، انصقت بي، الاثنان تحديقان في عيني، وأصوات
 النقص لا تتوقف، وبدأت أحكي لهما: «أنا لم أكن كما ترياني
 بالأصل، في حياتي السابقة، كنت غزالًا تألم بشدة، وانفجر قلبه
 لأنهم مطرد بحية إليّ وصرختا: «ما تكذبي!». ضحكنا... صحك
 ضوبًا، وأحاول إقاعهما بأنني كنت غزالًا. قلت لهما أن لا حبر
 في سوى التوم ما على الحصير، وإن عليهما الاستماع إلى آخر
 الحكاية، وألا ينسي سأنام لأنني مرهقة. كان المزاح كثيبًا، والعائلة
 الكبرة سكوز فوق بعضها البعض بخوف، لكنني أكملت من حيث
 أبيت. بعد دعاهم «تألم قلب الغزال، وهناك نزلت نقطة دم على
 المنب الأحمر... وولدت!».

عمود، وأكمل الحكاية، وبدأ نطقي بثقل. لمحتهما مثل
 طيف وهما يعمدان ترتيب غطاء رقيق على ظهري قبل أن أنظر
 بهن

البوابة الثانية

شباط ٢٠١٢

هذه ليست لوحة فقط. تستطيع أن ترى الرأس ناقصًا، والذراع
سدني من جانب الشفة السفلى، ثم تلمح بضع قطرات من الدماء تترلق
بطء أسفل اللوحة، تمتصها ذرات التراب. مشهد يتدعه السوريتون كل
يوم

سوريتون بأكدون سوريتيس، يمصفونهم ببطء، ثم يغذون المسير
باتحاء سهوب أوسع للمحزرة هذا ليس محارًا من كائنة مريضه بباس
أصبع الدم والكثافة كان ذلك واضحًا لي، ونحن نجتاز المطار الأول
من إسطول باتحاء أطاكية. ورعم معرفتي بتفاصيل الرحلة المعتادة،
لا أن صورة اللوحة التي احتلت فضاء المطار وأنا أرى عشرات
نساء المحتجين أربكتني. كانوا يرتدون نظارات سودًا، ويطلقون
ندهم بطريقة عربية، منهم من قدم ملوبنها بالأحمر تيمًا بالنبي محمد،

وحلقوا شواربهم كانوا مصطربين، ويدو أنهم مستعجلين. لم أجد
ما إذا كنت سألمحهم مرة أخرى، لكنني حاولت مرارًا العود بسبب
لمعرفة هوياتهم وحسبهم. أحدهم يمني والآخر سعودي. جميعهم
يحدثون انظر إلى النساء. أحسن بالقرب منهم لسماع ما يدور بسبب
من أحدثت كانوا صامتين، ومثلي ينتظرون الطائرة المتجهة إلى
الركبة انحصار مكنط بالناس، والبشر يتحركون داخله مثل جماعات
تسوي لحلاص معحنة وقلق. في مطار إسطنبول وأطاكية، كان
تتوربون يختصرون مأساة الزمن القادم في تيه عيونهم الواضح

حقيني صغيرة، أصعبها على ظهري. كنت حريصة على تخفيف
حمل الكثير من الأشياء أثناء عبوري الحدود. صعدنا الطائرة. أمامي
بحلج بمين. وعلى الجهة المقابلة سوريون وسوريات. عالية ركان
نظرة من السوريتين والعرب.

«الزحمة» التي سأعمرها من جديد ليست بلدة فقط. هي مدينة
صحة. كنت قبل الثورة هادئة، قتلة للسلاح السوريتين واللبانيين،
و. دهرت بفصل نهري الصانع بين تركيا وسورية لوقت طويل،
بحرف عبر حدودية التي يقطعها الدو، وكانت لهم علاقات قوية
في شهرت مع فرق مثل «الطمة» التي بُني قريبا واحد من أهم
محطات محو. سوري وأكثرها بؤسا. الهدوء والتبادل التجاري
وهرت صانع. كي دت لم بعد ممكنا الآن؛ فقد تحولت المدينة
بهذه إلى مكان معرض سفدائف بين الحين والآخر، وصار الزحام
في حلف. بعده أسود الأصلاء نتيجة لروح الأعداد الضخمة من
لاجنس سوريين نعين هربوا من القصف، وهؤلاء لا يحتسبون
لاجر لأهلهم بمعنى. حرج المحيمات الرسمية. هناك تجار صغار
يسلمون من هذه منطقة الوسط بين عالم الموت وعالم الحياة.

ويديرون أمور الموت، ويحولونها مواداً للتجارة، ويديرون أمور الحياة كذلك، إضافة إلى الفقراء الذين يبحثون عن لقمة العيش في الشوارع، أو بعض الأعياء الذين يطلعون الأمان وهناك بينهم أيضاً موالون لنشر الأسد

السيارة تجتاز سا الشوق التي ستؤدي إلى القرية الحدودية. كنا نتحرك بمشقة السيارة بطيئة من الرحام. هناك يبدو كل شيء معروصاً نسبح، بدلات عسكرية لـ «الحيش الحر»، أعلام الثورة، حرداوت، أنسة وبقايا أدوات منزلية. بضائع ومواد غذائية معلنة تنتشر على الطرقات، ورجال وشباب وأطفال يدللون على البضائع، غالبيتهم من السوريين في الواقع، لم نجد على الطرقات باعةً أترانكا. كان الباعة سوريين، والترابن الذين يعودون بالزح الوفير كانوا من السوريين أيضاً

بتأقف الأترانك من الوحود السوري ومن اللاجئيين، لكن الأمر محلف في العمق، هناك ربح بالتسبة إليهم. وهنا، داخل هذه القعة الضعيرة الملاصقة للأرض السورية توجد أطراف الصراع. جماعة النهم بوحدون ولهم أعمالهم وقواتهم التي يريدون التسرب منها إلى الشوار والنشطاء. هذا ليس بحاف على كثير، وعلى المرء أن يكون حذراً. هذه أرض مفتوحة على الحرات والساء بالدرجة نفسها. لأنراك استفادوا من تدفق رؤوس الأموال الهاربة من سورية إلى هنا، وأخرو محائهم وبونهم، ورفعوا الأسعار، ومبيعاتهم تصاعفت نصف ما كنت عليه. ها في «الربحية» الملح محال شئت بأسماء مدن وقري سورية. تصطف إلى حب مع المحال التركية، وعلى واحدتها كُنت الكمات بالذعة العربية. كأن قطعة أرض اقتلعت من الحمرايا وررعت ها، وكان هذا الحد المهوش يتوزع ها وهناك،

لكنه يضيق ويحسني في محارير المدن وسواقيها الموحلة يضيق كما
الأشياء كلها تتأثر ويضيق.

ظهر يفت إلى يمين السيارة، لم يتجاوز عمره عشر سنوات، يده
المملوءة بالصائع. الأطفال يتسابقون ليعرضوا المبيعات. لا
من أنهم تركوا مدارسهم وبيوتهم وطولهم إلى الأبد. المحطوط منهم
يعيش مع عائلته، ولكن كما قال لي البائع، هم بمعظمهم يتأمن عرو
الحدود ويعيشون هنا في الطرقات.

في الجهة المقابلة للرصيف شاب من «الجيش الحر»، لا يعرف
من أي كتبة، ولكن يبدو أنهم وصلوا تواء، وكانت باستفازهم
مجموعات أخرى. السلاح ليس واضحاً وعلنياً، كما يبدو داخل
الأراضي السورية، لكن سحبات المقاتلين الشاحبة ولحاهم القوية
وعيونهم المسهدة نشي بأنهم يحتاجون إلى أيام طويلة من الراحة،
وبأنهم حاولوا إلى ما لقضاء ما هو ضروري، يخرج من السيارة التي
يعملون إلى حاسها شت، يحملونه على أكفهم، وهو مبتور لنزاع
والقدم يذنون النارة، ويصرح أحدهم: «يلاااا بسرعة».

يقول لناق رح وصكون لأول بوابة الغنم وارجع

في مساحة سراج بين ستة وعشرة كيلومترات مرتعة، تنوع
مجموعة قرى من الحدود لمصلحة مع تركيا، وهي تتألف من عشر
نحو نبي كنت تعيش. قبل الثورة، على التهريب بين تركيا ومدينة
«دب»، مضافة إلى تربية المواشي والزراعة، وهي تتقن الشركة
والعزقة. ونهجتهم يدوية إلى الحبوب من هذه القرى جبال فاصلة بين
مونس يعمل سدو عر سلسة من الأفراء وأساء الأعمام في تمرير
نشر وهرجهم. ويوزعون كفاط تواصل عبر الحدود! فمنهم من يفت

هي أعلى التلة، ومنهم من يقف في أسفلها، وثالث يرافق البشر حتى نقطة التهريب. وهم يعرفون جميع المنافذ الحدودية المؤدية إلى ن داخل السور، وجميع فتحات الأسلاك الشائكة. تربطهم علاقات طيدة برحال الحندمة التركية، ويتواصلون عبر أجهزة تلفوناتهم نقلة، أو عبر الصباح والإشارة المتفق عليها في حال كانوا مرثيين نسبة إلى بعضهم. أجسادهم نحيلة، سمر البشرة، يتحركون بخفة وسرعة، ويختفون بين الأشجار، كأن لديهم طرقا غريبة للتحوّل إلى حرة من الأرض.

عدما وصلنا، كان في انتظارنا شاب أسمر. توقعت أن يكون هذا المور شيها بالعبور الأخير. مجرد ركض متعب بين سياجين و ينظر سائم الليل ليتسنى لنا العبور. لكن، النقطة التي عرنا منها، كما قل لي مبسرة، صارت مراقبة ولم يعد يسمح بالعبور منها، بحاصة بعد التغيرات الأخيرة على الحدود السورية - التركية.

دخلت السارة ما إلى زوارب ضيقة وموحلة. البيوت عارية، وحفها رراث لربة الأغنام. الأطفال، رغم البرد، يقفزون شبه عراة، ومبيلات المباء الضعيرة تعوق التقدّم. «مأبة الغنم» قرية كالحة، وأمامها حال صعبة حصراء، وسيارات تقف على طرفي الحدود. من بعد لأحت مجموعات من البشر تنظر. علينا الالتفاف من وراء الجبل وإشير باتجاه نقطة أخرى. حملت حقيبتني على ظهري، وانطلقنا. كنا ثلاثة برفقة الشاب أندين يقودوننا. تقدّمنا بصع خطوات، ثم ظهر حدود الحندمة. ركصا، وقال المهرّب: «لا تقلقوا». كان يتحدث بحريّة بدوية. ظهرت سيارة عسكرية من اليمين وتقدّمت نحونا. وها صرح المهرّب، وعاد أدراجه. ركصا وراءه، وعدنا إلى بداية الرّفاق ندي انطلقا منه. قال «سنرب عدي شايًا في البيت وسنظر لعمر».

اتجهت إلى بيته، تحاور الأرقعة الموحلة نفسها. كانت رائحة الشر
والزوث تموج من كل مكان النساء لا يظهرن فقط رجال وأطفال.
ويشر يمزود سرعة. سيارات تحمل بشرًا يتجاوزون الصّقّين السيوت
الإسمتية التي ساها البدو تشبه خيمهم. الألوان نفسها. انطباع
تتشف. والأمكنة لعابره.

قل أن يصل إلى الحدود بدقائق، ظهرت المجموعة التي
سترافف كذا حواني عشرين شخصًا، وأنا المرأة الوحيدة بينهم. مع
ثلاثة مهرّين، يقودون، سمحتُ شابين رافقا رحلتي من مطار إسطنبول
إلى أنطكية البيميني والتعودي. وقفنا باستعداد. اقتربتُ منهما، وكنت
على مسافة حذرة، وأردت الإصغاء إلى ما يقولانه. لوهلة هممتُ
بالمول لهما «ما الذي تعلّلاه في بلدي؟» لكنني صمت. تعلّمتُ في
السنين حاصتين من القنمت.

لشأن مأسف ويحملان ما خفت من المتاع، قد يكفي لموتهما
الدهش إنه نعت، وكنت أحاول النّحاق بهما. نظر أحد المهرّين
إليّ وقال منعصًا «ما تقول معاك حرمة يا أحي، تعالوا من هون..»
تعالوا انقرب هون أسهل، دخلت في سهل صغير من القمح، ورحا
بدوس بأقدامنا النّفس ولأوراق الحصر النّدية التي تتوزّع بين أشجار
برسوس مهزّب لأكر من براقي يفتق، وأنا أخفي وجهي ورأسي
بحدب ونه مع نظره سوداء أسرع وتجاوزت مجموعتي، وصرت
على مفره من، ثم حنّنت الشبر وتجاوزته كنتُ محبطة، لأنني لا
زيت أن أتركه مفره كي يجمعني من لطف المجموعة. طلب مني
مهرّيت سوفف بعث في مكسي، وانتظرت قدومهم، ثم مشيتُ
بمعدنهم. وصرفت إلى مهرّب الكبير الشر. حدقت فيه بعد أن
برعت نظري، فمضى وتركني ولم يتأق بعد ذلك، لأنني امرأة بين

محموعة، ما يعني، كما توقع المريد من الطء والمتاعف

لا بد لمرحان بعاليهم من أن يتذكروا أني امرأة، ومكني ليس
من المحبطين بي طوالاً وضحام وغيوبهم واصحة وقوية،
عنده ضوية، ولا يفتنون ولا يسسون بست شفة. العلامات التي رآه
كثيراً حصراً لمرحولة والإقدام، أنا رأيتها تعبيراً عن تساوي الموت
وبحياة هم سائرون في الفناء، وعقيدتهم تجعلهم يعيشون في
موت قدمون من أجل مرحلة انتقائية بين الحياة والحياة الموت هو
كثرة متحيرة التي ستطير بهم إلى جنات الخلد، لذلك لم أكن متأثرة
بصورهم كمعنى للحياة، بقدر ما كنت أعيش حزني عليهم ورفضني
بجودهم

سوفت قبلاً عندما نسمع صوت إطلاق نار طلقات الرصاص
كث في الهواء، والكل يعلم أنها لإخافة الناس، وتنظيم تهريبهم

نموت كنت اثنتي مرتفعة، جبل صغير حاد الانحدار، كان
متهرب قد أنهى حداته مع الحدرمة التركية. لا بد من أن هناك
مصحة لأحد ما تهريب الشر بين الحدوديين، ولا بد من أن الحدرمة
رب اسماني ذوي المظهر التسمية الواضحة، أحياناً يتعاملون بقسوة
مع الناس، لكن نمك القسوة لا تتعدى الضرب بخشونة، ولا تصل إلى
حد صلاو النار المباشرة، وهذا بحذ ذاته كفيل بطمأة الهاربين
وسهول

صعدت في اتجاهات عدة. اتعد الشب عنا وصرنا ثلاثة فقط مع
سهول كان الضعود قاسياً، وكنت أتلفت من حولي، ولا أريد
شكل أي إعاقة لتقدم المرحان. ثبيت ركني قبلاً، وحببت ظهري

ومثبت، أحدث أدت على أطرافى الأربعة. مسافة قليلة تفصلني عن الأرض. هكذا نحن، مجرد حيوانات. لدينا نبقى على غريزة النقاء والتنافس القوية عند هذه الكائنات.

فداء عيتاني صديق الصحفي اللبناني الذي يرافقنا، يطلب إليّ استمهل حتى لا أتعب. قلت بصوت مرتجف: «اسمع! إذا توقفت لحظة، سأندحرج إلى الورا في الهاوية»، ضحكت. حينذاك اقترب مبصرة وحمل عني الحقيبة، وركبنا إلى أعلى القمة ركعت، ولم أنفت إلى صيحاتهم، وكنت أسمع دقات قلبي تأتي من القمة. بدأ لهواء يتحول سباطا حادة في رثتي. الأرض موحلة تقريبا، والجبل تربته حمراء وحصنة في القمة المفترصة، المشهد مختلف. نهاية الحل عبارة عن حافة عريضة وطرف لطريق بين الأشجار. هناك كانت سطرنا مبارة لكن مجموعة من الجندمة التركية تقدمت نحونا بعد أن ظهرت من بين أشجار الزيتون. فتشوا حفاثنا، وتحذثوا مع المهرّب. كنت الذرويات نوزع في أماكن عدة وتظهر فجأة!

بعد بعض حفاثنا، عربا وسمحوا للمقاتلين الغرباء بالعبور. هم، انصبب المجموعات المقاتلون احتفوا، وكانت هناك مجموعة سطرهم. في الشباب الذي معنا إنهم داهيون للقتال، وهم سموديون وبمسور، ويوحد بهم فرسي من أصل تونسي، وهم، في العلب داهيون إلى حلب الآن.

أرجأت التحدث مع بعضي حول تدفق هذه الأعداد الهائلة من المقاتلين العرب عبر الحدود. أحربا الشاب الذي أصرت على إخفاء هويته. بأنهم ربما سبدهيون إلى «جبهة النصرة». حينذاك ظهرت مجموعة جديدة من أصحاب النحر الطويلة لم يكن حضور «جبهة النصرة» معتم من قبل كان حضورهم غير مرئي، والأهالي لا

يسمحون لهم بالوحد صمن القرى يقول فداء: «ستلاحظين أنهم الآن
كثروا فؤة وحضورًا. المرحلة القادمة ستكون أصعب لأنهم هذه
مجموعات سيريد ويظهر شكله الأقوى والأعنف، وسنرى فيديوات
تظهر هؤلاء يخلدون الناس، ويقطعون رؤوسهم».

دوى إطلاق نار من حديد بين قرى الحدود، واحتلت مجموعات
سفن بين الأشجار. كانت مجموعات السوريتين تنهادر مثل حيوط
مسقة وبنية من لوحة. كل مجموعة تنظر إلى الجهة المقابلة، وأرب
نمصاص يرفع، وبدونا جميعًا كقطعان هاربة من الضيد.

مدة «نشر» كانت فارغة. لم تكن ممثلة بالتظاهرات كما المرة
سنة. قصصها طائرات الـ «ميغ» التابعة للأسد، وهجرها أهلها، ولم
بق بها سوى فئة قليلة. تسيطر عليها «جبهة النصرة»، التي حافظت
عن الأملاك العامة فيها، لكنها كانت تتدخل في حياة الناس، وكانت
بذئس «السطال» بدعة حتى للرجال، واستعيص عن الناس المتعارف
عن بداس أمعاني، وانضم إليها أكثر من أهل «نشر». تغيرت أشكال
مسكرة التي كانت موحدة. الحواجر صارت أقل عددًا.

حسن وصل إلى مطار «تفتنار» صرخ ميسرة: «يا الله ما إلنا غيرك
الله، وبنا العمر صاع... يما العمر ضاع... هون استشهد أمحد
بحس»

عرفت أمحد قائد كتيبة في «سراقب». شاب في الخامسة
وعشرين. مهذب، لا يسطر في عين محدثه، غاضب لما آلت إليه
شوة. كان إسلامي محافظًا، ولكنه يريد دولة مدنية. استشهد في
معركة مطار «تفتنار». أكثر من الشباب الذين التقيتهم سابقًا ماتوا كما
سنبدهم واحدًا واحدًا، ونحن نمر القرى نأجاء «سراقب» محدداً

بحذر حقول القمح واشتهت الحصر والقرى المحمية.

نظري موحدة وصعبة الاحتياز بسبب القصف والقذائف التي
حزنتها بقوم ميسرة «سيطر النظام على مدينة «إدلب» وصارت معروية
عن ربه. نكثت تقتل الآن، والنصوص في الثورة أكثر من الثوار
هذه عائلات ضد عائلات مرتقة ضد مرتقة... يا الله ما إلى غير
الله!

سيت حيا من ساحرتي الصغيرة. كانت آلاء وإخوتها قد تركوا
أسرفاء واستقروا في أنطاكية، وصار ميسرة يعود إلى البلدة بين وقت
وآخر. كنت موحش من دون الصغيرة التي اعتدت رفقتها. الخوف من
عدائهم والموت العشوائي الذي لا يرحم، أرغم ميسرة على أن يأخذ
عائلته وينزحها في تركيا. أم ونورا و«أبو إبراهيم»، وعيوش والعحوازان
من جديد. لعائلة كبيرة يأتي أفرادها ويروحون، وقد قدموا لنسهر
معهم. منهم أشخاص استقروا فترة في البيت الكبير، لأن بيوتهم
فدمت، ولأن القصف في مدينتهم متواصل، لكنهم لم يكونوا سگانا
دائم. هذه صوت صارت مفتوحة للأقرباء والأصدقاء والمعارف،
والعويش كـ بيور سونا لتأرجح. كانت عيوش قد منحت عائلة
بارحة قوسها.

صاح سوء شيء، ذهب لتفقد العائلات النازحة وأماكن
قصف. إنه شيء يهوى طعم الشرب. هناك نظام يحاول ترتيب نفسه
في سماء صغوية وتعثر. نظريات تعبت، وزادت دمارًا. ورشاش
سوء حدود صلاح ما دُفِر على الجدران في «مراقب» لمحت بعض
سوء محمود دويش نكث إلى حاسها للمرة الأولى جمل تمخبط
أحبه صبره وأحبه. نقول إحدى الحمل بخط عريض:
أحبه صبره وأحبه الشام من القلوب.

الشرطة تتفحص روائعها من بعض الكنائس. يكتب الشرطي المخالفة المروية، والكنائس العسكرية تعاقب هناك محرر نابع لكتائب «أحرار الشام». المحكمة الشرعية تتألف من قضاة ومشايخ القابول هما هو الشرع والدين، وتسيطر على المحكمة الشرعية «جهة التصرة». أما الكتبة الأمنية فمؤلفة من كتائب عدة، منها «صقور الشام» و«درع الحبل» و«شهداء سورية». تقول عيوش إنها لم تستطيع أن تُرني البلدة كلها لأن القصف مستمر، وتجوّلوا في السيارة خطر، ويحب أن يذهب لرؤية النازحين. لكنها مع ذلك، تقف أمام كل بيت مدمر، وتحكي لي حكايته. بيوت بلا أبواب، بيوت بلا أسقف ولا حدران، مجموعة من الأحجار المترامية مثل هضاب حجرية: «هنا مات أبو محمد وأولاده» وتشير إلى بيت آخر: «القديفة الثانية أحدث بيت أقبائنا مات اسهم الشاب. وهذا البيت المهدم، قتلوا أهله». تنقّف أمام البيت، والنقطة الضور، ثم أعود إلى السيارة. عيوش تملك سيرة وتجاوزت الخمسين.

عندما وصلنا إلى قو النازحين، كانت طائرة تلوح في السماء، فركبنا بسرعة القو صالة مسيحة، على حوائطها تصطف شراشف تفصل بين مجموعات عدة من أفراد العائلة نفسها، لكنهم يتوزعون في الروايات الأم حمية صها، ممتدة، وحولها أربع فتيات اثنتان مهن كنت ندرسان في الجامعة. أكبرهن متزوجة ومعها ثلاثة من أولادها، وهناك أقرباء آخرون يتوزعون في طرف القبو الأشياء معشرة، ثمّة فمض صغير به عصموران، وثمة حصير، وبصعة أكواب من الشاي فحاة بدأ السقف يهتز، وسمعنا دويًا قويًا. قمرنا من الخوف. كانت الطائرة قد أنفتق قديماتها في البيت المجاور، الذي لا تفصلنا عنه سوى أمتار عدة، وهو البيت نفسه الذي كنا نتحدث مع سانه وهنّ يقمن

بلملمة الزجاج المتناثر من قذيفة البارحة التي أودت بحياة أبهم الشاب. كنَّ يظفون المكان بالماء و«يزحن» آثار القصف. عند القذيفة الثانية، بقيا في القبو وانتظرنا. كانت دتابة على مقربة من البيت، وصعها أحد قادة الكتائب، والقصف يدور حولها. هذا ما فعلوه دائما، قصعوا بيوت المدنيين التي تتجمع حولها الكتائب حتى تفقدهم حاصتهم الشعبية. سألتها عن قصة نروحها، وأنا أرتجف تحت الدهر المتفسر الذي يتساقط فوق رؤوسنا مثل ندف الثلج من قوة انفجار القذيفة المرأة تابت حديثها معي من دون إبطاء:

«بدأت الثورة قصفونا بالطائرات. قربتنا نحن مقابل معمل القرميد الذي صار مركزا للشبيحة والحيش. قُتل كثير من العائلات في القصف من آل بيسان قذيفة سقطت على ستان الزيتون وقتلت العمال والمرأة والاس، أما الأب الذي غاب عنهم ساعة لحلب الماء، عاد ووجد محررة في ستان زيتونه. مرة جاء الشبيحة إلى بستان زيتون آخر، فاحقت العائلة التي تقطع رجال القرية وحدوا العائلة كلها مدبوحة لأم وسانها والأخ وولدا صغيرا وكنت العائلة. لم أكن أريد الحروح من بني، ولكن الحيش دخل قرية المسطومة وطلب منا الحيش الحر معاداة القرية لأن الشبيحة قادمون. خفت على بناتي من الاعتصام وقام شخص شهريسا ودفعنا له سبعة آلاف وخمسمئة ليرة. بنت نهزم بقذيفة، ولم يعد يملك شيئا. معمل القرميد أمامنا، ومه يقصرون، ولكن هناك معسكر الشبيحة الذي يتمركز فيه حيش الأسد وينصف القرى كدوا يقصرون أميناس، قريتنا، من كل الجهات. وعندما دحوا المسطومة دحوا عائلات بأكملها. هناك أم بكيت على اسمها لأنهم دحوا أمامها، فدحوها لأنها بكيت! يوم هربوا استهدت مزار نغار ثلاثمائة قذيفة. هربا في الليل. كان الناس حفاة، وبعضهم

نصف عاري، والقصف لم يتوقف. في الليل، جاء الثوار إلينا وأحصروا
القطاع من أجل السحور. كنا في شهر رمضان وفي الطريق ولدت
امراة. وامراة أخرى كانت عمياء ومصابة نتيجة القصف، ونحن
نشرّدا، روجي وإخوته الثمانية كلٌ ذهب في اتجاه. سقط صاروخ فوق
بيت أحد إخوتي، واعتقدنا أنه تحوّل إلى أشلاء، لكنّه خرج من تحت
الأنقاض وهو يصرح: «إللي جاب هالزّوج هو وحده اللي بياخذها».
ضحكنا كثيرا آنذاك. معمل القرميد صار ثكنة عسكرية كبيرة، وأحيانا
ينسرب الشّبيحة منه. في إحدى المرّات قبصوا على أحد أبنائنا فعثرا
عليه مغمّوه العينين ومقطوع الأصابع لكنّه لم يكن ميتا. وهناك رجل
آخر أحدهم وكانوا يُجلسونه على مقل للفحم المشتعل. مؤخرته شويت
كاللحم. زوجته هربت...».

دوى صوت آخر، وقذيفة أخرى. تتوقّف المرأة عن الحديث،
ويتناقل الحريد من الذهان المنقشر. كان القبو رطبًا ومتشققًا. ومع
انحناف السماء، نساقت كتل بيضاء فوق رؤوسنا. العصفوران أخذوا
بالحطّان في القفص، والضّبيّة أحاطتهما بذراعيها وقالت: «إنهما
يشعرا بالخطر». ثمّ فتحت باب القفص، وأمسكت العصفورين،
وحاتهما في صدرها. وتابعت الحديث عوضًا من أمّها متجاهلة القذيفة
القريبة «سوف نكتسب كلّ ما أقول لك». قلت: «نعم، سأفعل».

كنت حميدة. عياها خضراوان، وجبتاها حمراوان نحيلة.
عمرها عشرون سنة تصنع حجابًا بسيطًا ملوّناً على رأسها أصابعها
دقيقة وناعمة. قامت من مكانها إخوتها يلتفون حولها. ثمانية أطفال.
أبعدتهم عنها. ووضعت يدها فوق رأسي، وقالت: «هل تحلمين بالله
أنت ستقولين للمأمّم ما سأقول؟» قلت: «أحلف». قالت: «أحلفي
بأعنى ما لديك سرًا في قلبك». حلمتُ في سري، وشعرتُ بأنّ صخرة

سوف نقت رأسي من قرة كفها عليه، نكتها عادت وقالت إنها رسامة وتكتب الشعر، ثم فتحت دفترًا، وتابعت: «اكتبي عن قرية أميناس . هياك ولدت». وأخذت تقرأ من دفتر يومياتها، وبدأت أكتب:

حدث هذا في الخامس من شهر كانون الثاني سنة ٢٠١٣
أحروا موت ست بات وشاب وروجته، بعد أن حُطفوا. وفي اليوم
نفسه قُتلت عائلة أيضًا؛ ذهب أفرادها لقطاف الزيتون وقُتل امرأه
واسها. كما قُتل عائلة أبو عامر في القرية التي يسكنها، وعائلة أبو
عمرو والعمال الذين كانوا معها، أطلقوا النار على رؤوسهم، بينما
عائلة أبو عامر قاموا بخطفها أولًا، وعذبوا أفرادها، ثم قتلوهم
بالتريقة نفسها، إطلاق النار في الرأس. زوجة عامر كانت حاملاً في
شهرها التاسع. أحييت أثناء عملية القتل. ذهب الرجال من عدن
لحلب عائلة أبو عامر المقتولة، وقالوا إنهم وحدوها وحنينها مقتولين
وكانت حث الكثير من العائلات تنتشر بين أشجار الزيتون، وقد قتلت
بالتريقة نفسها، طلقة في الرأس.

وتصيف العناية ذات العيين اللوريتين، وهي تحق إلي بحزم،
وتراقب الكلمات على الدفتر، وأنا أنتظرها لتكمل حديثها: «الشبيحة
فعلوا هذا، ولكنهم ركبوا سيارات وكنوا عليها الجيش الحر نحن
نعرف أنهم شبيحة وقتل معادرتهم، خربوا الأراضي واقتلعوا
الأشجار، ودمروا كل ما صادوه في طريقهم وقتل أن يذهبوا قاموا
بصوير الحث والدمار الذي أحدثوه، وثقوا الصور على الإنترنت، ثم
كنوا عسى أن الجيش الحر هو من قام بهذه الأفعال».

«هل أكمل؟» تسألني بلهفة وحمل. أجب: «بالأكيد.
أرحوك». يسمع يريق في عيها وتتابع

«في الثاني عشر من شهر كانون الثاني، في الساعة الثانية والنصف، كنّا في قرية أبيس، عند عائه من أقاربي، مصت علينا أيتام وبحر مشردون لا سام، بعد خروجنا من أمباس، كانت الأحبار تقول إنهم سيقصمون قريتنا ويقصون على الثّوار. جاءنا الساعة العاشرة ليلاً بأ معاده أن رتلًا من الذّبابات والعساكر سيمزّون في طريقهم إلى تعناز، قاصدين المطار الذي يحاصره الثّوار، من القرية. فخرجنا الساعة الحادية عشرة ليلاً. كنّا خائفين، ومعنا سيّارة صغيرة ثلاث عجلات، وصعنا بعضاً من أعراصنا فيها. تعطلت فينا السيّارة، فدفعناها، ثمّ تابع الفريق. كان الخوف يأكل قلوبنا. نمشي في اللّيل على غير هدى. مررنا بقرية سرمين، ثمّ سرنا على الأوتوستراد مسافة طويلة، وعندما توقّف المحرك بشكل نهائيّ، وقفنا في منتصف الطريق، ثمّ دهبنا إلى القرية الأولى التي صادفناها قصدنا المنزل الأوّل، لكنّ أصحابه لم يفتحوا لنا وطلبوا إلينا الرّحيل. ثمّ قصدنا البيت الثاني، فلم يفتحوا. أصحاب البيت الثالث رخبوا بنا، وقالوا إنّنا سطيع فضاء اللّيل عندهم، لكنّ أمّي رفضت وقالت إنّها لا تشعر بارتياح، وطلّث من أبي أن يصطحبنا إلى كفرعميم عند أصدقائه. كانت الساعة قد تجاوزت الأولى بعد منتصف اللّيل، والكلاب تنبح حوّن، كنّ حائفة. طلامٌ وأصوات كلاب قويّة تحري خلعتنا! عند الساعة الثّانية ليلاً وصلنا إلى كفرعميم، وفيها تقلّنا من بيت إلى بيت»

نصيف، مع صوت قديمة نهوي، هي لا تتوقّف عن الكلام، وأنا لا أتوقّف عن الكتابة. «في الثالث عشر من شهر شباط، كنّا بتقلّ وتحرك تائبين، ضائعين. كلّ يوم سام في مكان، هربنا من القصف والفدائف. لم أكر أتوقّع أن يحدث هذا كلّ، لكنّ هذا الثّقل جعلني

انعزف إلى القرى المحيطة بها من كل الجهات.

تسطر إلي، وهي لا تزال تحمل دفترها، والعصفوران داخل صدرها، ومه يطلان برأسيهما. «وبعد ذلك؟» أقول. فتضيف بصوت متهدج، وأنها نصبت لنا كوبين من الشاي، وتحوقل وتسمل دائماً. «في الخامس عشر من شهر شباط. وصلنا إلى سراقب في تمام الساعة الثالثة وعشر دقائق، وكنا تركنا قرية أبين، حزمنا أمتعتنا من جديد، وانصمت إليها مجموعة من الأقارب، وكان يتوجب علينا المرور من تشار، أو من بشر لصل إلى سراقب سلام آمين».

بطرت الفتاة إلى عيوش وقالت «الله يوفقك ويحفظك مثل ما أقدتيا»، وتتابع الحديث: «كان ذلك اليوم هو اليوم الذي يجب أن أذهب فيه إلى الجامعة، وأقدم امتحاني، لكن الطرقات مقطوعة وغير آمنة. أريد فقط أن أنهى يومين آخرين، إذا كنت ستحذفينهما فلا داعي لأصع وقتك». «لن أحذفهما»، أجبت وأنا أنظر إلى عينيها الضارمتين والممخرنس بدموع محبة. تفتح دفترها من جديد وتتابع القراءة: «هذا هو اليوم الذي لنا هي سراقب السادس عشر من شباط. جاءت عيوش وسختب على ورقة ما محتاج إليه، أعطتها لشاب، وبعد ذلك وصبت الأعنة اقترشا الأرض، وكان المكان غريباً، وجدرائه مقشرة الغلاء. أكثر ما كان يؤلمني بطرة الدل والاكسار في عيني أبي، وعبارة الشكر التي برزدها لمن يقدم إليها الطعام والخير. لقد كنت بعض سر وومرة، والأد بعش على ما يقدمه لنا الآخرون من ترعات ضعة وحديث نحن الآن مسئولون، وأشعر بالذل. لدينا مدعاة حب الحكرد ورد ورطب، والحطب بعمد. ويطونا تفرقر أحياناً من النحوع لا أحد يظن الطعام. يتواطأ على الضمت. وقع صاروخ بالقرب من الحفرة قرب إحتوي الضعار كانوا يلعبون. ركصا وأبنا

بهم، ثم تحمّنا كلّنا في زاوية. كان في نظراتهم رعب وجمود.

في التاسع عشر من شباط، صار لديّ عصفوران وعش وفراخ، وتفنّس من بيضة فرخ صغير حديد. نضع القمص وسط المكان. إخوتي دهبوا، اختفوا، والعصفور والعصفورة يساعدان المراه ويطعمانها بمقاريهما الضعيرين، كان عليّ أن أكون في الجامعة اليوم. قال لي أصدقائي في الجامعة إنهم سيذهبون غدًا لتقديم مادة في الجامعة في إدلب أنا محاصرة هنا مع أهلي. تسقط قديمة بالقرب منّا، فتطير العصفورة في القفص. تضرب بحناحيها القفص وتتعد عن الفراخ المذعورة. ثم تقترب من العصفور، ولا تهدأ العصافير حتى يتوقف القفص. اتصلتُ بصديقتي وطلبت إليها أن تحضر لي المحاضرات التي فاتني. أخذني أبي بالسيارة ذات العجلات الثلاث بعد إصلاحها، لسانني بالمحاضرات، لكن السيارة تعطلت مرة جديدة، ووصلنا متأخرين، وغادرتُ صديقتي، بكيّت كثيرًا. كنت مصرة على دراسة محاضراتي وتقديم بعض المواد في الجامعة. لكن ذلك مستحيل. عدنا إلى المدح لتحلّق حول العمود الذي يتوسطه. ونصمت في المساء.

توقفت عن القراءة، بُخ صوتها، وأمسكت يديّ، وقالت: «هذا يكفي إذا متنا الآن، فسوف يعرف العالم قضتنا، صحيح؟». أحببت ودون تردد أو مواساة: «صحيح».

تركنا الفتاة وعائلتها، وصعدنا إلى بيت عيوش المحترق في القلعة الثابتة. الحدران سودّ. سقطت في البيت قذيفة وأحرقته. أخذت تلملم بعض الأشياء، وتشرح لي حقيقتها. لم أر سوى عيدان سود أو مرتعات، لكنها تقول وبكل ثقة: «هذا طرف الكنايبة، وهذا فحان القهوة، هذا طرف الخزانة...».

عندما دوى صوت القذيفة الثالثة، قالت: «صار ضروري يرجع

نفس سلمي اليوم»

محدورم انقرو من جديد. وقلت في نفسي: «لو كنت أكتب نصاً
روث لكانت الفتاة واحدة من بطلاني، ووصفتها كالآتي: صهباء، لها
حاجان حنقون بموالت سرعة حول صدرها، وتخرج من عينيها ثلاثة
فروع من شجر الزيتون، وكلما حاول أحد من إخوتها الصغار
منحهم بين حونها مثل كوم لحم مهمل أن يحيط بعنقها، ويدف
نفسها به بعيداً من الزائرة الفضولية التي نغصت نهارهم أكثر من
مدنف. كانت تنفخ أصابعها، ثم تحشره مع العصافير تحت سترتها.
كانت تنفخ حونها بين أصابعها وفي بطرات عينيها كعصافير جريئة!».
كلمة من يدي نس رواية، بل حقيقة!

يقع المكتب الإعلامي في «سراقب» وسط السوق. وقصف طيران الأسد ينكف هالك. قلت للشباب أن عليهم تغيير مكان المكتب، لأنه في موقع خطير، والمطلوب هو البقاء على قيد الحياة.

الشباب المحتممون في المكتب يعانون الإرهاق واحد جدرانه تعرض لنقص مد أربعة أشهر. صحافيون يأتون وآخرون يذهبون، هنا أيضًا مصورون ناشطون، مقاتلون وموزعو إغاثة. لم يكن وجود الصحافيين السوريين هنا وازدًا. جاء بعض الصحافيين الأحاب، لكن العرب بدأوا يتدفقون بعد التحرير الكامل لريف «إدلب».

في آب سنة ٢٠١٢، عندما كنا نتقل بين القرى، لم تكن محررة بالكامل، لذلك كنا ننت حول الطرقات والدروب لتجنب حواجز الجيش النظامي. حتى «سراقب» نفسها كانت غير محررة بالكامل. الآن متحرك بحرية على الأرض، لكن السماء ما زالت معتقلة الشباب بقنود لو أنهم كانوا يملكون مصادات طائرات، لانصروا. انشأت

المشرف على جريدة «زيتون»، وهي من المطبوعات التي صدرت بعد التحرير، يقول: «الثورة ليست قتالاً وحرثاً، نحن نريد بناء الإنسان، ولكن لا أدوات لدينا، والقصف المستمر لا يسمح لنا بالتحرّك. انتشاطات المدينة التابعة للثورة بدأت لكنّ صعوبات كبيرة تواجهها، نيس أولها انّ دعم المالّي والقصف المتواصل، لكنّ أخطرها كان دخول الكتائب التكفيرية وتحكّمها بحياة الناس وتدخلها بشؤونهم».

كان المشرف على الجريدة متعباً، والشباب حوله كذلك، وكلّ منهم يعمل بدأب. «يزلّون» الصور، يشبّتون أعداد الشهداء، يتصلّون مسطقات إسبانية لشرح أوضاع الناس. يُحصّون عدد القذائف وطبيعتها وأنواعها لاحقاً، سيقوم بعضهم بإعداد ملفّ عن القذائف الكيماوية التي سقطت على «سراقب»، ويرسلونها إلى جهات حكومية عدّة في العتمة، ولكنهم سيتوقّفون عن الشعور بالأمل، لأنّ كلّ ما فعلوه لم يأت سبيحة، فقد تركهم العالم وحدهم.

جاء «أبو وحيد»، وعليها الذهاب إلى «معرة النعمان»، مع منهل ومحمّد. كانت أصوات القذائف بعيدة. يبدو أن حصّتنا اليوم من الموت بعدة

«أبو وحيد»، قائد كتيبة في «الحيش الحرّ» يقود السيّارة بها. الشوق المردحمة ثم نوح بما يحصل، لولا الأبنية المهارة، والشوارع التي حفرتها أثار القصف تتساقط القذائف ويموت البعض. وبعد ساعة يعود الناس إلى حياتهم الطبيعيّة، وإلى الضروريات القليلة التي يحتاجونها من النّعم والشراب.

لا شيء في الشوارع لمحت امرأة واحدة برفقة روحها، وكانت نصح حمداً. كانت المرأة الأولى التي أرى فيها حمداً في «سراقب».

إد هي العادة تكتفي النساء بغطاء الرأس العادي. توقفنا عند محلّ لبيع عوات غار، وسأل منهل ولدًا فيه عن سعر العوة. فأجاب: ٢٥٥٠٠ ليرة. منذ ستة كان سعرها ٢٧٠ ليرة سورية فقط.

«أبو وحيد» في منتصف الأربعينيات، متزوّج، وهو متعهد بناء سابق. يريد نقل المدفع الذي صنعه، ويحتاج إلى سيارة «بيك آب». الطريق آمنة، سهول من أشجار السرو الصغيرة على الجانبين، والأطعمال يتوزعون على الطرقات، يبيعون الخضار ويضعون براميل الماروت، و«بيدونات» فيها بنزين، وقد كُتب على البراميل عبارات: «ماروت أسود»، «مازوت أحمر». كلّ نوع له سعر، وهي رخيصة ورديئة، وتنفث سمومًا عند حرقها. نتوقّف في الطريق عند مقرّ إحدى الكنائس، يتحدث الشاب مع أحد المقاتلين يبدو أننا متجهون لرؤية المدفع الذي صنعه. الشمس حارقة، لكنّ هناك لسعة برودة. يقول أحدهم: «هذه شمس شاط... نحن يا مدام بدنا عدالة انتقالية، ونحننا مفلّح شو كنا بإيدنا. ما بدنا حدا من الدول يتدخل فينا. لو تركونا بواحه بشار لوحدنا وما يتدخلوا لكنّا بأحسن حال. تدخلهم كان لمصدقنه ومثل ما شمني الشوك ما عم يخلص. أنا كنت مرتاح ومعهد باء ودرست حقوق. كنت بدي ادرس معهد مسرحي، بس ما شني الحال، بس أنا بنابع المسرح والدراما التلفزيونية، يعني عاشق نمر». بصحّث. ويصل إلى مجموعة من الأولاد. على «أوتومستراد» حب - دمشق. عشرة صبيان بصطفون مثل ثلّة من العسكر، يصفّون «بيدونات» الماروت والنزير أمامهم. الأطفال بعاليتهم لا يدهون إلى المدارس بسبب القصف المستمر. وصلنا إلى قرية «حان الشل» التي حرّرها المقاتلون من حاحر كبير لطام الأسد. كانت تحتوي على مقلع حجري كبير. أمامنا حاحر لـ «الحيش الحرّ»، لا بوحده سوى سيارة

«بك اب»، وثلاثة مقاتلين يحملون رشاشاتهم ويجلسون في الشاحنة
كان أهالي «حان التل» قد عادوا إليها بعد خروج قوات الأسد منها.

عندما وصلنا إلى قرية «جرادة» قلت للشباب: «هذه قرية
حجرية». ثم دنا من الرومانية التي تعود إلى آلاف السنين لا تزال
شاحنة، مع الكثير من الآثار الرومانية التي تتوزع في جبل الزاوية
تحت رومانية وأعمدة ضخمة. غالبية الكتائب الجهادية لا تعترف
بأهميتها. وكان بهت الآثار جزءاً من عقيدتها. الحضارة بالنسبة لها،
تبدأ بعد الإسلام. قرية «جرادة» تابعة لريف «معرة النعمان». وسط
الأحجار، تظهر شقائق النعمان! كانت ممتدة وراء الصخور، ومن
أمام لاحت قرية «روحة». بيوتها حجرية وتتوزع فيها المداخل
الرومانية مثل قصور صغيرة، معظمها نهب، كما يقول الشباب.

بعد حاجر عسكري تظهر امرأة وثلاثة أطفال، الأهالي هنا
يعيشون على تربية الأغنام ومحصول الزيتون. كانت التربة حمراء
ويحلبها صخور صخمة، ثم بدا الوحة الآخر لـ «أريحا» حيث يقصف
النظام من معمل «القرميد»

في «سرح»، تحمي التربة الحمراء ونصير أمام صحراء حجرية
هناك تظهر الحواجر السبعة كثبات محتلة، وترر فيها مظاهر القوة
والسخر. كما في قرية «در سيل»، وهي لـ «حمال معروف»، قائد
«جبهة نور سوريا». حيث تظهر دابة وحواجز عسكرية، وقلل ذلك
حواجز مستجيبين ندين مرزب بهم. وكانوا تابعين لـ «جبهة النصرة»
والحزب الثوري.

أنسو وحيد من «الحبيش الحرة»، وهو لا يزال يؤمن بأن
المجاهدين العرباء سيمودون إلى أوطانهم، ما إن يسقط النظام. لم

أوقفه الرأي. قال. «سرى!» قلب له «وطنهم هو عقدهم الدينية»

كان مرور سهلًا لأن «أبو وحيد» معروف منهم، ومن الصعب التحرك بأحد دون رفقة أحد من الكنايب المعروفة. أمامنا بدت شاحنة كبيرة تحمل حبيماً للأحشيس، وعلى أطراف الطريق بيوت مهذمة سكنى. بينها أشجار لوز وزينون وصلنا إلى «رببعة»، حيث تتوزع مدنى رومانية تحت الأرض، تحوت كهوفاً يسكنها التازحون. توقفنا أمامها. وظننتُ مفرى معي تسجيل أسماء النساء، ومعرفة أحوال العائلات التي تعيش في كهوف. سائس الزيتون تحيط بالمداخن الزيتونية. منها ما هو مقطوع، ومنها ما هو محروق. كثيرٌ من التازحس يتحاون إلى قطع الأشجار بعبية تحويلها إلى وقود. هناك كروم زيتون أحرقنها القذائف، وتكرُ بقي بعض الأشجار حول الكهوف التي سكنها ثلاثون عائلة. كان هناك حوالى ستة أو سبعة كهوف، كلُّ كهف بدأ بفتحة عميقة سوداء، ودرجات ترابية مكسرة تنتهي بحفرة تحت الأرض. هي لداحل، جلسنا في كهف عائلة مكوّنه من ثمانية أطفال ومنهم. وهي لروحة الثانية لرجل له خمسة أطفال من روحة أخرى في الكهف المقابل ومع المرأة يعيش عائلة ثاسة. الأطفال خمسة وثنى عراه ثاسة امرأة التي تلغ السادسة عشرة، كانت تجلس أمام باب الكهف، وهي مقطوعة الرجلين الرجل الأولى مقطوعة من الفخذ، وثانية من الكتف. سقطت عليها قديفة. تضع حجاباً، وعينها مدمعة. فذنت لى إلهي نعمم الأطفال الرسم ولكنهم يحتاجون إلى الألباس. وهي ستحتاج إلى عمامات عدة لأن حراحتها تنتهي، ومن يمكن أن ينضم حبيب كنه هذه العناية بدت غير مادية برز فعلنا، وهي سرافت بهظ من الكهف. مالت برأسها وعادت لترسم خطوط على وحل الأرض

لا ضوء في الكهف. ليلاً نهاراً، يقومون بتعبئة زجاجة دواء فارغة، بالزيت، ويضعون فيها حباً من القليل، ويشعلونها. كانت تصدر رائحة كريهة من الاحتراق غير الكامل. الأطفال يصطقون حولي ويضطرون بفضول. تحدثت معهم عما يفعل كل واحد منهم في هذه العطلة المفتوحة. أعمارهم تتراوح بين الثالثة والخامسة عشرة. أحترتي المرأة أن المساعدات التي تأتي لأطفالها يأخذها زوجها بروحه الثانية. كان رضيعها في حضنها وبطنها منتفخاً. سيكون هذا مؤنودها التاسع، وأطفالها الثمانية يعيشون في كهف أرضه من الطين، وسفحه يدفء ماء في الشتاء، وهي بصعوبة تأكل في اليوم وجبة واحدة مع أطفالها الذين يتحنقون حول الشموع التي أضأناها. كانوا شفر الشرف، عيونهم زرقاء وشهلاء، لكن جلودهم كانت يابسة ومتشققة، وأصابع أقدامهم ترف دماً وقيحاً، والمخاط كالعراء يلتصق بوجوههم، ويطوبهم في السرد الفارس تبدو مثل نتوءات حجرية. العائلة كانت من قرية «كروما»، والمرأة تدعى أم مصطفى. ابنتها الوسطى أضحت صبية من القديعة التي سقطت قربها، وهي التي تعني بأختها ذات النرجس المنورين. كنت تمسك بأصابع يد أختها خائفة. والغريب أن الفتاة، رغم قدمه المشهد، كانتا فانتين ووجهاهما يضيئان حساً أخذاً كل هذا الجمال في قبح الشر! قلت لـ «أبو وحيد» إن أنا مضمي بصرق مساعدات زوجته، بصحك، وأنا لم أستطع الضحك.

في الكهوف الأخرى الوضع ليس مختلفاً. مجموعات بشرية هائلة في ظلام الأرض، مثل حيوانات تحفر قبورها في اللحظة الأخيرة على سطح الأرض، يبدو الأمر طبعياً. أمام الكهوف شتاك صعب صعب الأطفال ليكون مرمى لكرتهم الصفراء التي تتحرك بين أقدامهم في النوح. هذا فقط ما يدل على وجود بشر يعيشون تحت

الأرض مع أسماهم وجوعهم، والوحل لذي يفترشونه أمست لهم رائحته. لم أقوَ على الوقوف. هذه طبقةٌ ححيمٍ نادرة! ليست لأرواح هائمة. إنها من صاعة الشياطين!

ركبنا السيارة وبقينا صامتين. طالعنا أيضًا مدافنُ تتوزع بينها الثغور السود. هنا تعيش عشرات العائلات في الكهوف. أمامنا مباشرة كانت البيوت تتساوى بالأرض. خراب كامل، كأنَّ المكان يدخل آلة الزمن، ويستقل بلمح البصر إلى العصر الحجري! كانت السماء زرقاء وازدادت توهجًا، عندما دخلنا «حاس» أثناء قصفها. كتائب «جبهة النصرة» كنت هنا، ثم انسحبت. وبعد قرية «حاس» بانت «الحامدية» كأنها مجموعة من أشجار السرو الشاهقة.

قال «أبو وحيد» إنَّ «كثرا» من قواد الكتائب ونشطاء الحراك السلمي استشهدوا واعتقلوا، راح خيرة الشباب، وعدَّ خصال كل واحد منهم. كنت مأخوذة بالتفاصيل الصغيرة لأسماء الشباب. ولأعمارهم وتحاربهم، بينما تبدو أشجار السرو من بعيد تحبس غيومًا بيضاء، تنوالى قصص موتهم أهز رأسي، وعيناي على الطريق وأذني على صوت السماء التي تمطر قذائف.

في قرية «نقلا» اختلعت الطبيعة. اسم القرية مأخوذ من أصل آرامي منسوب إلى القديسة «نقلا». هصاب ووديان عامرة بشجر الزيتون. إنها قرى زراعية فقيرة. توقفنا عند كتيبة شهداء الحرية، وهي كتبة «أبو وحيد». لم يكن في الإمكان الانتظار أكثر فضولي يدفعني إلى رؤية المدفع الذي قاموا بتصنيعه. يقول «أبو وحيد»: «هذه المدافع ماذا تساوي أمام ترسانة عسكرية مدعومة من إيران. نحن سقاتل، لا نملك خيارًا، نموت أو نقاتل. في كتيبة شهداء الحرية الشباب كلهم من أساء القرى الذين تحمّعوا لحماية الناس هم بشر عاديون. في

مجموعات أخرى، سترين الوضع مختلفًا، هذا ناسح لتسمويز، وذاك
تابع للجهة التي تدعم بالسلاح. نحن مشروعاتنا وطني وصراعنا مع
الأسد وطني المجموعات الأخرى لا تعرف من هي وكيف زرعت في
أرضنا!

المدفع الذي صممه «أبو وحيد» هو من بقايا سيطرة دتابة. قوته
المدفع لتسوداء مرفوعة إلى الأعلى وسط أشجار الريتون. وكنا ندور
حول. بواسطة أدوات بدائية صنعوا مدفعًا صغيرًا. أدس يدي في قوته
التسوداء من هذا يحرق الموت، من هنا الموت يحارب الموت في
بداية الثورة كنت رؤية دتابة تصيني بالهلع، أما الآن أدس أصابعي في
قوته مدفع. عجلات المدفع كبيرة، حصلوا عليها من بقايا المعارك
كان يجب أن يطمس بالتراب ليعمل، وهو لم يكلفهم شيئًا، كل ما
حصلوا عليه لصنع ترعات وبقايا حرب. هم لا يملكون المال.

هذا المدفع مدى قوته ١٤ كم، ونحن نستعين بـ «غوغل» لضغط
المسافة بعض المواد يقوم بتصنيعها هنا صنعنا ورشات خاصة
للسلاح، وهي بصعوبة تكفي أمورًا كهذه. وضعت كل ما أملك في
الثورة كنت ندي مشاريع مع الدولة بخمسين مليون ليرة، تحببت عب
كنها هم فصعونا، قتلونا وقتلوا أطفالنا وشرّدوا أهلنا وسنقتلهم نحن
بدافع عن أنفس فقط. لا نقوم بالهجوم عليهم. أسمع أحاديثهم في
القبيرة نحن ننطق ما يتحدثون به. هم يريدون قتلنا جميعًا!». يقول
أبو وحيد

«لا أريد لآلة الموت أن تتحول إلى أهم ما يعيش الناس من
أحبه هذا ليس عدلاً!». أجبه. ويصمت «أبو وحيد» والشباب.
نكني أقول في نفسي «العدالة قد لا تكون أخلاقية!».

أكمل حديثنا هي بيت «أبو وحيد». شركت زوجته وأطفاله وأنه الطعام لا ماء، والكهرباء مقطوعة، لكنهم قدّموا لنا طعامًا وفيرًا. في أي مكان كنّا نحل ضيوفاً على أهله، يصبح الهاجس الأكبر لهم تقديم غيره، لكنهم لا يتوانون عن تقديمه. قال «أبو وحيد» ونحن نترنح حول طبق الطعام ونعتمس اللقمة: «عندما يسقط النظام سنرمي أسلحتنا. نريد أن نعيش بعد ذلك كبشر. لا أحد يحب الموت، ويريد أن نربي أطفالنا ونعلمهم. الناس هنا تشتري دخيرتها وسلاحها بمالها، وهناك تجار سلاح ولصوص أنا لا أنام في بيتي أبداً. أنا مقاتل، وعلى الجبهة يجب أن أكون. القصف يطاول بيتي نفسه، يقصفوننا من كل الجهات. هل تصدّقين أن حكومة أو دولة يمكن أن تقصف شعبها؟ لن استوعب هذا عمري كله!».

بدأ عصب «أبو وحيد» يزداد مع خروج الكلمات من فمه، وتوقف عن الطعام. «نظري إلى السقف المشروخ. القذيفة سقطت قرب بيتي، لكنها أحطت قتل عائلتي بأمّاتار فقط. لا يوجد في بيتي ملجأ، ونحن سلّمنا أمرنا لله، أين سنذهب؟ الانفجارات تزلزل البيت. نحن نشترى ماء شرب! هل تصدّقين كل شهر أحتاج إلى أربعة آلاف ليرة لأشترى ماء لأطعماني؟ في مزرعتي تركتُ شري مخافاً للناس... ستقاسم الحياة والموت معاً. استخدموا راجمات صواريخ وقصفوا بالطائرات نياحدوا خان شبخون، وبولا ذلك لما هُزمنا هناك. هم حساء لا يقدرون على قتالنا على الأرض، يقصفوننا ويدمرون قرانا. هناك أمر مهم يجب أن تعرفه، وهو أن لكل منطقة نظامها الخاص ولكل قرية وضعها. ما يحدث الآن هو أن كل قرية لا تشبه الأخرى، كأن كل شيء يقلب، وكان كل تجمع بشري صار دولة بحدّ ذاته». قلت له

«هذا هو حراب ما بعد الاستداد». قال: «أشياء عربية دخلت عينا،
نخيلي موضع العنيفة في الإسلام. أفتوا فيه، ووجدوا مبرراً للشريعة
بين الكتاب مثلاً أهالي كفروا صاروا يبتدعون معارك من أجل مسا
العنيفة وليس الثورة. المدفع يساوي ملايين والحصول عليه مكسب،
لذلك قد تشب معركة للحصول على غنيمة فقط! وقرينا كان عدد
سكدها خمسة آلاف، وصار الآن خمسة وعشرين ألفاً من النازحين
لا نستطيع الحديث عن سورية واحده الآن بالمنطق نفسه، كل شيء
غير».

القصف هذا الصّباح بعيد، ولدينا من الوقت ما يكفي لأجلس مع المعجوزين نتذكّر آلاء وإخوتها. الخالة العجوز تجلس بجانب أختها، أمّ العائلة الكبيرة، كأنهما أبديتان. تتفحصانني وأنفخصهما. بيننا نوع من التواطؤ الضمني الذي كان مضمراً مع آلاء. يبدو أنّ هذه العائلة تحمل لونة حت الحكايا. لم ترغبا في أن أتركهما، وأذهب إلى «معرة النعمان»، لكنني وعدتهما بسهرة سمر عندما أعود، شرط أن تحدّثني الحالة العجوز عن شبابها. كان يجب المرور على المكتب الإعلامي لأخذ معنا بعض المنشورات التي يطبعها نشطاء المجتمع المدني في المناطق المحرّرة. كان هناك مشروع دولة قد يتشكّل في المناطق المحرّرة، رغم القصف. كانت الثورة حتّى تلك اللحظة تكمل طريقها بصعوبة. علينا توزيع الجرائد في القرى التي نجتازها، مع محمّد والشاب. الشوق هدف دائم للقصف، والدخول إليها مجازفة كبيرة، لكنّ الناس يذهبون إليها يومياً. مخيفة هي تلك العلاقة مع الموت، وكيف يتحوّل إلى جزء من طبيعة العيش. نراقبه بحيادية. لا يشعر

الميت بما يحدث، تحطمه القذيفة. تمثته أو تقطعه. من الأفضل أن يكون الموت سريعاً ومباشراً، حتى لا نرى الأعضاء مقطعة في كل مرة اخترع مبتة سعيدة: كأن نسقط قذيفة فوقى ولا نترك لي مجالاً لشعور بعد ذلك بأي شيء، أو أن أتحوّل إلى تنف صغيرة وأصير حرة من العدم.

النسب أتوا بالمطوعات، ومنها جريدة للأطفال، سنأخذها مع في الرحلة القادمة، جريدة «الشام» وأعداد من جريدة «ريتر»، سوزعها على بعض القرى.

قل الدخول إلى «المعرة» وهي جهة قتال، علينا أن نجتاز عشرة كيلومترات مقابلة لحط الحجة. إنها مكان لتبادل إطلاق النار بين النظام والكتائب، وطائرات الأسد تقصفها باستمرار، ويتوزع فيها القاذبة على بعد ألف متر السماء صافية ومشمسة، وهذا يعني خروج الطائرة لقصف القرى. حفظ أهالي القرى المواعيد المفضلة للقصف. حفظ لأطعم أنوع الصواريخ والذخبات والقذائف، وتعلموا كيف يتم لقصف قال محمد «مناصة عذة بصربون الآد على الطريق، وحر سمر بينهم» من يومين مات رجل فتصا، ولكن لا مفر لنا من التقدم الأشجار مرهرة، والأرض تنزل بورود حمراء وصغيرة. أمامنا حاجز لواء «بارق الشمال»، سال الشاب حراسه إن كنا نستطيع المتابعة، فقال أحدهم «إدا إنكم عمر نبعينوا»، وحلّس على حجر. وضع رشاشه في حصه، وحقق يا بأس!

حصص رورس، وقد سهل السيارة سرعة مذهلة سمعت إطلاق رشاص، فم أنحرك من مكسي، إلى أن صحكوا وقالوا. «عشا» رفعت رأسي، ونوهية حنث أتى عموت داخل كابوس رتت تنشاه صور الذمار وأحند نكر رها في وصفي. لكن ما رأيته في «المعرة» كان

مرعبا! كانت أماما شاحنة صغيرة بيضاء، في صندوقها تجلس أم وبناتها الأربع، أكبرهن في العاشرة. الأربع محتجبات الأم متشحة بالسواد، والشاحنة تعرضت لقذيفة كانت الأبنية تحمي نحو الأرض. لم تدمر بالطريقة المعتادة. الحديد والإسمنت يتحولان إلى مادة سائلة. ساء من أربع طبقات، سطحه ينحني بخفة على الرصيف، مثل ستارة مسرح! ونحته تختفي الكتلة البشرية. يصير اللحم هو الأصم، والإسمنت والحديد يتحركان بحياة. الأبنية يقابل بعضها بعضا، تام رفق، وتحاذي أكوام الزباله الهائلة التي تتوزع في المدينة. «معرفة انعمان» مخربة بالكامل، يقول الشباب، لأنها خط جبهة، والقصف عليها لا يتوقف.

في اللحظة نفسها دوى صوت قذيفة. القصف أماما، فانعطفنا إلى أحد الأرقه. الطرق محفرة أيضا ومفجرة. واجهات المحال المعدنية تطير في الهواء ومع القصف ترتج، فتصدر صوتا مرعبا وصحبنا لا يتوقف لبعض الوقت. أماما امرأة وابنتها، وهذا بدا لي عربنا. لأنني لا أرى نساء حارج بيوتهن إلا في ما ندر. كان «الحامع الكبير» أماما، وهو من المعالم الأثرية العريقة. كان مهتما. السوق مدمرة أيضا. أولاد يتحركون، وامرأة تدخل في زقاق. مئذنة الحامع تعرضت للقصف، وتراكمت أسفلها الحجارة وقطع الزجاج، لكن المئذنة قصفت مرة ثانية. يركزون على قصف المآذن. مبنى الحامع كبير يعود إلى عهد ما قبل المسيحية. كان معدا وثيا ثم تحول كنيسة وكندرائية لا تزال زخارفه وتيجان أعمدته تحمل سمات المسيحية والذبابات ما قبل التوحيدية. غرفة الكتب الذبئية مدمرة أيضا، وقد نظايرت نسخ من القرآن والكتب.

في صحر الحامع، ونحن ننحى إلى المصلى الذي دمرته قذيفة،

سمعنا صوت الطائفة، وركضنا. يقول أحد شباب «المعرة» إن «قديفة» سقطت هنا. اكتشفنا سوقاً قديمة. نزلنا الحفرة ورأينا الفتحة يقولون إنها تعود إلى ما قبل المسيحية. كانت هناك أبواب وآثار لمخازن.

في رؤية لحراب تشابك أسلاك كهربائية بقصبان معدنية وخشبية حدران من الأسمنت تنكّوم بعضها فوق بعض، فتؤلف كتلة متجاسئة كأنها من عجيبة واحدة. كنت ألنقط الضور، وأصع عنواناً لكل صورة مائني في تحديد إطار مرمى كل قذيفة جعلت الشباب يطربون إليّ نثرين، لأن هناك لوحات تشكيلة للدمار عند حظ الجهة. قل ذلك. كان علينا رؤية منحرف «المعرة» الذي كان بُعد من أهم متاحف الميناء في الشرق الأوسط

أمام الجامع، قل الدخول إلى السوق، وقف رجل عجور. توخه إني وقال «شمتي... شمتي...» وأشار إلى المئذنة: «هي إصلاحات شتر... ما عمل شي... طالبنا بشوية حقوق... شوي بس الله وكبت... شمتي...» وبكى. أمسكه أحد الشباب ومشى معه. كان أن بعد ثلاثة من أولاده في قصف السوق. وهو يبقى هنا، واقفاً يبكي! على جدار في السوق حملة نُكس بالحط العريض «صامدون» ما رعم هذا الحصار»

قل الدخول إلى المنحرف، رأيت رأس تمثال الشاعر «أبو العلاء ميموني» منطوقاً. كنت كتاب عسكرة تكفيرية هي التي دمّرت. طلّت من الشباب الوقوف لتصويره. اختفى الرأس، وبقي نصف التمثال نسبي. لاحقاً يقولون إن قديفة سقطت على التمثال، لكن الثقب لا ندّ على ذلك. أحد الشباب يقول «سرقوا رأسه وبعوه»، وآخرون يقولون إن إحدى الشطايا قطعت الرأس. شات بخبرنا بأن

أحد رجال «جبهة التصرة» قام بقطع رأس التمثال لأنه كافر، فبرّد شارب
آحر بارعاج. «على الأقل هؤلاء يقطعون رؤوس التماثيل وليس رؤوس
البشر كما يفعل بشار!». الصحافي فداء عيتامي الذي كان يرافقنا
يقول: «إن المرحلة القادمة ستكون عنيفة جدًا. المجموعات الجهادية
ستدحى إلى تهريب الناس بقطع الرؤوس، والتمثيل بالجثث لأن هذا
حرء من الروباغندا الخاصة بها».

خلال تجوالي في ريف «إدلب»، رأيت أن هناك لبسًا عميقًا في ما
يصل إلى العالم الخارجي. في الواقع هناك مجموعات عسكرية جهادية
بدأت تسيطر على بعض المناطق، وكان أداؤها مختلفًا عن أداء الناس
العاديين، لكن المشكلة تكمن في الكنائس التكفيرية القادمة من
الحارح! في كل تحركاتي، وعلى رغم تحذير الجميع والخطر
المحتمل، كان الناس يتدافعون لحمايتي من أي أذى، ولإبعادني عن
الكنائس التكفيرية؛ لكن هناك شكلاً من أشكال احتلال المناطق
المحررة - وهو أمر لا يتم بشكل عشوائي أو فوضوي، بل بشكل منظم
ومدرّس، إذ تم تحويل الشمال المحرر إلى قطاعات عسكرية تتقاسم
عناصير الكنائس الجهادية. ولكن هذا لا يعني أن كنائس «الجيش
الحرة» وقعت تحتهم؛ فكثيرون من هؤلاء بقوا متمسكين بحفظ
الثورة، لكنهم بدأوا يضعفون.

متحف «معرفة العمان»، خان مراد باشا سابقًا، هو من عمارة
نمروحة العثمانية، وكان استراحة لقوافل الحج القادمة من إسطنبول إلى
دمشق سنة ١٩٧٨ تحول متحفًا. فيه أربعة أجنحة، لكل جناح قسم
خاص بالأثر، وفيه تكيّة للقراءة، ومجموعة كتب نادرة، و٢٤٠٠ متر
مربع من حدائق المسجدين كانت مختاة في المستودعات، ولا يُعرف
عنها شيء الآن، و١٦٠٠ متر مربع من الموراييك المعروف الذي يُعتبر

فأ سوريًا حالصًا بدأ منذ العصر الآكادي - بقي بعضه على الجدران.

باب المتحف تسده براميلُ مازوت، وإلى جانبها كُتب بخط عريض وواضح: «لواء شهداء المعرة». كان اللواء قد جعل المتحف مقره. في الدّاحل تتوزّع براميلُ المازوت والتّوائل السّوداء المنتشرة تحت «يدونات» الرّيت إلى جانب لوحات الصّيفساء. تحت القسطنطينيّة أرسٌ هدي، لا ينقصه سوى أمعاء الشّابّ الّذي سقط تحت المندة ليكتمل مشهدُ الحور. الأرسب لا يتحرّك. جلس يهدوء. يُطعم ولا أحد يضرب منه. قائد مجموعة صلاح الدّين، وهو مقاتل رافقنا في حولنا، كان لطيفًا، لكنّ وجهه كان حشِنًا وملامحه قاسية وفيها دهول في إحدى الغرف الجانيّة، قال إنهم جمعوا ما تبقي من صحون فخار ورحاح مكسور وأواني، وهم يقومون بحمايتها الآن.

بدو أن الكلام لم يعجب ناشطين من شباب المعرة فصمنا الأعمدة واشّبحنا مكسورة ومهدّمة وملقاة على الأرض بعشوائيّة، والأحجار الكسبيّة تعود إلى القرن الثّاني الميلاديّ. حتّى اللّوحات التي بقيت معنقة على الجدران تحترقها الطّلاقات وبقايا الشّظايا. الكتب أحرقها جيشُ الأسد عندما دخل «المعرة» وحرب المتحف، والمقابر الرّومانيّة ذات التّحت لأتخاذ باقية على حالها، وليس بالإمكان سرقتها لصحامة حجمها النّكية مدقّرة، وإحراق الكتب تم قتل القصص، وما نفى من الكتب بعثش فيه العار من عاويها الكثيرة. «الكشاف عن حقائق عوامر» لبرمخسري، و«الكوكب الدّريّ في سيرة الحصريّ» لعبد الرّحمن الأحمد، و«الحوليات الأثريّة العربيّة» بأجزاء عدّة، و«نماوس المحيط»، و«تفسير الفخر» لبراري - الطّبعة ١٣٨، المطبعة العامرة الشّرفيّة

كتب كثيرة بقيت على حالها نصف ممزّقة يقول القائد. «بحر

مشعلون بالحرب ولا يستطيع الحماط عليها» دوت قدبة كانت
قرية جدًا

في باحة المتحف احصب اشماثيل، سُرفت. عرفة الأواسي
نُزجاجة سُرفت نكامل أما أبواب المدافن البارلتيه فما زالت في
مكناها. وفي صدر العرفة، نُوحه فسيهساء كامله يعود إلى ستة ألهين
نيل المبلاد، اكتشفت في قرية «مركيا»، ونمثل شجرة العصب
نصاركة

نحت شجرة نيمون في باحة المتحف جلست. كان رأسي بحاجة
إلى استعاضة دمار التاريخ هذا بررت أمامي عبارة: «لا إله إلا الله»
نوه شهداء المعرفة.

قدبة أخرى تسقط. يقول القائد «بصربون شكل عشوائي».

بأحد إلى «القصة»، التي كانت مربوط خيل في الخان سابقًا.
سُرفت كل الآثار فيها وهي مهذمة، والتيجان الرومانية تآثرت في
باحها وهناك شطبة ما زالت في الحائط. يسير القائد إلى سيارة
مصفحة في قبة المتحف، حيث تموج روائح احتراق وبنزين وريت
عط. ويقول «احصب عندها عبيمة من رتل عسكري بعد أن صربا
وذي الضف» القائد العسكري بوخه عطاه بكل حذية «اسمعي يا
أخي، كن على الحية، نحن حشر حرة، ولما رجعا قالوا لنا إن
هذه تنصرة فقت رأس نعل بو اعلاء المعري، لأن وعود الثماثيل
حرة أعرف أنك سنأين عن القصة». بقيت صامتة

حارج المتحف. كن شحه إلى سخن «المعرفة». سمعنا من نحت
بكل لإسمتة، المعهونة بالرحاص والحديد وبقايا الآثار والأشلاء،
نصوات نساء وأطفال ما زالت بعض العرف نمة، ويعيشون فيها

تحت الخراب. لو أنني قرأت هذا المشهد في كتاب لما صدقته رجال يقومون بلمّ الزجاج المتناثر من النوافذ. القذيفة سقطت البارحة، وقذائف اليوم تسقط على الجبهة المقابلة. يقول القائد: «ستوحه إليهم الآن».

طفل يقوم بجمع ثياب عالقّة ومتدلّية من خزانة نصف معلقة بين جدران الطّيقة الثّانية. كانت الملابس ملوّنة، ولمعزة ما تبدو نظيفة لا عار عليها، تتدلّى من الخزانة كحبل غسيل طويل. كان الطفل يحاول الوصول إلى كمّ أحد القمصان عندما صرحت أمّه من الداخل، وهبطت الحرائق، وانهار معها الجدار! ركض الطفل. صرخت وأعمست عينيّ. الصّراخ، الذي يشبه العواء، هو طريقي لضمان عدم انحرار دماعي عندما فتحت عينيّ، توقّعت رؤية حسد الطفل مهروسًا تحت الحدار لكنّ الطفل كان يظر إليّ بذهول وسخرية! لولا صوت القذيفة لرأيتّه يطير محاحين فوق الدّمار؛ كان هذا هو التفسير المطلق الوحيد لحاته، تكرّر صوت القذيفة منع تلك الرّؤية.

فندد مجموعة صلاح الدين حول طريقا إلى السّجن ومقرّ البلدية. رأيت الأرقاء الحاضّة بالنفوس وقيود السّجل المدنيّ محترقة. المكاتب مهممة، الشقوق سقطت بفعل القصف، والقائد يحاول شرح ما حدث. كيف حرّروا البلديّة من قوّات الطّام وموظّفيه الذين هربوا، ومن ثمّ اقحموا السّحر، وأسروا تسعة عشر جنديًا، اثنان منهم اصنّوا إلى الكلبة، وأحد عشر أسيرًا أصدرت المحكمة الشرعيّة بحقهم حكمًا بالإعدام، واثنان برّأتهما. عادا إلى أهلتهما، وأربعة ظلّ مصيرهم مجهولًا. «كان هناك اثنان من الرّقة وشاب من السّاحل وواحد من مدينة ناب وأحر من دير الزّور...» لكنّا قتلنا ١٢ عسكريًا، يقول فندد مجموعة صلاح الدّين، وهو يحاول أن يعتر لي أنّهم التّرموا

لقدسوا. أحته. «يحدث هذا عادة في الحروب». قال «هذه ليست حرب»، أضفت فوراً: «بل حرب بينكم وبين بشار الأسد». فسألني: «أليس حرك؟». قلت: «نسى حربي، ولكن بطريقي. لديّ قلمي. أو كنة وصحافية» قال مستمناً. «هل تريدان إمساك سلاح؟». قلت: «لا، لقد حاول الشباب تعليمي ذلك. كنت قد قرّرت أن أحمل مسدساً لحماية نفسي، لكنني عدلتُ عن فكرة لاحقاً، لن أفعل ذلك أبداً. لقد أخذتني التفكير في الأمر وقتاً طويلاً لأتخذ هذا القرار البقاء في هذه الأماكن محارفة كبيرة من دون سلاح الشباب لا يتركون لي محلاً لمخوف، وهم يراقبوني ويقومون بحمايتي بشكلٍ مُبالغ فيه».

دعنا سردانا طويلاً، مطلقاً ونفراً. كان قائد المجموعة رجلاً سقيفاً، يعمل في الساء قبل الثورة، ولم يترك يوماً في حمل السلاح، يقول إنه اضطرّ للأمر الكل يقولون ذلك، لكنهم يحملون السلاح! وهو. رعه الموصى الحاصلة، يحاول تطبيق القانون. كان يراقبي بحذوبة بدا مشعولاً ومهموماً هذا رجل أستطيع القول عنه إنه شجاع. بدع وهو يفودنا إلى الزقاق الأسود الذي نصطفت الزنانات على حاسبه «كان السحر فارغاً عندما حرّناه، لقد أخذوا السحناء منهم».

الزمرات الصغيرة على الحاسب تعلوها كتابات من مثل «عذار يا رم» «أبو رودي الرودي أس يا عمري قدرني واحتيازي»..

في رواية فطرة جداً كتبت بيت شعر على أحد حدرانها «أعلمني نزعاً وأنت به/ وناكلي الدناب وأنت ليث». على الأرض، توزع حبات السحب. سراويل، قمصان، سراويل داخلية وكأنت راحة حريق تعبق في داخلها الشحام يعطي السقف يبدو أن حريقاً كبيراً اندلع في السحر بقول قائد المجموعة «نصبر المكان بعد أن

حزرناء فاحترق التحن ومبنى البلدية». ترقصت عند دراية تدو اقل
 انساخا. الملاص ممزقة، إلا آتي لوهلة خلث أنها كانت بطيفة،
 والأشياء التي كنت تخص من كان في الزبانة، بدت إلى حذما
 مرنة، رعم العث بها حذاء، حصير ممزق وبصع ملاعق، وإلى
 حبت بطن أسود، بضع أوراق، بصفها محترق، والتصف الآخر
 مشع بالشمع حمثها وحاولت مسحها، لكنّها تآثرت وتحولت ببر
 بدني رمادا اسم الحلالة «الله» محفور على كل الحدران. وعلى كر
 لزواب، كنت بقع الدّم اليابس قد تحولت إلى ما يشبه عطاء من
 شمع. داسنها أقدام كثيرة ومنها ما كان قد أمحى. تحببت العبور
 فومها، لآتي اعنرت آتي أسير فوق جثة إنسان كانت منه. الرائحة
 حادّة مثل رائحة تحلل عشرات الحثث، ولم استطع تحبب الشبر على
 نهج الحكور مصعوبة يرى، وذلك بفضل خيوط نور واهية في
 نهاية سرداب السحر بخرج إلى بقعة نور. الشمس حادة. أصبت
 بالشمع هذه دقائق نعثرت ووفعت على الأرض. وارتطم أنفي ببقعة
 دم بلس شعوب ناتي بثلعت جثة! بهصت نورا، ولم أدع فرصة
 لأحد لي على هذه الحال كنت وراء الجميع، ولحقت بالشمس.
 وب دند المجموعة اسدهت الشباب معكم إلى خط الجبهة، بالحارة
 لأخرى كوبرا حريصين»

علاء وثات حر من رافقوا كما من جمعية «سمة أمل»، أش
 جمعية تعاونية لمساعدة الناس، ومركزا إغاثيا وطنيا. هما من شباب
 نوره بلس بقموا بنو العمل المدني. عندما بدأت المقاومة
 بسبعه. كان بعضهم مثالا في إرانه إلى الجبهة النضرة. له
 حذره. وح أطف عدني الضريح لبث «الجبهة».

بفده في الحارة خط الجبهة هناك «درارون» كبير يتأرجح في

الهواء، عندما شاهدته طشتُ آتي أرى مشهدًا في فيلم حبال علمي. يكمل دورة كاملة في الهواء من الطبقة الرابعة التي تتعثر أحشاء عرقها في الفضاء، ثم يحيط بما تبقى من دمار البناء، فيحدث صجيجًا مرعًا، يصيب بالضمم. بناء إسمني مفتوح من المنتصف ومقسوم مثل ثمرة باصحة تظهر غرفة النوم في الطبقة الثانية، وفي الثالثة الطاحر وتضحون مصفوفة على الرفوف، وإلى حانها حمام، ولا يزال هناك ناس مسائي داخلي معلق، لونه أحمر، كأنه لعروس صغيرة، الغبار أفقده نوبه. وفي الطبقة الأولى سريرٌ كبير في غرفة نوم، وإلى حانها سرير خشبي صغير، وألعاب أطفال. منامة معلقة، ولونُ الغطاء لمُدق انمطرر صار أسود. حياة البشر وخصوصياتهم الدقيقة مفتوحة على الفراغ. قسمتُ قديمةً النساء نصفين! القسم الثاني من البناء كان محتملًا قل علاء: «قدائف عدة طاولته. الحارة الشرقية بالمعزة مهجورة بالكامل، ولا أثر لكائن حي فيها. بعد معركة المعزة الشهيرة، لم يتوقف النقص. بعد أن حررناها، أخرجناهم من الأرض، وفصونا من السماء».

عدد سكان «معزة النعمان» مئة وعشرون ألف نسمة. لفترة، لم يبقَ فيها كائن حي. رح أهلها منها وتشرّدوا. بعد فترة عادوا إليها. مضوا الموت في بيوتهم على الجوع والتشرّد.

بدأ النقص، وكان لا بد لنا من الاختفاء في زقاق جانبي. انعد من مكان النقص. ومررت أماما امرأة تجر كيسًا من الحطب ووراء ثلاثة أطفال يفعلون مثلها، وثلاث نساء متشحات بالسواد. الكهراء مقطوعة، والماء أيضًا، أصبح الناس يعتمدون على الآبار. وصنا إلى جامع «حمزة بن عبد المطلب» المدقر بالكامل. قتته سقطت ونسوت بالأرض كل شيء يبدو سورياليًا وعريًا على هذه الهبة

الي يمتد من ورائها سهل. «ها حظ جبهة ويجب أن نكون حذرين». يقول علاء، ونحن نتقدم بين الكتل الإسمتية المدمرة، كأنَّ أمامنا جلاً من الحجر للضعود إلى قبة الحامع الكبير. بقيت القبة سفوفها وزخارفها كما هي مثل صحن موصوع بأناقة. ورفض الشباب السّماح لنا بمناجاة الضعود للوصول إلى القبة، لأنَّ القصف بدأ. صاروخ سقط هنا ولم ينفجر فاستخدموه في الكتيبة. «يحدث هذا في بعض الأحيان. يرمون بالضواريخ الي لا تنفجر، فتعاود رميهم بها. نحن على بعد سبعة متر من حظ الجبهة»، يتابع علاء.

حظ الجبهة عبارة عن مجموعة أشجار من السّرو، ونحن نخشى في ركم المسحد وقتّه. لن نتقدم أكثر، يقرر الشباب، فنزل بسرعة. فجأة يمرّ طفل ماذا فعل هذا؟ أصرح كان في حوالى السادسة ويضع ثلاثة إطارات لسيارة في عربة. لإطارات مهترئة وتسند برميلاً صغيراً يسع الماروت متجاوزة. لا أحد يعلق. ويصل إلى ساحة «المعزة». إلى اليمين مقرّ كتيبة «شهداء المعزة».

صوت نفدائف لا يرال مسموعاً، وصرنا نعيدين من سقوطها. انحرّك مدمولة وسط كتل الدمار الهائل، وعندما وصلت سيارتنا إلى مبنى الجمعية صرح محمد غاصّاً: «صربوا سراقب، بسرعة إلى نسب أو لارم سرحع». لم يكن أحد يماثل محمّداً بعلاقته - «سراقب» وما يحدث فيها. بقي من أكثر الشباب الذين عرفتهم حلفاء نمك. أندي وند فيه. التفكير بالابتعاد عن «سراقب» كان مستحيلاً في إحدى المرات، عندما ألححت عليه بضرورة الخروج لإجراء عملة نعه التي فقد الرؤية بها نتيجة لصربة على الرأس، رفض شقّه، وقال إنه يعرف أن الأمور لم تعد كما كانت، والثورة انحرقت. ونكته نر برك الناس بواحهون مصيرهم وحدهم وهو لا يستطيع.

وسمى لو أنه يستطيع البقاء للعلاج خارجاً. وهكذا بقي محمداً يرى
 عين واحدة. لم تكذ تنوقف السبارة حتى ركض إلى داخل باء جمعية
 «سمة أمل»، حيث مجموعة بشرية كبيرة بهتم بتنظيم الأمور. كان
 الجميع من أهل المدينة شباباً وبساء ورجالاً وأطباءً. هناك طبيب
 يورع الأدوية، وامراه بساعده، وحوله يحتمع لشباب، ثم يهرعون
 لملافتنا كرماء حذاً. أرادوا تقديم الطعام والشراب إلينا. المكان
 عبارة عن غرفة كبيرة مقببة دخل شاب يحمل مجموعة من أكياس
 الحبز. يقول الطبيب المشرف. «بغاي أزمة حيز، يريد الناس أن
 يأكلوا. لا يوجد خبز، ولا يوجد ماروت، والكهرباء غالباً مقطوعة،
 وكذلت الماء. تحيتي كيف يتدبر أمره من بقي حياً منا! منذ خمسة
 عشر يوماً حين عاد النازحون الذين تركوا المعزة. لدينا الآن ما بين
 عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نازح، من أصل مئة وعشرين ألفاً
 برحوا، وعدد كبير من الحرحى، ومنهم أطفال. نحن نقوم بالتحدير،
 لدينا مبنى ميداني فيه ثلاث غرف للعمليات» غرف العمليات هذه
 عبارة عن مكان فقير فيه ما يكفي لإتمام عمليات استراع الطلقات
 وحيازة الحروح

نائب «معزة النعمان» يسمون هنا يشغلون مجموعات لإيقاد
 الحرحى وتوثيق عدد القتلى وما يحصل من قصص كثيرة هي البيوت
 شبه المدمرة، وتكاد تكون عائلة البيوت. أما المدمرة بالكامل فيقولون
 إن عددها تجاوز الألف.

بعض الشباب عادوا من النقطة الإسعافية التي أمامها في جهة
 «نعمدنة» الإسعاف الحرحى على خط الحصة. أبو الرزق، وهو
 صديقهم الذي سقطت فوقه قذيفة، كان منشداً ومسعفاً ويعمل في
 جمعية سمة، وعمره اثنا عشر عاماً، وهو وحيد أبويه. يقول أحد

الشباب، وهو يصب لي كأس الشاي الثاني: «طيران الأسد قصصاً في اليوم الواحد بثمانٍ وعشرين قذيفة. ظلّوا هكذا بمترة، ولكن حفر القصف بعد أن تم إسقاط طائرتين».

يصحبون، وينجّمعون حولنا. كانوا يتهايمسون ويرافقونني بدقة. لكنهم بدوا مطمئنين ومرتاحين، و«يتراغلون» بالكلام. أسأل الشبان عن وضع النساء وأطلب رؤيتهن. حدثتهم عن مشروع مراكز للنساء. كنوا متحمسين لمساعدة زوجات الشهداء. بقينا أكثر من ساعة، وعد صرّ محمد الذي يتحرك حيئة ودهاباً. قال أحد الشباب وكان قد دخل مؤخراً «قصصونا بالتكود». لا أستعرب هذا. نحن حققنا انتصاراً على الأرض، وهم الجناء يضربوننا بالطيران». شات آخر في العشرين يقول: «المعرة حظ تماس مع جهة النظام، ونحن هنا لن نترك أرضاً حتى نؤمن». نوكد معاً مصادات طائرات لسقط الأسد منذ زمن».

كنت هذه الحملة التي يكررها مقاتلون ونشطاء وأهالي وساء وأطفال هكذا قالو جميعهم بلا استثناء. كانوا يعرفون أنهم يقدرون على تحرير الأرض، لكن الطائرات تحول المناطق المحررة إلى هراب

أبهر رصاص، قذائف، وحفر تتبع الحديث، وبضعة أطفال برقوق إلى عرفة داحنية. هي العرفة، قسم لأجهزة كمبيوتر، وفي ناحية لنفسه صولة تكندس فوقها أكياس الخبز. الحركة مستمرة، وحفر تتحفق بالعثرات في محبس دائري. جاء شاب من الخارج، وقف، ووخه حضه إلى: «جهة النصرة أفصل من يقاتل». بعض شباب لا يوافقونه، لكنهم يدعوهم يكمل الحديث: «كانوا بداية حرب». لكن نصرة كثر من الثورتين إليهم، ومعهم سلاح». يقول شات حر: «رمدا عن الشيشانيين الذين اصنوا إليهم مؤخراً؟ ما الذي أتى

«به» يقول آخر «هؤلاء إحوت في الإسلام يقاتلون صد الكفرة»
 أسمعهم وأعود إلى الحديث عن أوصاع النساء والأطفال والتعليم، وما
 ندي سمعه، إذا استمر الوصف سنوات على هذه الحال؟ يعود الشاب
 ويقطع «أنا مع أحرار الشام، لأنهم لا يسرقون مثل الكتائب
 لأخرى» يقاطعه الشاب الآخر: «طبعاً، لأنهم سرقوا ما يكفي...»
 «نعم». محمد وقف على الباب وعلا صوته: «لارم نروح
 سراقة» ونظر إلى برجاء. فعادونا فوراً.

ثم، معادرتنا «معرة النعمان»، كانت أصوات القصف تزداد.

«السماء، السماء». أيتها الحائنة، أيتها السماء! صرخت بصوت

عن

مسحور الكيومتات الخطرة وأصواء السيارة مطمأة. هذا خطر،
 نكه أحسن من النوت قصصاً في الليل، أو أن تأكلنا الصباغ كنت
 أفكر في بب العائنة وورا وعيوش والمحورين، والدفع الذي ينتظرنني
 سهل لا بد من أهن قلقات علي. يقول محمد: «حسب القابض،
 لأحر نسب مطمئة. ويحب أن توجه إلى مكان القصف مباشرة لأن
 هناك أشد تحت الأضواء».

ود محمد السيارة سرعة حوية كنا صامتين؛ فبحر نعرف قلقه.
 كد يحدث مع نفسه هوان الوقت، وبحر نواطأنا على الضمت.
 صرود عند وصولنا إلى «سراقة» أشجار ترتبون التي ارتمت بفعل
 عديف، فنبعث من ترسها واصفرت قرب سور أحد البيوت. إلى
 حدها حرة من حزار رراعتي قصمته القديفة بصعين، يبد الشارع.
 صعد إلى شارع آخر لمشهد مهول ترخدا من السيارة، وركضنا
 سرعة إلى مكان القديفة الثانية صرح أحد الشباب «إنهم يمتحون

القور .. سندفهم قبل مغيب الشمس».

النساء لَدي سقط كان مؤلفًا من ثلاث طبقات. قدائف عند
سقطت عليه نحت طفلة، وماتت أمها وأخوها، وكان البحث حادي
عن الامة الرابعة. عشرات الشباب يدخلون البناء المهتم الذي استحال
حلاً من ركام، وأتوا بحرافة لسحب السطح المسهار كان الار
بحس عنى الرصيف يعلو وجهه الغبار، ويسدو كتمثال لولا سيجار
لني تتحرك طبقة غار كثيفة تعلو شعره وثيابه. كان في الحارح عند
سقطت القديفة، ثم بول بين الأبقاض. انتشل جثث زوجته واسه
وسه، وبقيت امة الأربع سوات مجهولة المكان. البارحة بقي الشباب
حتى الساعة الواحدة ليلاً يبحثون عن حثتي رحل عجوز وروحته تحت
أنفص بينهما اسهذم. دهنا لرؤيتهم ليلاً كانوا يعملون بالطريقة
مسها مع أصواء العار والشموع، ولم يعثروا على الجثتين حتى طلع
المحرم فدناوا إتهم، حلال ساعنين، سمعوا الأين من مكان بعيد
وعصوا، وأمدوا انتشال أحدهما حيًا، لكنهم فقدوا الأمل بعد مرور
الوقت

النوم، بذكر الأمر معه، لكن الحثة لطفلة في الرابعة. مددت
رأسها بين الشباب ولم أكنه إلى أنني المرأة الوحيدة بين عشرات
الرجال. كنت من يومس قد تلقيت تحديراً من الجارات به
محصول من نبي ألا أحضر نفسي بين الرجال أثناء القصف، أو
سحت عن النفس. لأن هذا سبيل الشكوك حولي. نسيت انشديد
عند سقطت قديفة فوق البيت المحاور بمقر كثيفة عسكرية، وبقيت
هنا بدون معرفة ما يحصل. وعندما انتهت إلى أنني أمسك أصابع
عصاة وحرقة حب ركة المحرم، وحصل شعر، صرخت، واسه الرجال
إني، وصمو من شاب أن بأحدي من المكان

تقدم متي شاب لم يتجاوز العشرين، يضع على جبهته عصاة سوداء كُتبت فوقها. لا إله إلا الله. وصاح برفيقه. «حدوا هذه المرأة من هنا، مكانها ليس بين الرجال أستغفر الله العظيم». كان الأمر ستهي لو لم أنه إلى أنه ليس سورياً حدثت في عينيه، ولهجته كانت عربية وفشت في مكاني، وحدثت فيه مجدداً. كان واحداً من مدني «دعش» العرباء. لم أراجع حين كان يتقدم. في اللحظة نفسها توقفت سيارة الشباب أمامنا. نرخل منها أحدهم، وأشار إلي لأدخلها بسرعة «هم يعثروا عليها، سيواصلون البحث»، قلت لهم وأنا أدخل السيارة. ظهر محمّد من بين الأنقاض يحمل لعبة بلاستيكية. كان صوته محوفاً، يحرك شفاهه ولا أسمع، وهو يقبض على اللعبة. سمعنا صوت عربياً صعدت عليها مرة أخرى، فأصدرت صوت بقة. قال «قلبي محروق وأنا أبحث عنها وحدثت هذه البقة بين الأحجار، إنها لها». ثم مضى وحده.

المصنف لا يتوقف على «سراقب» لأنها تشكل نقطة عسكرية استراتيجية بالنسبة للنظام، ومن المهم إبقاؤها في حالة عدم استقرار. لكن أهل «سراقب» سيدفون شهداء الصباح، لأن الكهرياء مقبوعة والبحث نفع مفسر الشهداء لم تكن سوى بضعة شواهد في سمرات السافنة، وفي اللاحقة، ستتحوّل حديقة، تُزرع على طرف كل شجرة ورد صغيرة

كل الذين دفنوا في المقبرة كانوا من أهل «سراقب»، وأحمد بحسن كان مدفوناً فيها أحمد هو المقاتل الذي التقى في المرة الأولى. وحدثت إلقاء صورة وجهه في ذاكرتي حية كان حضوره ينحصر كل ما قدم به الثوريون في ثوبهم من أجل الكرامة والحرية، نكسي. ونسب عامر، لمحت عندما رأيته سحنة الموت كان

صهراً قريباً، وشحاعاً تحاورنا لساعات طويلة في بداية الثورة، كان
إقدامه بقنفي. فصره الآن أمامي. مسدتُ على الثراب وقلت. «مس
أنحبر أمحد» استطعت سماع صوته في رأسي واضحاً، وأصوات
شباب كثيرين ماتوا مثله

في ببار كان شابتان يحفران القبور الجديدة. إلى جانب
حجرتين متلاصقتين، شتلة ررع جديدة مرفوفة بقطعة قماش ملته
سما، وسما به تكي رحيمه حينذاك. سمعنا أصوات القصف، كان
هنا من حفرة ومع ذلك، فقد تابع الشاتان عملهما مقبرة القرية
هذه. وبعد ثورة صارت هناك مقبرة للشهداء. اختلعت أشكال مقابر
سورتن بعد ثورة صاروا يدفنون قتلاهم في باحات بيوتهم،
وحووا حدائقهم العدة مقابر. يدفونهم بين الأشجار، ويتركون شواهد
سما وقد يحرقون حديقاً طويلاً، يدفنون فيه عشرات الشهداء شكل
حدي. أحاط قد يحوون المساحة الصغيرة المتاحة لهم حلف
سما ممره لأحداهم وعندما تقصف بيوتهم في المدن، يبحثون عن
وب مذكر حدي موني

صارت حفرة سب الس الناس، مثل حوايت وشوارع تتفرع بين
سورتن يحوون السراب، محبرة بعد محبرة، حفراً مثقوبة بأجساد
سورتن

سما، هذا مضمه ومبرنه، ألول بصوت عالٍ، فيجيب شاب
من سب حفرة وهو يحفر في ثراب «كلهم شباب». صمتٌ كان
سورتن سب سورتن. وقد عبي ينفذ القصور ساكتشف لاحقاً في
صو هذا شمس سي كان وراءه إنها شمس كسرة وراء شواهد
سورتن شمس سب. أن ومحمد ونشاب، وكيف سبت ويدور بين
سورتن. وب مسه كفوك محورة، والبلدة تحنفي وتتحول حظوظاً

سوداً، ثم أجسادنا المنهالكة تنحرك بثقل وانكسار. هي هكذا أيضاً
 جاهرة للموت والقذائف الجسد لا يكذب عدماً بفصل عن الرقيب
 لقد كنا موسى أيضاً في علاقتنا بالضوء والهواء واشتراب! والموت سهل
 جداً هنا قريب وحميمي، حتى إنه أقرب من التنفس. يعيش بين
 نفاصيل، يحسني، ثم يقصر فجأة أخبرتني إحدى نساء «سراقب»
 أنني كنت أعمل معها على مشروع اقتصاد مرلي، وقبل استشهاده
 روحها، بأن علاقتهما نعتيرت كثيراً، وقد أنجبا طفلين. همست لي:
 «الموت الكثير... يأتي بالحب الكثير».

كان ما يفتت انتباهي، وأنا أرور النساء في بيوتهن، وفي قرى
 عدة منتشرة في ريف «إدلب»، أن بيوتهن بطفة جداً، رغم انقطاع أسماء
 الدائم، وروائح مواد التنظيف رغم انقراض نفوح من غرفهن. هي أفقر
 البيوت، كنت أشم رحة الصابون الرديء والرخيص أما عند فقراء
 النازحين، الذين يعيشون في بيوت نصف مهذمة، فكانت النساء يعتنين
 بها بطريقة محسنة؛ إذ كنّ يمسحن الغبار بقماش مهترئ بشكل دائم،
 ويمسحن وحواء الأطفال بمسحمة يبللنها بالماء. أما اللواتي يعشن في
 الأعراف فحلف الأمر عندهن.

الثبات الذي يحمر القصر قال من داخله وهو يفرعه من الثراب
 «هذه المقبرة متفساء، سنوسعها ونهدم لحائط. هكذا ينام شباننا بأمان
 تحت الثراب!» أبطر إليه بدهشة، سما يتجول محمداً والشباب في
 المقبرة كأنها بينهم بصيف الشاب: «هذا ترب كنه من لحم أولادنا».
 ثم يكمل حملته حتى دوت أصوات القذائف ركصاً. هذه ليست
 هائرة، إنه مدفع! عندما وصنا إلى أول الطريق العرعية، انفجرت قذيفة
 فوق ست محاور، وامتلأت السماء عباراً، وبدأ الليل يلقي برك جميله
 غنيا

في تلك اللحظات، كانت جثثُ تُستشَل من تحت الأنقاض.
وحدث في طريقها كي ثواري، وبشرٌ يتحولون الآن حشًا. كيف يمكن
التفكير في دوامة المحررة هذه؟

ندافع الناس من كل الجهات نحو مصدر القديمة. انصح.
المستهدف في القصف كان مدرسةً صارت مقرًا لكتائب «أحرار
الشهداء» خلال ذلك، ونحن نجتمع، سمعنا حديث مقاتلين
حدث أحول فهم ما يحدث في معركة «وادي الصيف»، وأثناء السج
س لأفصح، يقول أحدهما، وهو الأصغر سنًا: «معركة وادي الصيف
كان يمكنها أن تنتهي مد رمس طويل لكن الكتائب التي تتلقى الدعم
سأني تعطيل عمر المعركة للاستفادة منها». يعترض المقاتل الأكبر
س. يبدأ الآخر بشرح ما حدث في مطار «أبو الضهور»، بين مامر
العملي وكعبة «شهداء سورية». ثم يصق المقاتل الصغير وهو يقول

«مؤووووو» أمر أحل هذا خرجنا للشورة، حتى يستعمر
نصفاء؟ وموت ناس من أحل القليل من الأموال. ومن يدفع الثمن
هؤلاء النصفاء؟، ثم يعطي الزكام غاصبًا.

ساد صمت ناس، باستثناء صراخ بعض الجيران. دخلت السرا
لأرفه مسعدة عن مركز المدينة المستهدف بالقصف، وأتحها إلى أحد
عنه ممكة. ثم توقفت ودحنا بيت أحد أصدقاء الشباب. كبر
حس على صوة الشموع، وما إن ألقينا التحية حتى بدأ
لاسمدوت نحصر العث. كنت أمل أن أتمكن من زيارة بعض
سواء، بحاضبة إحدى روحت الشهداء، وكانت تريد افتتاح مشور
نضوف لكن فكرة زيارة بدت مستحيلة؛ فالتهاى كان طويلًا، وأمر
سب الذي حث به فحاة فإلوا إنا لن نعاذر من دون تناول العث
نصيب نورا. سمعنا كيف عرفت مكسي. كانت قلقة عني

لها «سعري بسعري» قالت. «لا والله، أنت أعلى من عيرك، ونحت حمايسا». كنت هذه العضة الأخيرة التي ابتلعها قل بضع نفدت برلت كالتكين في حلقي.

أفكر بلاحدوى تدوين هذه الأحداث التي تتشابه وتكرر، لولا حديث مورا الصاحبي.

كنت برتشف قهوتنا في المسجل تحسباً للقصف نورا من دمشق، وهي روضة أح مبسرة، وعائلتي الضعيرة في «سرقب». لا أعرف مكم شعاع الشمس الدائم في قلب هذه لعائلة، والذي جعلني أفكر كل مرة في الزحوع. كنت أود مغادرة فرنسا والاستقرار في الشمال، والنحت عن بيت في «سراقب» أو «كفرنبل»، لكن الأمور كانت تسوء يوماً بعد يوم. وصرت أشعر بثقل حركتي على الشباب. خوفهم من إحاسي بأذى، هم وكل العائلات التي عرفت بها، وحرصهم على حمايتي. ثم ذلك الاحتفاء الممروح بالفضة، صار لكل ذلك طعم الفهر، يوماً بعد يوم.

كنت برتشف القهوة الصاحبية في أسفل درج الملجأ لنتمتع براحة من موقف، ثم روي تفاصيل الأحاديث، التي تناول نوع الطعام الذي فضل سدونه «أبو إبراهيم». الأخ الأكبر لمبسرة، مهندس درس في سعري، وهو بدير أرضه ومشاريعه الزراعية الآن. شارك في التظاهرات نسمة، وشعر في بداية الثورة، ثم أطلقوا سراحه، وهو لا يكل ولا يمل من مساعدة الثوار والعائلات. مورا أيضاً تفعل ذلك. كانت سيدة دمشقية، وقعت في حبه عندما كان يرور أحته مورا «المتقنة»، كما يسمون الدمشقيون. تفعل الأشياء بكامل الأداة المطلوبة. أثناء القصف، نحضر كوب الماء مع الضيئة وقطع الحلوى ومناجين القهوة المدققة. ونحضر الهدايا عندما أغادرهم. حاكنت لي شألاً من الضوف، وصمت

حوداً صغيراً من الحجر لاستي كانت، أنشاء حروحي يومياً مع
 الشب، تقف أمام باب البيت، وترفع رأسها إلى السماء، قائلة يا
 الله احفظ واحم قديها وعملها، يا رب أعدهم سالمين، وتلوح لي بعد
 ذلك كنت أنتظر دعاءه لكن بورا تحاف من القصف، ولم تعد
 ولا تروى، عديم تسمع صوت قذيفة، تقف وترتجف ونصاب من
 دعر حننها تدك حعنني أنتزم الهدوء في كل مرة ثم صار دند
 هديره حرة مبي. ثم تخرج بورا هذا الضاح معي إلى السار
 حارحي! وانقص كان مستمراً.

سحبه إلى كمرسلا! رؤية ررر التي قررت العودة والعمل في
 ناصح المحبرة

دحسا "كمرسل" ليلاً. عندما وصلنا إلى المكتب الإعلامي، كان
 الشباب وهران في انتظارنا. المكتب الإعلامي، الذي وصلت لوحاته
 ولافتاته إلى بقع الدنيا كافة، كان عبارة عن بيت شبه مهجور، يجتمع
 فيه الشباب والنشطاء والمقاتلون في غرفة واحدة، حول مدفأة مازوت
 قديمة، يحسبون على وسائل الإعلام والحصير البلاستيكي. العرفتان
 لأحريين وهران، واللوحات الشهيرة التي رسمها أحمد جليل، رسام
 "كمرسل"، كانت منفأة على كرسي مكسور عند باب الغرفة. المركز
 أصبح أنواره لجميع من يريدون الاتصال بالعالم الخارجي. الهواتف
 موصولة. ولا وجود لـ "إنترنت" سوى الأجهزة التي يقومون بشرائها
 مع نحرهم تكديفة نقل ما يحصل إلى العالم الخارجي. كنا في غرفة
 مكسبة نتحدث حول المدفأة، أنا ومسهل، وأبو وحيد، وفداء،
 ومحمند ويزال، ورائد، وحمود وحاند العيسى، إضافة إلى ثلاثة
 شهود بقوا ساعة ثم عادوا. كانوا يعملون على الكمبيوترات التي
 يصنعونها على ركبهم غير مائس بما يحدث حولهم.

أحاول التكرير لأصدق أنني لست في فيلم سيمائي عن صاعه
الثورات أو لست في نص سردي؛ ذلك لأن المشهد كان يبدو لبوهد
الأولى رومانياً ومثاليًا بالنسبة إلى ثوره شعبية قرأنا عنها في كتب
التاريخ قوط نقض قلبي؛ فالعالم في الخارج لا يريد أن يرى حقيقة
ما يحصل بشكل واضح. كان يريد رؤيتنا كمجموعات بشرية متوحشة
تلمي عنها صفة العقل، وتنسبها كلها إلى التطرف الديني الإسلامي
وهذا الأمر كان يعني، بالنسبة إلى الحكومات وإلى كثير من شعوب
العالم، أن يبقى خطر هذا التوحش بين الجماعات المتصارعة في ما
بينها كنت أعيش بين عالمين: عندما أدخل سورية، وحين أخرج منها
وأنقي المحاصرات في مدن عدة من العالم. أحاول شرح حقيقة ما
يحصل في سورية، وأحاول فهم طريقة تفكيرهم فينا؛ ثم أعود وأعيش
مع الثوار وناس، فيصيني قوط وغضب من الظلم الكبير الواقع على
كشعب وفصيلة، ثم أجد نفسي في حفرة من الصراع العميق
والأحدوي، لا يفدي منها سوى العودة إلى هنا!

ربما حول الحدة التي بعلي فوقها إيريقي الشاي. كل الشاب
محمضون نذحون في نقاش معاً يرى رائد أن هناك فوضى حلت
بعد خروج قوت لحبس، فوصى الكتاب والسلاح جعلت من جهة
نصرته أكثر خطراً وبررت معتدتها ومالها وسلاحها. من أين يأتون
بشمول و«سلاح» لا يعرف! الوضع في «سراقب» مختلف، يقول رائد
وهو يصر إلى سهل فقد تم دعم حركة «أحرار الشام» بالمال
والسلاح، وصار عاصرها يتدخلون في الحياة الاجتماعية للناس

«جهة النصر» كانت بعيدة من هذا التدخل ما أدى العكس في
رأيي بل أحده ما أنه عن مشروع الخلافة الإسلامية، أقر بأن هناك
أصوات تريد هذه خلافة إسلامية، سب ذلك هو العنف الشديد من قبل

النظام. الناس يشعرون بأمان مع «جبهة للتصرة» واشدّين، لأنّ لا خير لهم سوى الموت الذي سيعمون بعده بالحياة الأخرى. تحوّل الناس فكرياً من الصوفية إلى السلفية. السلفيون لديهم أطفال يقومون بتدريسهم لتحويلهم إلى مقاتلين. «هذا خطير أيضاً»، قلتُ. وافق الشباب على ذلك، ثمّ أضاف أحمد رسّام «كهربل»: «نحن بدأنا الثورة وهي تنتقل إليهم».

كنتُ نرتشف الشاي، وأحاول سماع صوت القذائف. قال شاب آخر: «انقص هنا قليل هذه الأيام»، وأردف رائد موجّها حديثه إليّ: «هذا جهل بالدين والإسلام. لجهل أساس التطرف».

سهل لا يوافق على أنّ هذه هي الأسباب فقط. يقول إنّ هناك أموراً تدخل في تركيب المجتمع السوريّ تؤثر، مثل الانتماءات العائلية والعنصرية كما حصل في «بش»، حيث كان الحلاف بين عائلتين هو نسب في سيطرة «جبهة التصرة» على «بش»، وعندما دمرت «تفتنار» ومع أهلي «بش» و«حيش» يتفرّجون العطب أعمق بذلك بكثير. كنتُ «إنّ ثقافة العمل بالشان العام الوطني وثقافة المواطنة عائدة. لذلك، نشأ حلافات مناطقيّة وصراعات تساحريّة بين الكتل والمجموعات. هذا ما تسبّب الأنظمة الشمولية، وعلى هذا المعدل نحن أمام نفث مجتمع ونفسه».

رائد، ليس متعائلاً، ولكنه ليس متشائماً أيضاً، يحيب «لا مفرّ من المحصّي قدماً في ما بدأناه». يعيب سهل: «لقد نمّ همال نحب المدي في الثورة».

فيما نتحدّث، كان الشباب مع ريان يمدّون العشاء، لا حدود تكرم أهالي «ريف إدلب» وضيافتهم.

تدو على رائد علامات الصيق، لكنه هادئ على العموم وكلمته مسموعة بين الشباب. ينظر إليّ وهو يحرك رأسه بأسى: «نعم أخطأنا، ونكر كيف لنا ألا نخطئ؟» كان لدينا حجم عمل كبير لمساعدة الناس والتأرجيس، وكانت بيوتنا تنهزم فوق رؤوسنا. يعلو صوت رائد، وبدان العشاء الذي وضعه الشباب على الأرض. تحلقنا حوله، وعمس نغمات الحر مع رشقات الشاي الساحر، والحوار الذي لا ينتهي يتبع رائد: «صارت الإغاثة فوق طاقتنا، هناك أزمة ثقة بين الناس، وتحولت للجميع ولكل من يعمل بالإغاثة. الجوع يفعل فعله. نحن بحاجة لنمكشمة كبداية لفعل السوح في الثورة نريد إداعة لنحدث عزمه لأباء «كهريل» ونخلق حالة وطنية. يطالب المجلس الوطني والائتلاف بذلك أيضاً! بحاصة أن جهة التصرة بدأت تدخل في محار لإعانة من خلال الخبز والمازوت، كما فعلت في حلب ودير الزور ستكون هناك نتائج كارثية».

حكى القصر الذي جمعنا أشعرتني بالاحتناق، وأنا أراقبهم يسفرون حول بصفة صحون يصحكون، يناقشون ما يجب فعله، وكل هذا يدار وعمل فوق رؤوسهم حين جاء «أبو المجدد»، اختلف الوضع وصار الجمع أكثر مرحاً.

أبو المجدد من رشت مسابيا، ولا إعلامياً. إنه مقدم مشق عمر حسن الأسدي، ووند كنيسة «فرسان لواء الحق» يحمل كمبيوتره معه. اسمه لا يدرى وجهه أحول نعيد ملامحه كفائد عسكري. لكنه لا سوحى بنت ساعرف لاحقاً خلال الآتام والشهور المقبلة. ماد يعني أن يكون الفائد العسكري بهذه التزوج الساحرة العذبة صحت ويحدث في «السلام يا شباب، كنت عند جماعة الإهانة، وأه هب معروفه من يحصل في العالم عبر الانترنت» يعاينه رائد أنه نائب

بني النطهره؟" بصحك أبو المجدد "أب عسكري ماذا سأفعل نطهره
سمية! أليس هذا ما تكتبونه على الفايصوك، من هم ضيوفكم؟"
بصحت لنا. يعرف رائد بأسمائنا الأولى وعملنا. يقترب شاب ويهمس
بأذنه، فيحدثني، ويقول "كلنا ولاد بلد وحدة، الله محيي أولاد
الأصل، وأهلاً وسهلاً بك يا أختي".

في عرج، عاد حديثاً من رحلة علاج في تركيا. أصيب في
معركة لآخرى لا يتبع لأي جهة تمويل، ولا بكتائب دينية متطرفة،
ولا لأموال الحليح التي كانت تتدفق من رؤوس أموال يملكها رجال
أعداء أثرياء. وهو في منتصف الخمسينيات من عمره. كتيبته مفلسة،
يعود الديار في الشتاء ألف وتسعمئة مقاتل، لكن هناك مئتين وعشرين
فقط منهم يعملون ويقاتلون، الباقون في البيوت. لا يوجد لدينا
سلاح، ولا يوجد دعم خارجي أو داخلي، وتأتي بعض لمساعدات
نفسية من أهل "كهريل"، ولكنها تنفي الحال على ما هي عليه. يعني
لا نحب ذلك ولا يعني العم! انطري إلى رجلي، كنت أعالج هناك
وقد لاذوا لي العاية الضحية المطلوبة. كان فرحاً وهو يعرف بأنه ما
رأى حذاءً سطر إنني نمت. هل تريدون الذهاب لرؤية المعركة؟ لدينا
معركة على حق الحبهة! أحبت حماسة "طبعاً"، لكن الشاب
يقول بصحك "أبو المجدد" تعقدون أني لن أحميها بروحي وروح
خودي؟" أحبت شاب "لن نتحمها، لكنك ستتفتت معها بقذيفة على
حق حبه، والله وحده سيحميكما معاً في السماء". نصحك، فيقول
"أب أيضاً، قد يصغر بقذيفة"

صبت من "أبو المجدد" رواية فضته، لأدونها كشهادة، فأعني
عندكم سور. ويهدوء مائتي استكنج عني؟" أحبت. نعم
عند اسم مائتي، وهو رأسه الشاب بدأوا يشعلون بمشاريعهم

قال «أبو المجدد»، بعد أن فرد رجليه، وأسد ظهره إلى الحائط
«كنت برتبة مقدم في الجيش النظامي، وخدمتي في هندسة الطيران
بمطار دير الزور أنا مهندس، اشتغقت من الشهر الأول، وفي بداية
الشهر السادس من سنة ٢٠١١، بدأنا التخطيط للسيطرة على مطار دير
الزور عرفت جماعة الأسد بالقصة، فسجنتني، لكنها لم تستطع إثبات
أنني أحد المتورطين بالسيطرة على المطار بقيت في سجن المرة سنة
بعض الضباط الذين كانوا معي حكم عليهم سبع سنوات وخرجت إلى
مفرّ عملي مباشرة عدت إلى الخدمة. اتصلت بعقيد في دمشق اشق
لاحقاً بطائرته وذهب إلى عمان كنت مع مجموعة من الضباط، أنست
عرفة عميات وبدأنا تحرير دير الزور. كنا نركب ثلاث سفن ونعبر نهر
انمرت نقل الذخيرة، وبخندق حواجز الجيش. جرى هذا في الشهر
السابع لقد عدتوني في السجن كثيراً، لكنني لم أعترف علنوني
وشحوني أربعة أيام. عدتوني بالكهرباء». يصحك. وجهه الضعيف
أقرب إلى وحوه الكتاب والفتانين. يتابع: «لو اعترفت لقيت في
النحر كنت أعرف أن كل اهتمام المحاربات بي كان من أجل عودته
انطأه حشقة في الأردن إلى سورية حذعنهم، بعد أن طنوا أنني
سأفوء بالحدث مع لطيار المشق، وإقاعه بالعودة. حنت إلى كهريل
وبدأنا نعمل بتحرير الحواجر. هل تظنين أن الدين حوروا هذه القرى
هم هؤلاء العرباء المنظرهم؟ نحن حررناها، ثم جاؤوا إليها. حررنا
دماء أولاد. ودماء. وعندما طلبوا نحة في جيش دهسا إليهم بعد
أن حررنا كهريل. لكنهم قصموا جيش بطائرتهم الأسدية»

النشأ يتبعون شعبهم على الكمبيوترات. المكاتب الإعلامية
كانت مركزاً لجميع أنواع النشاطات، بدخل مقاتل، يقول لـ «أبو
المجدد»، أنه يجب وداع النشأ النذاهير إلى خط الحبهة، فيقول له

«أبو المجدد» : «إحك للسيدة عن المشفقين في الكنية». فبسطر إليه الشاب مستعزباً. يقول له «الأحب علوية». أدهش، وأقول بعصب «لم قلت ذلك؟» يجيب بحماسة: «كي يعرف الشباب أننا شعب واحد». وأباً أمتعص أكثر! يدير أحد الشباب رأسه، ويقول هارثاً: «لسا شعباً واحداً، ووجود السيدة لا يعني شيئاً!» فقول الشاب الذي رمى الجبوس وطلب من «أبو المجدد» المعادرة: «كان معي منشقون من كل لقوائم، دروزاً ومسيحيين وعلويين . وما زال بعضهم معي، لكن لدينا مشاكل . يعني هناك خوف عند البعض منهم». يقاطعه «أبو المجدد» «حبة التصرة تريد خلافة إسلامية، وهذا مستحيل في سورية، صعب جداً... هي ثورة السوريتين جميعاً» يوجه حديثه إليّ، وكان قد نهض، والشباب قاموا لتوديعه: «نحن وحدنا، والعالم نحن عا، وحرب الله يقاتل مع الأسد صدينا، لا نستطيع ضمان ما سيحصل» فتح المقاتل الباب، فهتت نسمة باردة. «إلى أين أنت ذاهب أسأله» يجيب المقاتل الذي اختفى نصفه وراء الباب، ثم عاد وأسلم إليّ: «نحن ذاهبون لتحرير حاحز فيه أحد عشر عسكرياً ودانة» يهرج «أبو المجدد» معه يودعي من دون مصافحة يضع يده على صدره، ويقول: «لنلقي قريباً إذا عشت بإذن الله»، وأنا أقف مذهولة بقول له الشاب «السلامة... الله يحميكم».

بندع رائد بعد خروجهما: «أبو المجدد من خيرة الضباط، لكن ليس كل الضباط مثله. لقد جاء الضباط بفساد مؤسستهم العسكرية إلى هنا والكاتب هنا ليست كلها عسكرية، هناك مدنيون، العسكر أكثر انضباطاً، ولكن ليسوا بالضرورة شرفاء، والمديون أيضاً. لدينا أربعة أئوبة وثلاثون كتيبة وعشرة صناط كبار، منهم من حاول إعادة سيرة جيش الأسد هنا، ثم سمح له على الأقل حتى الآن. الكتيبة الأمية

أيضاً جزء منها كان سابقاً لحهار الأمن في الدولة، قبل أن ينشأ،
وندى مجلس عسكري للثورة، نحاول تنظيم أمننا، لكن الناس غير
راضية لأنها لم تعد تثق بأحد، وصربا موضع تساؤل».

سهي رائد حديثه. أحمد، رشام «كفرنبل» يستأذن، يقول إنه داهي
نرؤية خطيته، وتعلو الصيحات، أن وهران انتظروا لتحدث عن مشروع
مدارس الأهل كنت حسداك أمل بأن يكمل الثورة بأدوات رعم كز
الضعف

في تلك الليلة، كما عثدين من «عين لارور»، فلتقيا مجموعة من
المقاتلين، معهم معن وابن عنه مصطفى. القرية تعرضت للقصف،
وحس في صياقته كنت قرية «يلون» تقصف بجوارهم. لذلك، كنت
أكثر هدوء، ومن المفترض أن تتفق على المشاريع الخاصة بالنساء في
نذات الأوقات من نشاط سنة ٢٠١٣، كنت أصعب الحطط الأولى لحالة
الزيف في «إدب». لأنه كان صعب الاحتراق، ليس بسبب أوصاع
النساء منه. ولكن بسبب وضع الزيف الثوري بعامة، وكان قد تعرض
سدهور حطر في العقود الأخيرة، ليس على المستوى الاقتصادي
محسب، ولكن على مستوى الاجتماعي والثقافي أيضا والنساء أول
من دفع الثمن في الحرب هذه. ومع دخول الكتاب العسكرية المتطرفة
العربية عن سنة المجتمع الثوري، ومحاولتها فرض ثقافة حياتية مخنفة،
بذات الأمور نحظر كنت مع مصطفى المحامي والتأشط الذي لم يترك
فرصة. وهي تبقو شذات إعائبة وتسمية وإعلامية، فكرت معه كيف
يمكن إيجاد نور مجتمع مدني قائمة بحذ داتها على التسمية الاقتصادية
والثقافة. بحث بحول كل مركز إلى مؤسسة تدبر نفسها. قال مصطفى
أنا نستطيع ما لم يتوقف نصف لنظم على المناطق التي تحررت. لقد
خرج الأسد من الأرض، وهو يعود من السماء»

كان المقاتلون في غرفة صغيرة، داخل بيت مؤلف من غرفتين
مفصلتين مع قائد الكتيبة الذي حصر ومعه عشرة من المقاتلين،
اثنا منهم من السويداء، كانوا يحاولون المباشرة بأن معهم مقاتلين
درورًا أو علويين. قال المقاتل الدرزي، أنه لا يريد أن يقتل أحدًا،
لكنه صابط وانشق. ولم يعد بإمكانه سوى أن يكون إلى جانب الحق،
ولأمر نس كذلك هي كل الكتائب. كتائب قليلة تقبل بوحود مقاتلين
من أقباط ديسية بينها سخر أحد المقاتلين، قائلاً «وهل تقدموا
سقت معاً، وطردها هم؟ تركونا نحن أهل السنة لوحدها!». كان
عاصم، ورغم أن شاربيه لم يبتأ بعد، كان يصع رشاشه في حوضه.

قدمت روضة مصطفى لنا ضيافة الطعام ولم تجلس معاً، كنت
أصغر لأن أذهب لعصر الوقت لأجلس في غرفة النساء، ثم أعود إلى
غرفة الرجال العادات هنا لا تسمح بحلوس الرجال والنساء معاً
الزوجة كنت تدرس الحقوق، لكنها توفقت مع بدء المعارك. في
الزيارة القادمة ستكون حاملاً في شهرها الرابع ساعدتها في إعداد
الطعام، وانعمت معها على زيارات متكررة لنساء القرية. كانت
لأشجار قد أزهرت، وحرحت إلى الهضة التي تترجع عليها الغرفتان
نصيرتان السماء صافية، وأصوات الانفجارات بعيدة، ولا دخان في
أفق المقاتلون في الداخل يتحدثون عن الانقسامات بين الكتائب،
والى الحدب الآخر من الهضة، امرأة تهز سريرًا صغيرًا، لونه أزرق،
وعقبه معطاء سميك، وراءها حل حجري، فيه بضع أشجار زيتون.
في استمع بيوت حجرية تتوزع بين سائين الزيتون، لم تتعرض
صوت المقاتلين يعلو في ما بينهم معر بصفي إليهم،
ومصطفى يأتي لي بكأس من الشاي، ويقول: «ما أحلى بلاديا لا
عنقني سسيها من حديد»، ثم يصرف. لا أسس سنت شعة. أصاب

بالخرس أحيانًا يحدث في حالاتي العادية أن أبقى لأيام لا أكلم
أحدًا الآن لم أعد أستطيع تحريك لساني لحديث عن «جبهة
النصرة» أخذ منهم وقتًا طويلًا وعن «المناصرة لبيضاء»، وهي المركز
الإعلامي لـ «جبهة النصرة» الذي تشرع عرء عملياتها الانتحارية
والقتالية. كنت أصغي إليهم: «لا تظنوا أن هذه الشبكة المالية الهائلة،
وتجميع هؤلاء لمحاهدين يتم بطريقة عموية، من المستحيل أن يحدث
دُثٌّ وفقار، وعدم إمدادنا بأسلّاح لا يتم بطريقة عشوائية». يسرع
مع حديثه، ثم يصيف جملة الأخيرة: «لكننا لن نأس»

أسمعهم، من خلال حدران العرفة ورائي، ومن خلال النافذة
التي تندفق أصواتهم عرء. عندما يهمسون، وتنخفض أصواتهم أعرى
أن الحديث يدور حولي، لأنّ معنًا يصرخ بعدها: «ست سمر ناقصت
شيء؟» فأقول: «شكرًا»

عدت إلى عرفتهم، والحديث يدور عن تفاصيل نقل الوفود
والتمديدات الكهرتية للقوى التي تعرضت للقصف وانقطعت عه
الكهرباء ونماء أيضًا المدارس التي توقفت فيها الدراسة بعد القصف
بحولب إلى مفار عسكرية، وأحد المقاتلين كان يعترض على ذلك.
«أبو رجب» يطلب منهم إيجاد بديل من ذلك. بدأ المقاتلون يتدفقون
إلى بيت مصطفى، فيصرف آحرون لأنّ المكان لم يعد يتسع كاد
حديثهم قد وصل إلى المحبس الوطني والائتلاف والمعارضة السياسية
الرسمية، وكيف يتم شراء الأصوات فيها لمصلحة جهات التمويل.

حدثت في الراوية أستمع إليهم. كانوا شائنا من محتف
الأعمار تركوا كل شؤون حياتهم وتفرغوا للقبال والأعمال المدنية في
أشور. يحاونون إنداد المناطق المحررة من الخراب القادم. أعمارهم
مراوح بين التسعة عشرة والخمسين. منهم من حصل تعليمًا جامعيًا،

دائمًا أشعر بالحقة في لحظات القصص. خفة الفراغ الذي يجعلني أقف ثابتة في مكاني كتمثال، وأنا أرقب ظهر المحوز.

قرب الحدود، كثيرٌ من العجائز الذين يشبهون الرجل المحوز في عيّن لارور، كانوا يصطقون أمامي بانتظار فرصه ساحة للعبور. وأحاول تذكّر أشكال البالونات التي كانت تسقط قبل القذائف. لم أحفظ أنواع الصواريخ ولا القذائف.

سهل أحصر، ثنيه هضبة وأشجار كثيفة من الزيتون. الحروح عبر حدود هذه الحرة من بؤنة الغنم. كنت خائفة، لأن المسافة القصيرة لثني تلمسي للخروج هي لحظات الأشد كثافة بلشعور بالمنفى. محمد وعبد الله ينتظران معي بالسيارة دورية من الجنود الأتراك تقف بالممرصاد. والحدود بروحون ويحيثون ويرمون سظراتهم أفواج السوريين بلا مبالاة. بعض السوريين جلسوا تحت الأشجار يبطرون إلى النصف الثاني بعد الشباح. ومنهم من وقف أمام الجنود الأتراك، آخرون بروحون ويحيثون مع الدورية ويتحركون معها. سيارات من كل الأنسك ولأصواع، تصطف على حاسبي الطريق عند بؤنة العم محنلات كمنه حمت حبانها القليلة ووقفت تنتظر. على الحهتين، ساس الزيتون التي يحرج منها طنفة رصاص، بين حين وآخر. عبد الله المقاتل الذي أصيب بحرج دائم في رحله بتيحة إصابة في المعركة، والذي تعرّفت إليه في أحد المناسبات على الحدود للمرة الأولى، كان يصحك طوال الوقت. وهو بمكر مهمومًا في حطيته التي لا يريد لها ترميل بكر، يقول: «أنا أعيش مع الموت، رحلي أصيب، لكنني مفيد». ولا أريد الوقوف عن محاربة نثار الأسد، لكن لا أريد أن أصيب معه معي.

الأصعب بروحون من السيارات ويعرضون قذاحاب عمار، حمر،

نظرات شعبية، أطفال من مختلف الأعمار، من سن الخامسة وحتى الخامسة عشرة، يسعون عصيرًا باردًا، مشروبات عارته، قهوة، شاي وكثير من يحظر على كل يأتي الناس من الصباح وينظرون إلى مساء حتى يستطيعوا المرور، ويتم تهرسهم، منهم من لا يملك النقود يدفع نمهزين فيسطر قدوم الليل ويتسأل، وهذا أمر لا يعجب نمهزين، حتى لا تنقص رباحهم. لذلك، تحصل وشايت من قلبهم لأهالي الفقراء لهادرس في إحدى المرات، أعادوا رحلاً عجوزاً ربه، فما كان من العجوز، إلا أن بقي أمام المحط الفاصل بين السدين بسبب عذره، ومرص من شدة البرد. كان هارثاً من القصف بعد أن تهتم به، فنه إني مشفى تركي وهكذا استطاع الدحول

سوء لأحير في سورية. شاطئ المشمس. اليومان الماضيان كانا مبعس، من بسب لحولات في «جبل الزاوية» على بيوت النساء، وهربت لمستمز من القصف، بل بسب الذيلة التي سقطت هذا صباح

مهرب، على الجهة الأخرى، يتصل بمحمد ويحبره بأنه يتطري في أعين الهفصه المكشوفة على الحدود الأتراك «لم لا حنبي في سائر، سكوت الطريق طويلة»، أسأل يطمشي إلى أنهم لا يسمون سار إلا في نهواء قلت «أعرف، بكر العرب أنهم سمحون بكر هؤلاء مقدس بالبور إلى سورية».

هنا مجموعة من الأطفال الذين يمسكون بطرف عاءتي، ويحنون على أشراء، ثم يتقدم طفل منهم إلى المرأة التي تقف وراني ويحدثه - خفيفة نفسها - ينظر مثل طفل صغير معاناً لشركه وحده أدير رسي عنه، لأن مجرد فكرة الشراء منه، ستعني تدفق العشرات من لأحد ندر كدو كالعشب في كل مكان على طرفات القرى

المهجورة، والتي لا يتوقف فيها القصف. يسيرون المازوت والسريير.
على أطراف البيوت المقصوفة يبحثون عن شيء في النمار، وقرب
الكنايب العسكرية ينتظرون الالتحاق بالقتال. في بساتين الزيتون
يبتشرون الأرض. كل الأمكنة تعج بالأطفال. كأنهم فجأة تركوا
وحددهم ولم يكونوا يوماً أساء لأحد. هكذا هم... أبناء المصادفة.
ربما تأتي مصادفة مخنفة، وتقتنعهم من الأرض وتلقي بهم في عالم
أرحب من هذا!

ترك عبد الله في السيارة، وتقدمت مع محمد. تجاوزوا
الضموف وصرى بقف أمام الحدود الأتراك في الجهة الأخرى، حيث
يسئل الناس من الحسيات كفة. مؤخرًا، قالوا لنا أنهم رادوا المرافقة
على الهاربين من سورية بسبب عمليات التفجير على الحدود.

حمل حفيبتى لضعيرة على طهري. أكتفي بملابس قليلة.
المهزب برى الهصة، وأطل من بين أشجار الزيتون. يشير برأسه إلي
من بعد لأحدور الحدود شعرت بخوف شديد. ما إن أقترب من
الحصى حتى أرتجف. لم يعد بإمكان محمد التقدم السماء لا تزال
رعد... الشمس حادة، لكن لسعت من البرد تعشني بورا زادت من
عبء حمل الحفيدة على طهري. هدايا لابنتي ولي، وساء لعائلة
محمد من سلع من هدايا رعبت ثيابي على الطريق، واحتفظت
بهداياهم، ثم وضعت الحفيدة على ظهرى.

سعدت عن محمد. أخاف أن يموت في غيابي كباقي الشباب
سار كس ودعهم في كل مرة بقي واقفاً ينتظر المهزب التقطعي
مشرقه ونار التي بالاطلاق. كان حيدلاً كعود نصب. له من ذهبي
موي. سكتهم سرعى سقي، ما اضطررتي للركض وراءه. صرح
حمدتي مركزي، نحمدت، ولم أعد أقوى على الحركة وقف وأحمض

رأسه، وأشار إليّ لأتبعه. درنا حول الهصة، وبدأت أرى الهارس
 المنسجلين كانوا فقراء بالعالم، من الشباب والرجال، بينهم امرأة
 معصية بأعواد الكامل ركض المهر وأشار بيده لألحق به. ركضت،
 وصعدت التلّة وقعت قلت له «احمل عني الحقيبة رجاء»، نظر إليّ
 مدعي. ونه يحرّك من مكانه قلت «سأعطيك ما تريد من هود».

صرّ بنى الحدود، حينذاك نظرت معه. كان محمّد وعبد الله يطران
 س. وبدو مثل شحرتي حور بعيدتين. لو عرفنا بما فعله، لأشعاه
 صرّ أعرف ذلك تقدّم مني وحمل الحقيبة متدفراً وهو يلعب خطه.
 كسي نه أكن أقوى على الحركة. كانت جموع الهارس بدأت تملو
 الهصة، ووجدت نفسي وحدي، وسرعة ركضت ألم كاحلي كان لا
 يحمل أصيب نعظم برضة. تقدّمت وأنا أعرج. عند أعلى التلّة
 لعب يدي ملوحة، ثم انحدرت.

كنت نمت تركبا، ووراءها صارت سورية. «سأعود قريباً»، قلت

هود عبد

البوابة الثالثة

تموز - آب ٢٠١٣

أعود من حديد.

تدقق اللاحثون السوريون إلى صالة المطار. كانوا من الطبقة المتوسطة غالباً. الفقراء يبقون في المحيّمات على الحدود. عيون الأطلال تشبه حمرة تحمّع السوريين أين ما تحرّكوا، كأنهم نتف ممزّقة من أشلاء تتساقط على المطارات من السماء! يمكن أن تتكثّف الفكرة عبر مكر، ثم تتحوّل إليه، كأن نفترض أن عبور السوريين من خارج حريم الداخل، تختصره النقاط الحدودية في الجهات الأربع، وهي بوابات حريم مغلّقة من طبقة إلى أخرى. هنا في المطار، وحيث الشمال مفتوح على أنواع النجاة والموت بالذّرحة نفسها، كنت مواجّهة بوابة حريم صغيرة، أبعد من جديد إلى حريم الثّيه والشّتات والحرب. هنا، أستطيع سرّ حجم التعيرات في الشهور الماضية.

إلى اليمين في صالة الانتظار، جلس مقاتل أردني قربي. كان
صحفاً، لا يتحدث بصره عن حوالة. لحبته لا تتجاوز بضع شعيرات،
طويله ومصمكة، بدت كأنها ديدان رقيقة تخرج منها. كنت أنفخه
بوقدحه، عندما تواجد أربعة رجال وجلسوا إلى جانبه سمرة المسلحين
داكنة، وعيونهم مستديرة ومكتلة اكتشفت عندما جلس أحدهم قربي
في الطائرة أنه يمني. كان الأربعة يرتدون سرايات عسكرية، ويجوبون
فيها عر نهيس بالذهشة التي علت وحوه بعض المسافرين. وهم
يحذقون فيهم، ويضعون حقائب ضخمة على ظهورهم كنت للمرة
الأولى أشبه إلى أن وحوه هؤلاء المقاتلين صارت تشبه إلى حد ما
وحوه الشبيحة وأحسادهم. عضلات منقوطة وعيون مفتوحة بلا مبالاة،
كأن كل العيون عبر المكان ولا تراء، تماماً مثلما فعل الشبيحة عندما
أنهم في الشهور الأولى للثورة، كأنهم يفتلون المكان بالعدم
عدم بنعاليان الآن، عدمية استبدادية أسدية طالمة حاكمة، وعدمية
استبدادية دبت برى في الموت بحثاً للحياة، لكن عدمية الأولى هي أم
العدمية الثانية

المعداة التي حفت عني ثقل العدد الكبير من المقاتلين في مطار
المدك، كنت ظهور ميسرة وآلاء ورها أمام بوابة المطار. صار لي
معهم حكمة، لا أشبه حكايات لحن، لكنها تبدو حكاية داخل ندوة
مسحورة يحضرون مع الملاد، ثم يظهرون عندما أعود إلى البلاد
كثيرت انفسد خلال سنة آلاء لا تزال تمطرني بالقبيلات كلما التقينا
من حديد ورفص معدرة حصني، ثم تروي لي كيف هربت مع والدها
المدك، هل أن يستقروا في الريحانية، واجتاروا حقل لندرة كان
دنت في الضاح. وكان أحد المهرجين يحمل الأح الأصغر، وهم
محوصون في الحقل الموحد اثنتان بحيلتان، أمهما صامتة بالكاد

يسمع صوتها، وهي أيضًا، بحبله وهادئة، ولا يمارق الحزن عيبيها،
مذ أن اضطرت لترك بيتها في «سرايب»

حملوا القليل من الثياب، باتجاه الحدود، وركضوا في حقل
درة روت آلاء، وحن في طريق الذهاب إلى البيت بعد وصولي إلى
مضار أنطكية، حكاية عبورهم الحدود إلى تركيا، كيف شعرت بالخوف
وصرحت وهربت إلى حصن والدها. كانت قد تجاوزت الثامنة،
شعرها محدد ومشعث وتغطي أطرافها بألوان عدّة. الجدرمة اكتشفت
وجودهم، واضطروا للاختباء في الساقية، وحرخوا منها ملوثين بالوحل
والندارة، صاروا مثل عذائل طيبة. تخزي آلاء وتصحك، وهي تغمر
وحبي بكفها الصعرتين كما أصدقاء موت واحد منذ سنة وحن
بكر مغد، وعندما كما نحتي من القذائف تحت درج بيتهم، وسحشر
مع باقي النساء والأطفال في القبر، عرفت أننا سنصبح صديقتين.
كنت هديها مملوءة في حقيبتي، وغمرت لها عيبي أي أن هناك شيئًا
حسنًا بنظرها! ضحكت، ونابت حكاية هروبهم: «ثم ركضنا، تعلّسا
كثيرًا، وحن بركض، وحل، وصوت رصاص والمهرب يصيح فبنا
نعزل»

بقت آلاء وعذلتها في ساقية الوحل، بحقل الدرة الذي يفصل
الحدود حتى النيل، ثم مشوا بصمت وهدرن من دون أصوات كي لا
يسموا الأعداء إليهم لمقاتلون يدخلون في وضوح النهار هناك مافد
عده ليهرب أفراد عائنة آلاء منها، لكنهم فشلوا، واضطروا لانتظار
مرور مهربي الحشيش أمامهم. كنت هناك اثنتان من النساء تقومان
سهرت الحشيش في ثيابهما، وقيت العائنة بين الحقول وقب السباح
نشئت حتى منتصف الليل، لأن الجدرمة قصت على النساء وصارت
رأب لمطفة كنّها، كانت آلاء تروي، وكنت أمكر في اللحظات التي

صمتوا فيها جميعاً، ربما وبعد خشخشة أوراق المصباح، تسنت لهم
 التحفة، لكن آلاء أحررتي بأنها كانت ستختنق وهي تحبس أنفاسها،
 وتضع كفها على فمها كي لا تصرخ ثابة. تزيد رُها، أختها الكبيرة،
 «بعد ساعات من الانتظار جاء رجال من أطمه، كانوا يحملوننا بصعوبة
 عبر الساقية. مشوا في الماء والطين، وكنت أنظر إلى أقدامهم التي
 تتحرك ببطء في الطين، وأشعر بالخوف. كانوا خمسة رجال مهريين
 يسعدون أبي عني حمل. الساقية عميقة وخطرة ونحن نكتم صرخاتنا
 هم كانوا يمشون على الأصراف حتى لا يعرق في عمق الساقية، وكان
 النيل داحياً، نحمل حقائب صغيرة على ظهورنا، وأمي تبدو بعيدة عنا،
 تمشي ببطء وتعب. وقعا في الساقية، وتللتا بالطين والماء» حافت
 رُها على والده لأنه كان عاصباً من أختها التي صرخت وفضحتهم،
 لكن آلاء ومحققاً لم يشعر بالخوف، وتالا كذلك. هكذا همسوا بي
 وهم يتقدمون في حضني.

«الطريق كب حيدة». تضيف رُها ضاحكة: «نعم كانت رائعة،
 لقد مرت عني دابة من قُلْ مرّات عدّة ومهدته. كنت سعيداً. .
 الدابة مهدت لنا الطريق، واستطعنا الوصول إلى الطرف الثاني خارج
 سوربة» تهمس آلاء: «والله أما لسه خايقة».

آلاء صار نوبها أصغر وعيها أكثر حزناً. غابت من عينيها تلك
 نعمة ثقة، رها تدو أكثر من عمرها بسنوات.

بعد هذه العنة، غني التوجه إلى الحدود، والشباب الذين جاؤوا
 من اسرف، لملاوتي. كانوا لا ينظرون، عبد الله هاء، وأخوه المصباح
 هي عبه برصاصة، أسطر رؤيتهم مثل عائلة، في كل مرة أودعهم كما
 نواتها الثمرة الأحرة التي سألني بهم، ثم أعود كأنني سأعيش بينهم
 إلى الأبد

عبد الله وميسرة وعلي وشاب حديد، كنا مسجّاز الحدود معاً، ولكن هذه المرة وعنى غير العادة، قرّر الشاب أنّه بإمكاننا بحاور لحدود عبر معبر «أطمة» كما تفعل غالبية السوريّين الذين فقدوا هويّاتهم وبياناتهم بالفصص. كان هناك من ينظرنا أيضاً، تبدو الحدود بل «أطمة» مثل قطع من مسرح، كلّ واحدة مفصولة عن الأخرى، كي تستطيع العور من حاحز مخيم «أطمة» وبصير داخل الأراضي السوريّة، كد عبثا المرور بقطعة أشأها الأتراك لمع تسلّل اللاجئيين وهروبهم. نحزّ حسو، وينتظلب وصولنا إلى الغرفتين الضعيرتين التي يتكوّم فيها الموقضون أن نمشي سيرا على الأقدام، الشمس الحارقة والغبار، ونجسد الطويل الذي ارتديه والحجاب الذي يحمي معظم وجهي مع نظارة تسميكة، كلّ ذلك جعلني لا أتعرف إلى نفسي. طقوس الشكر هذه صرورية للمرور بسلام.

قرّر الشاب أن أعمر باسم إحدى أخواتهم. كانت فكرة عدم صعود الهضاب والركض تحت طبقات رصاص الجندرمة والأسلاك الشائكة جعل الشمس الحارقة أقلّ وطأة. وصلنا إلى حاجز عبور سوريّ، وندي سيعودنا إلى «أطمة»، كنا في منتصف تقوّر، وبدأت تظهر أفوح نساء وأطفالهنّ. السماء لا يعكّر صفوها شيء، حتى «عبود البصر» هناك امرأة لا تتجاوز العشرين، تحمل طفلاً رضيعاً، وتمسك امر بيدها، مظهر أمامها الظفل الذي تمسكه بيدها، كن يصع نظرة شمعية كبيرة رأسه أصلع، محروق بالكامل، وحلده محروق، يحترقه نوءات لحمية حمراء، تبدو كأمعاء مقطعة. وجهه سو مثل فدع بلاستيكي معقد وممزق. رقبة تتصل بعظام كتفه بحبوط حمة مئة. ربما لم ينحاور الثامنة، لكنه بدا مثل مومياء.

يبت عنينا هواء ساحر، والظفل يتحرك وراء أتمه وهي تمسكه

بيده. تتقدمها ساء عدة، ومن ورائهنّ بدا شاب مبتور الأطراف، لقدم اليمى واليد اليمى. كان يقفز مثل أرسب. من ورائه ظهر شابان، يقمران بالطريقة نفسها، كانا يتسابقان للوصول إلى مضخة الهىء الصغىر، المتاحة التى تُحشر فيها من الهواء لخائق. لا يمكن التفكير فى لحطات كهده، مع قبض الظهيرة، السماء الرّقاء الغامفة، وأفواح ابشر المنحهبين إلى جهات الأرض الأربع، الهارين من القصص، المقطوعي الأطراف، واسمهبزين وسماسرة الذّحول والخروح، تجار الحروب الضعارة، ودفعات المقدبين الجهاديين العرب والأحاب.

لا يمكن حتى تحديد الخطوة التى يجب اتّباعها لاحقاً، لأنّ سير برفقة حشد كبير. الرّأس يحتفى، يتحوّل الإنسان آلة. محرّد فكرة الخروح من عشرة أمتار إلى الأمتار التى تليها نجعل الحية سعيدة حتى الشّمول المنرامية على طرفي الطريق نصبر ثقيلة بأشجارها المنصرفة. هذا مكان يليق بموت الحنّان. أحذق في كلّ ما يمرّ أمامي من صور، بدهشة، كآتي أولد لتوّ. ولا أكتشف إلّا حقيقة واحدة الموت، قرّاً كبيراً مفتوحاً، فما لا يشع أبداً.

بعد اسهنا من تسجل أسماننا، جلست في السيّارة على المقعد الأمامي. انشأ حشروا بعضهم في المقعد الخلفي كانوا بصرون على معامسي كنحص مدّل، أو ربّما يتمسكون بفكرتي نفسها، كما لا راب مقعد آنا لا نلث إلا بعضاً، وعليها أن يحمي بعض بعضاً، من أجل افكره النّاسة التى حرحا لتحقيقها، فكرة الحرّية والكرامة أعرف أنّي بالنّسبة لهم فكرة، وهم كذلك على انصرف الآخر، كانوا يحشرون فكرتي عن سوربة عادلة، حرّة وديموقراطية. يبدو هذا الكلام كفص الرّيح، أمام التحوّلات العميقة التى هرات على لثورة. لكن، في تلك النّحطة، وهم يُحشرون تحت فيط الشّمس في مقعد صغىر.

ويحاولون جعلني أشعر بالراحة، ابتلعت شظايا حنجرتي، ورددت في نفسي حملتي الأثيرة: «الحزن غير مسموح بالمطلق»، ولوحت بيدي مودعة الشايب المبتوري الأطراف.

عند الله وميسرة ومحمد وعلي وأحمد وأشخاص كثير، كانت لهم علاقة عربية مع التخريبه يستخرون من كل شيء حتى من أنفسهم، وقد تعلمت هذا منهم. سحرية قاسية لادعة واستهزاء بالموت. علاقة تندر فيها الموصى والشحاعة، لكنها سبيلهم الوحيد لاستمرار المقاومة. إنهم يركنون الموت.

كان الشباب يعترضون في حواراتهم ونحو في الطريق، على أصحاب العمامة السود وعلى سلوك الكتائب الجهادية المنتظرة. سحرون من أصحاب المنظمات الإنسانية المتأقنين وورشات التدريب المستمرة بكثافة قرب الحدود. الخبراء والمتدربون والصحافيون يقومون بسحب ما يحدث، لكن، ماذا عن الشعب الذي يموت قتلاً وجوعاً وقصداً؟ يقول علي، أخو عبد الله، وهو مقاتل أصيب بعينه في إحدى معاركه، وكان يرفقنا في طريق العودة.

دعنا «أصحاء» غالبية سكانها، حسب رواية الشباب كانت من «حماء» يدخل مع أفواج من الشر العشردين الذين يحملون أغراضهم ويقفون تحت الشمس من جديد. كانت هناك قوات صغيرة بين الحميم، فوق صروف صخري ترابية تفوح منها الروائح القادرة، يحوم فوقها نذوب والنحشرات وأقيمت على عجل محال على حاشي الطريق، مثل سوق مضجرة، محال لبيع الطعام، تصليح أحذية، تعبئة غاز، مصباح كازر المحال محرد حيم حولها بعض الأحجار. المحيم بلا كهرباء بلا هناك مولد كهربائي صحم للمحيم لكنه لا يكفي، وحزان من كبير لا توحد أية خدمات. الحيم تنورع تحت الشمس، بظيفة من

لذا حل، وبعض الأختين ردعوا حولها الساعات. أشجار لريتون التي
صبت الخدم بينها كانت تشكل حماية.

تحوّنا في المخيم. فقر أسود أشلاء بشر ومزق ثياب. كان
هناك كثير من الأطفال الذي يدعون حدة نحت قسط الشمس ولتسوة
جميعهم محبّات، بعضهم يصنع لحمار. استقيت واحدة منهم
نددوني. لم يسمح لي روحها بالحديث معها، سألتها عن حقيقة تزويج
نمبات لضعيرات رجال كبار في السر، قالت أن هذا يحدث دائما
فكنت منها التحدث إلى إحدى الفتيات التي تم تزويجها، ثم طلبت
بعد شهر. ثم تزويجها بعد ذلك، وبقيت ثلاثة أشهر مع رجل أردني
يكبره بأربعين سنة كنت مصرّة على اللقاء بالفتاة التي أعطتني اسمها
إحدى شطوط، لكن زوج المرأة طردني من أمام خيمته.

بعد تمسير، وكان علينا انتظار الشباب الذين سرافقونا إلى
البلدة. نكتهم تأخروا، لأن البلدة تقصف بشكل عنيف، ولم
يخرجوا حتى هذا القصف الذي أودى بحياة أربعة من أهل البلدة
جانب مدرج وأربع أربعة براميل من جهات مختلفة. كنت أسمع
صوتهم يصرخون تحت شجرة ريتون ضخمة. صورة الشاب العشري
مصور في وند، والذي يقفز كأرن، ما زالت تسيطر على عقلي.
كنت قد سمعته وهو يصرخ إلى الفتيات، بطرة مكسورة. رحوته
مهمومة، كسرسي أيضا. تنادي صوت عبد الله الشجاع بصراخه،
وهو يصيح بعد أن أحبروه بالقصف الحاصل الآن. «والله شيء
عرب. كل صوت حولنا قصمت، ولم نقصف». صحك، وأشعب
نشدت نصف. «صدرة الميع تحتاج إلى سيجارة، حتى ننظر الموت
معها. برميل ماذا نحتاج... ههههه... كنا ندفن أصدقاءنا كأنهم
أنهم لا يعرفهم. نحلط عيب ملامح وجوههم العصب مهم يحرق

من قصص المبع، وبعد يومين يموت بقذيفة، يجب اختيار الميتة
الأصل.

نحني صحكته وتنشع عضلات وجهه، ويردف «مرة قصفتنا
المبع في منطقة الضاعة، قُتل ثلاثون شخصًا. كنت معهم ولم أقتل.
في كل مرة كنت أنحو. سنرى آخر الانتظار هذا». وأطلق ضحكة
عائية. وراء حيث نجلس، مقر عسكري لتنظيم «داعش». هذه المرة
كان وحوود هذا التنظيم واضحًا. لقد بدأ يظهر في الشمال منذ أشهر.
عندما انطلق إلى «سراقب»، كان الحاحز الوحيد الذي أوقفنا هو
حجر «داعش»، كان عاصره قاتمي البشرة، من موريتانيا والعراق.
حمسة مقاتلين يرتدون ثيابًا وعمامات سودًا. تفحصونا، وعندما قال
هم الشاب إلى أي فصل مقاتل يتبعون، سمحوا لهم بالمرور، لكن
على مصص. كيف يمكن هؤلاء الغرباء أن يحتلوا أرضًا؟ كنت أشعر
بعصب عارم ودائم وهم يوقعونا على الطريق ونضطرّ للتعريف بأنفسنا
وهم في بلادنا!

مررت بمحيم «فاح»، بين «أطمة» و«عقربات». الحدود كلها
محصنة للاحترس ونكسر الذواب التي يستخدمونها في عمليات
التهريب، وعلى معبر «باب الهوى» كانت تقيم كتائب «أحرار الشام»
والأكراد. ويظهر بعدها محيم «باب الهوى»، الأطلال المنتشرون
تحت ظل الشمس هم أكثر ما يلفت الانتباه، بحاضنة في سوق «باب
هوى» كان الأضلاع من يقوم بكل شيء في السوق. كتائب
«داروق» هي المسيطرة.

في «معرة مصرين»، وعلى امتداد نصف كيلومتر، تنتشر المحال،
ومساحات هائلة من القمامة المتراكمة. سيارات عسكرية، سيارات
«حبيب»، سيارات «الأمم دوفر» ضخمة. السيارات بلا أرقام كانت

الثورة قد حلفت سوقًا للاستثمار والربح لدى كثيرين، وقد عملوا فيها، وربما كان من مصلحتهم إبقاء هذه الحرب على حالها.

براميل و«بيدوناب» الكاز و«سمازوت» تتوزع على الطرقات، مشم يحدث في محبتهم «أطمة» الفرق أنها هنا كبيرة وضخمة، والذين يهيمون بالبيع هم الأطفال أوتصا حاجز «داعش» مرة أخرى، وطب الشباب لترام الحذر، فحس في شهر رمضان، ويحب ألا تكون هناك رائحة للسيحارة، لأنهم إن أمسكوا بنا مفطرين، فلا يعرف ما سيفعلون بنا، ربما تتعرض للحلدة، أو القتل. كان الشباب يقولون لمفتلي «داعش» أنتي أحت أحدهم، وأنتي معه من أجل تمريريه، وكنت لا أظن بينهم، لكن عصت بنحس في صدري في كل مرة يوقفوننا، يجعلني أعرق في بوه سعال، بعد كل حاجز لهم.

وحس على عتبت الوصول إلى «سراقب»، توقفت سيارة إسعاف إلى جانبنا، كان فيها حرجى القصف وحالهم خطيرة، قال لنا الشاب في السيارة أن «سراقب» تتعرض للقصف، وعليها ألا يدخلها الآن، ثم رمحت سيارتهم بسرعة.

إلى البمين، يعتد حفل عتاد شمس، يمتد على مد النظر، وكل فرس أصغر بوه بحمد الشمس ننحدر أيضًا وسحابة غبار أمامنا وأصوات سيارة الإسعاف وصرخ الجرحى. وبرز فجأة صوب حرار أني، من وسط حفل القمع على الطرف الآخر من الطريق. الرجل الذي بحرت أرضه هوو الحرار، كان غير مبال بدوي الاسحارات، وقام بتجميع عتاد القمع، وحرقتها على طرف الطريق. قال أحد الشباب: «سندهب إلى مكان لقصف، هل نذهبين أم تعودين إلى البيت؟» «أذهب معكم»، قلت. واتجهنا إلى «سراقب» حيث كان شعارا وأسيران بانتظار.

صاح اليوم التالي، خرجت إلى الباحة مباشرة لم أصغ إلى ما
دانه نورا إصرارهم على البقاء في الغرف المعلقة، بعيداً من باحة
نذار المنعته إليّ، وجدته مبالعاً فيه، إذ يمكس ويحس حاله في
الباحة أن يركض مباشرة إلى الدّاحل نصيح نورا من العرفة إذا
نفت في الباحة بتصييك شظايا القذائف.

صرق الساب، ودخلت امرأة نازحة، تقوم نورا وعدتتها
مساعدتها، ثم توخّعت إلى الباحة مباشرة. نورا تشعر باضطراب،
عند بدخل أيّ غريب ويراسي، ويسأل عني، تريد الحفاظ على
وحدتي بعيداً من الثروة، حرصاً على سلامتي. ركضت وخرجت مع
محد فهورها إلى الباحة، وقفت بيني وبين النّازحة. جهاز اللاسلكي
في يد «أبو إبراهيم» داخل غرفة لمجوزين، يقول إنّ الضربة كانت منذ
سبع على قرية «سرمين». كان واصحاً أن الطائرات لا تقصف المناطق
بشكل عشوائي، وأنّ هناك خطة لتدمير الزيف الشّمائي بشكل منظم،
من منظور فقط، ولكن بواسطة الكتائب المتطرفة. قبل ثلاثة أشهر
كنت هنا، ولم يكن لها وجود كبير مثل الآن، يبدو أن محتملاً بأكمله
سعرها ويعاد تشكيله من جديد.

أحد الحروب، لأن مواعيدي مع النساء بخصوص المشاريع
ضخمة يجب أن تنقضي قبل دهاسي إلى «كهوسل»، مبصرة يرفض
حروحي مع عنوش وحدا من دون الشباب المسلّحين. قال: «لمرتقة
كثير عدد من الثّوار، وأنت غنيمة لهم للخطف». ثم ارتجت الأرض
وسد، وسعت سحابة من الغار في آخر الحقي. لقد سقطت قديمة.
سُفرت في مكابي، نورا صرخت بي لأدخل بسرعة، ولحقها كاتمة
مصعبيّ. مَرّت ثابّة واحدة فقط، لم يسمع فيها أيّ صوت لظفيرة،
وحده لاسلكي لم يحرم هذا يعني أن القصف مدعي من الأرض

أمام الباب، كانت الشمس ترتفع، والأطفال تركوا ألعابهم بعد أن هدا القصف، وما زلوا يراقبون السماء، في الحديقة الصغيرة للمزل، حيث زرعت نورا عاب صعيرة، كان نبات السرخس قد مثلا بالعبار رجح الذفة تاتر فوqe. مسحت الغبار عنه، ثم بقليل من الماء، بظمت البنة الطليلة، واختفت رائحة العبار والذخا. لا بد من أن صر حجارة حتى نتاع العيش وسط جنون القتل هذا. جاء «أبو إرهيم»، قمت «لم سمع صوت القذيفة كالعادة؟». قال: «الله الحامي» الله الحامي، حمار الأسلكي يسموه، القضة، هو عبدة عن حمار له مركز ب حوالى ٨٠ كيلومترا. الأهالي يستخدمونه لتحديد مواقع الطائرات بالاستماعة بالمقاتلين والكتائب وللأقصاب في ما يسهم. لكنه لم يكن متوافرا إلا بقلّة من الناس، يقول «أبو إرهيم» أن بإمكانى الحروح لأته لا أثر لطائرات في السماء، «أنا لقذائف معها عند ريك». ويشير إلى السماء

ساء المرول ستعدن نشاطهنّ اليومى لتأمين وجبة اليوم، وخلال دقائق نحسب آثار الحديث عن القصف، ويعود الحديث عن أنواع الحصار والنحوم المواترة في الأسواق. وما إذا كان الخبز سيورّع، اليوم أم عدا؟ ومتى يمكن تأمين الماروت من أجل مولد الكهرباء. وآبات النقيين في غسل الثياب، بسبب ندرة الماء. وكم ستصمد العائلة على هذه النحوم. حيث ستنتهي مراردها مع توقّف المواسم الزراعيّة؟ والمعجرات الفئان تحناجان إلى رعاية دائمة تتكفل بها عبوش العظيمة

محمد بنطارى، يقف على مدخل الباب لنذهب إلى منتهى وملففى النساء. كنت منحنى لرؤيتهنّ، ومعرفة إلى أين وصلت مشاريعهنّ، وكيف سقوم بتطويرها. عاليتة مشاريعنا تعتمد على الاقتصاد المرنّ نيحة سطوة التقاليد والعادات ولأن الحرب مستمرة،

والموصى ولحطف أيضا نلتزم النسوة موتهن، بحاصة أهن أر من
سقطهن

في نظرين إلى بيت مسهي، كانت مجموعات من العائلات يسير
نحو الأرض المزروعة المحيطة بـ «سراقب»، هربا من القصف، رغم
موجودات عدة سقطت فيها، لكن احتمال الموت هناك أقل

بيت منتهى وسط البلدة، سقطت قرية قديمته، وفشتت إحداهما
مع غيره اليوم كان است مكتظا بالنساء. حوالي خمس عشرة
مرأة، بصفتن زوجات شهداء، وطبيه أساء، وصيدلانية منتهى لا
كن ولا من من تحركه والعمل، أبوها صاحب جمعية خيرية قبل
سنة. ثم تتزوج صارت تهتم بشؤون الناس وتقدم لهم أنواع
مساعدات كدفه، وهي التي كانت تساعدني مع النساء وصعبا خطة
مضاعف كن امرأة في المجال، الأعمال تتعلق بالضوء والحياة
سبع، ومعمل صغير للطعام والحلويات، ستياء «بيت المونة» كانت
تعمل فيه سبع نساء مع ستهن ويقمن بإعالة أنفسهن. النساء صغيرات
في العمر، من سحور أي منهن الثامنة والعشرين، وكل واحد لديها
أربعة خمسة أولاد أورا حهن قتلوا في المعارك. إحداهن كان لديها
سبعة أولاد، وروحها قبل في القصف، وهو بسعف الحرحي، كان
عيب أن يروها بعد قليل، لكن القصف بدأ.

نصر محمد عمر الهادي الأرضي، وقال أن بيت منتهى هو منطقة
عمر كبر لأنه ومنه نسبة وهو المكاد الأكثر استهدافا، ويجب تأجيل
عمر سوء لكن القصف لن يتوقف، وهذا يعني أننا لن نستطيع
محو. سوف نهي ما ندي وأنصل بك، أحترته محمد شريك عمل
نابز، لكنه في قرارة نفسه، كان غاصا أيضا، وهو ما يجعله في
حالة نفسية

إحدى النساء أخبرتني بأن أطفالها لا يتعلمون، وقد حازو به
مجاهد سعودي يقوم بتحفظهم القرآن، وهي لم تفهم ما يحصل.

جلست مع النساء واحدة واحدة في العالب عرفت مهن أن
مصدر عيشهن الأساسي كان من «جمعية الإحسان» التابعة لكنائس
«أحرار الشام» التي كنت تقدم رواتب لزوجات الشهداء، وكانت تمك
مشقى وقرناً. بدأت حركة «أحرار الشام» تفتح مؤسساتها الاقتصادية.
عالية أمرادها من أباء لبلدة، ويقال أنهم فرضوا الحمار على النساء.
وأرادوا إقامة خلافة إسلامية، والإتيان بعلماء لذين لتعيينهم مستشارين
وزراء لولادة الأمة الإسلامية القادمة. النساء أجمعن على أنه لولا
هذه الجمعية لما استطعن العيش، بذلك كن يقمن بكل ما يطلب مهن
للحفاظ على الراتب، إحداهن كان زوجها مقاتلاً في حركة «أحرار
الشام»، وكان يتقاضى مئتي دولار شهرياً.

كان الولاء هنا يقوم من خلال الشعيّة لرأس المال ولجهات
الإعانة أيضاً، لكن حركة «أحرار الشام» كانت قد استولت على بيت
في الرقة، قبل أن يهدرها وتركها لـ «دعش». حركة «أحرار الشام»
هنا هي ريف إدلب قوية، وتتعلق في التسبيح الاجتماعي الهيئة
الشرعية كانت القوة القضاية التي تتبع ألوية عسكرية إسلامية عتة.
وعندما سألتهن عن الجامع هنا، قلن أن خطيب الجامع رجل «ردي»
قدم مع أبو قدامة من «جبهة النصرة». «داعش»، و«جبهة النصرة» كان
انتشارهما على الحدود حيداك، لاحقاً سيسيطران على «سراقب»
وسندح لحرب بينهما، وبين «أحرار الشام» و«الجيش الحر» تنهي
محاربتها من «سراقب» وسيطرة «أحرار الشام» لبعض الوقت.

كان انغصاف محباً وكرماً، واستطعنا إيجار العمل مع النساء
خلال صبح ساعدت، ويحب أن أذهب الآن لأستريح قبل متابعة

ريارات بيوت النساء لمعاينة المشاريع. أصوات القذائف ليست بعيدة،
ومحمد، ملاكي الحارس، يتطري

أمام بيت منتهى مخزن صغير. وطفل وجهه مشوه. إلى جانبه
صطف عشرات الأطفال، بعيون مفتوحة يراقبون الغريبة، التي هي
أبداً لم تحزن الذي تقف وسطه سيدة شبه عباء، فكان مارغ إلا
من بعض أصابع الشوكولا الرديء الصنع ورقائق البطاطا وبعض
سكوت، إلى اليسار طفلة تجلس على كرسي عندما خفضت عيني
وفع نظري على وجهها طفلة في حوالى الساعة، مبتورة الرجلين
وبدس! كذا هذه الأرض محمولة من العظام واللحم البشري. وقفت
برهة، أنظر إليها سلاهة. كانت مجرد لحظات، ارتع رأسي،
وعندت أسي سأسقط، لكن الارتجاج كان في السماء وركض
لأطفال إلى الداخل، وصرح محمد بي لأدخل السيارة.

المحور في رأسي تكسر، يتصاعد منها سمل يدب حتى أسفل
عمودي الفقري الناس هنا يعيشون مع الموت. ليست مجاراً، هذه
نساء لا يفكرون في أمور عظيمة، وليس لديهم فضول لقراءة الواقع
عسكري أو المشهد السياسي لا محال عندهم للتفكير. يصارعون
سواء فهدا يهفون تصاصيل من نوع آخر، هل توافر لظحين لصنع
بحر؟ هل سوف 'عهود' أم مستعص على ناشاي فقط؟ وهل يتوفر
شرب حتى؟ ولشكر؟ هل الماء متوافر بما يكفي لغسل لوجه صباحاً؟
هل وجهه وحدة تكفي لتفسيما على بطون عذة؟ هل سيصلون إلى
نوبة أعمارهم؟

كنا في شهر رمضان، وسيتولون إظهارهم، قبل أن يُقطع رأس
حم من نعمة، أو يصطر لأب نتم أشلاء أطماله بعد القذائف
وسر من الأهم من هذا كله، أنه وبعد سبيل ونصف من العلاقة

تنظران إلينا برعب، يقول صوت المقاتل من اللاسلكي «عم شوف
الظبارة عم تطير فوق ارتفاع ٦ كم، ما رح نقدر سزلها»، وسمع
أصوات المدفع الرشاش الذي يحاول صد هجومها عن «سراقب»،
الضربات تتعالى من اللاسلكي، التمييز بين صوت طائرة «الميع»
وصوت طائرة المروحية الآن صعب إلا بعد سقوط القذيفة صوت
انفجار قوي. يقول اللاسلكي: «الله أكبر. انفجر الرمحل في السماء.
الله أكبر الله أكبر».

الموت الذي ذهب يستحق الاحتفاء قليلاً نعاود الحركة. الرجال
يخرجون إلى الشارع. والنساء يعاودن إعداد الطعام، وأنا ألحق بعيوش
إلى ناحية المنزل لنعاين السماء.

هذا يوم لن أنساه ما عشت! العشرون من تموز سنة ٢٠١٣.

كيف أنسى ولوح اللامعنى ووضوح الهريمة على أبواب العدم!

كنا في المكتب الإعلامي المكوّن من قسمين، قسم للموّد والمعدّات الكهربائيّة وتوليدها، وقسم أجهزة «الإنترنت» والإرسال، وهو القسم الذي بقيت فيه، لأنّ المقاتلين لا يدخلونه. القسم الذي يتحوّل إلى مضافة واستقبال الصحفيين والإعلاميين ويؤدّي خدمته التقنيّة لكلّ من يطلب استخدام «النت». كان الناشطون قد اشأوا في بلدات وقرى عدّة مراكز إعلاميّة ينقلون خلالها للعالم الخارجي ما يحدث على أرض الواقع.

كنت أرسل بعض «الإيميلات»، وأدوّن بعض الملاحظات الحاضّة بالخقّة التي سأعتمدها لمشاريع النساء. أمامي أوراق عدّة تشرح تفاصيل حالة كلّ امرأة ووضعها. كلّ شيء بدأ صعباً في لحظة. أصرت أنني فقدت قوّتي، وأنا أحاول الخروج من الغرفة إلى الحمام لعل

وحبي كنت أشعر بأنني محرّد حالمة. قصفت طيران لأسد لا سوف يجعلنا نركض دائمًا، مثل حيوانات سريّة، ومؤخرًا ظهرت حصّة في المجموعات الجهاديّة التي صارت تتدخّل في الحبة شخصيّة للناس وتفرص سلوكًا حديدًا.

في القسم الثاني من المكتب، الرجال يتحرّكون، ووجود امرأة بهم يبدو غريبًا. قلت: سأنتظر الذهاب إلى بيت المرأة الأولى مثل حبيّة محلّ كنوا يتحرّكون بين العرف، عاليّتهم شباب لم يتجاوز ثلاثين. أحدهم يقوم بالإشراف على محنة تطيع للأطفال، أريتون وربوبه، وآخر يقوم بالتصوير من أجل الصفحة الخاصّة بتسبيقة اسراف، على شبكة «الت»، وآخر يقوم بترييل شرائط الفيديو المصوّرة على شبكة، لإرسالها إلى وسائل الإعلام. يدخل بعض المقاتلين، حب، من كتبه شهداء «اسراف» التي يعدّ مقرّها حوالي المئتي متر من المكتب محلّ الآن في شهر رمضان، هذا يعني أننا سنحاول بعدة حتى إذا المعرب بالتوقيت المحليّ لـ «اسراف».

دوى صوت الصغار قويّ، تلتها أصوات الصغارات عدّة، وسقط ربح سوفد حرج الجميع كانت قصة عقوديّة، وسقطت على حائط مكب في غرفة المحاوره لي الشاك صار محرّد فتحة في الحائط، ونسب نساء والأرض صرح الشباب بأن يحرج، لكنّ شاك قال أن صرة لا نرا نحن، وأنا قصفت بالقبائل العقوديّة، ولبراميل المتفخّرة. - سوعب بداية ما حصل لا يستطيع التروّل إلى الملحق، القبائل عقوديّة. نترك كواب صغيرة على الأرض، تسبح بدورها «مارتن سودا نصحاقي انوندي، مع، وصحافي إكليري سييت اسمه، واثان من نصحاقي انونديس مارتن رول فوز إلى الشارع، وبدأ بصور سم. نعلمت الأوراق في الحقيبة، وصرحت «سأذهب معكم».

ركبت السيارة. تحاشينا المرور في بعض الأثرة حتى لا تصعربا
كرات القنابل العقودية.

الصاروخ الذي سقط تحت المكتب، أحرق لأرض وما حوينا.
ليوت التي دمرت بإسراميل الثلاثة التي سقطت تبعا، سويت
بالأرض، الشباب ينتشون الحرحى. سم يبق أي أثر مجرد حذر،
والحش المتشلة، لوها كلون الحجارة والثراب. كله يسوي دور
واحد كست أصور، عندما صرخ شات: «أذهبوا إلى المشفى هناك
حاجة نيك»، انظننا، وسقطت قبلة عقودية في الشارع المقدس،
واشتعل الحريق. كنا نحاول الاستدارة بعيدا من مكان القصف، نكر
الأسكي بيد محمد فـ أن المشفى تعرض لقصف بالقنابل العقودية،
وهناك صاروخ سقط في البيت المجاور انطلقنا بسرعة إلى المشفى،
الشوارع حالية إلا من بعض المضطرين للشغل، وهناك بعض
لمجموعات من أفراد العائلات الذين يركضون للخروج من «سراقا»
وأصوات الطير لا تزال في السماء. قلت للشباب: «أشعر بأننا مثل
فرد في مصدة وشار الأسد يتلى بقتلنا». صمت الشباب، لكن قد
فعلا أدق بوصف خطر لي. وطائرات نظامه وصواريخه تقوم بمهاجمة
هذه ندية» نشمى على طرف البلدة، وقريب من الأوتستراد، م
بعمه تعرض لقصف دنة

في شفى، وحدث مجموعة من الرجال كانت وجوههم مغطاة،
وأحدهم يحمل منها نكنا وكريسيه مليء بالدماء. أساس مدحجون
وبحرجون، بعضهم بعضهم - لأحر حالة من الذهول ونحوف، خرج
نقبت صديق شاب، وأدخلنا إلى غرفة محاوردة. كان عاصبا، هو
الثنان من عمره ومن «سراقا» هو «غرب الأطاء»، الناس يصرخ
في الخارج، ماذا أفعل؟ لا نوجد أدوية كفاية. والناس نحول

ولاهني عاصبول. ما الذي سأفعله؟. طرق الباب رحل وصرح ليأتي الطبيب كان هناك شاب حرج. أدخلوه إحدى الغرف. هناك بمصر في الدوة والمعدات، والكهرباء والماء، وكل شيء. بصرح شاب. دحر إلى إحدى الغرف الحايية، فيها سريران، وضعت عليهما جثتان لايرئيين أقتربت منهما. قال ممرض. «قُسم اليوم بتفجير اليراميل». سته «هل بمكسي أن أراهما؟»، أجاب مستعرباً «طبعاً»، اقتربت، ورفعت نعشه عن وجه الأولى. كانت سيدة في الأربعين تقريباً، تدو كني دئمة ولا بدعاء التي لطخت وجهها أعدت العطاء، ثم نظرت من سيدة. وحسنت على طرف سرير الثاني كانت إلى حايي جثة امرأة أخرى، أصوت الضائرات تملأ لسماء، صرح بي شات «ماذا بمصر هذا؟». انتهت إلى أنني أحلس بين حثيين، وإحداهما ألصق بها فمت بهدوء أن نمت أن ثاني هو فقط لأنني أعيش في فقاعة دعي

نعمت به إلى غرف الموتى الآخرين والجرحى. كان الطبيب لا «ما أقدم الناس؟» لا يوحد شيء لأقدمه لهم هم مذكور للموت. يا الله... يا الله!

كان أمه رب نضمي رحل يحمل حثة اسم وهو يقول «الحمد لله حمد لله ... يا الله ...» لشاحنة البيضاء أمام الباب جرحي نضمي قريب منها، بينما البيت المحاور يحترق. بشر بدفعون أمه نضمي وصراخ وهياج في صندوق الشاحنة ثلاث حثت ثم وصلها. نحثت مدفوعة بأعطية سرير مثقوبة ومهترنة عفر. هم من يموتون أولاً فدما المرأة وصحتان يحصر عنهما شرف رحل مسقة أيضاً شعر لولد العنني يظهر مع تقع كسرة من شدة. ونقبت لصغيرة تدو في أعوامها الأولى هؤلاء سقط

عليهم برميل، رغم أن بيتهم ليس في وسط المدينة، والرميل الصخر في السماء قبل سقوطه. قتلهم الشظايا المتطايرة منه. كان طرف الشاحنة الصغيرة، ممتلئًا بالدماء. الرّجل الجالس إلى جانب الرّصيف يصرخ إلى باب المشفى. يحدث في الفراغ. دائمًا يتكرر المشهد. رجال جالسون إلى جانب لدمار أو إلى جانب حشث عائلاتهم. ينظرون في فراغ اقتربت من الشاحنة أكثر: «الله يرحمهم». نظر إليّ وقال «الله يسلمك». وعاد إلى صمته. انتعدت عن الشاحنة، ثم حمل الشّاب الحشث الثلاث إلى المشفى. حيداك، بانث ضفيرة الضفيرة وبار وجهها. ربما لم تتجاوز الرابعة. تنتعل حذاء بلاستيكيًا، ولا أثر للأصابع في إحدى القدمين. محرّد شرايين ظاهرة ودماء عريرة. لحقت بالشّباب ورفع الغطاء وأدخلت القدم المبتورة فيه. أصابعي تصرّح بالدماء.

«سقط الرّميل السادس...» يقول شاب، ونحن ننظر إلى كتنة العنار المقامة. الطائرة نفسها تلقي بالرميل السابع فوق وسط البلدة. ثم نحوم وتلقي برميليًا آخر. الرّؤية تحتفي.

«ها الحبيب»، أصرح، وأدور حول نفسي لا أرى سوى الغار طير حاذ بمرق أدبي يقول محمّد غاصبًا. «سعود بك إلى البيت، هنا خطر عليك» «لكن البيت معرض للقصف»، أحيب بعد التوقف عن الدوران حول نفسي.

يذهب جميعًا في السيّارة «الله يرحم أيتام طيران المبيع، وأيتام قصف انكماروي. كان قصفنا بالكيماوي أرحم من البراميل التي تنفّر كلّ شيء. لا مجال لنجاة معها». يقول الطبيب. المقاتل الذي جنس صدمًا طوال الوقت. واحشر في المقعد الخلفي مع الشّباب، يتابع «ندهم بفتحوا مصر من هون للوصول إلى معمل القرميد. القصف

مستمز وعنيف لمدة أسبوع، لارم نطلعي من هون يا مدام!». لم أرد بحرف، ولم أناقشهم. وعندما توقفت السيارة أمام بيت «أبو إبراهيم»، كان عضي عارماً. قلت لهم: «متى سنعودون؟»، قالوا «حلياً شوف شو بدنا نعمل مشان الجرحى وحوذك يربكنا. ابقى هيا. سسواصل بعك على لاسلكي أبو إبراهيم».

كان يتصح لي يوماً بعد يوم أنه من المستحيل التفكير بالعش هيا كما حلمت وقررت. لم أتعلم المرسية، لأنني كنت قررت العودة والاستقرار في الشمال. كانت باريس حتى تلك الأيام مجرد محطة مرور

بقيت مع نورا وغيوش والعجائز. كانوا لا يزالون في مكانهم، ونورا في حالة هلع. ويقوا جالسين. التزول إلى المدج لا يعني شيئاً العحوزان صامتان كالعادة، ونورا واقفة تبتهل إلى الله، وأنا وغيوش نظر كل منا إلى وجه الأخرى. دخلت إلى المطبخ وأعددت فجاجاً من القهوة، ثم دخل ميسرة وصرخ بنا: «هيا. . هيا. . سنخرج من سراقب!».

جعلونا نعادر مع النساء خارج «سراقب» إلى جامع أقامه «أبو إبراهيم» في «المشرفية». كنت غاضبة لأنني لم ألق معهم. المشاهد تنكرر، وفي كل مرة يبدو كأنها تحدث للمرة الأولى، المواجهة مع الموت، ومع العجر أيضاً، إذ إن المقاومة هنا تتحلّى بالوقوف والتخرج على الموت، ومن ثم متابعة أخباره. ماذا سيفعل المدنيون العز تحت قصف المدفعية والضواريخ وانفجار البراميل. لا يكون أية وسيلة للدفاع عن النفس. سلاح لمقابلين ضعيف، والذين يموتون في غالبيتهم من المدنيين.

في طريق نروحن الموقت، كانت جموع من العائلات لا سر
تخرج من «سراقب». نسمع باللاسلكي أنَّ أحد المقتلين استنصر
تفكيك القصة العقودية التي سقطت، ولم تنفجر في أحد البيوت، وإلى
الحاجب الأيمن كانت بيوت عدة قد سقطت البراميل فوقها.

أمامنا على «الأوتوستراد»، وهي المنطقة التي تتعرض لقصف
شديد، مكتب للتبائرات مدق. يصرخ صوت من اللاسلكي: «وير
الاطء! بدأ أضواء جراحين، لدينا الكثير من الحالات الإسعافية»، ثم
صوت آخر يقول: «أهل سراقب أهل سراقب... انبهوا. طيارة
قادمة... طيارة قادمة».

من نافذة سيارة كنت ألمح الناس يسرون مسرعين هائمين على
وحوهم رؤوسهم أمامهم وهم في حالة صياح. ولا يحمون إلا
القبيل من المتاع، ثلاث عائلات تنظر إلى السيارة ونحن نتجاوزها، ثم
نهر أمام مستبح، يوقفا. يسألنا عن وجهتنا، ثم يسمح لنا بالمرور
يقول «أبو إبراهيم» «البارحة قام مسلحون بخطف امرأة للمرة الأولى،
في عدة ساء لا يحطس، وهي من قرية محاورة، لكنهم حطفوها،
ووجدوا زوجها مقتولا على الطريق، سرقوا سيارته وامراته! بحث علب
حدر، هؤلاء مرتفق ونصوص». في الجهة المقابلة، رفعة تحاول
انشال صبح باء قبل فة حمسة أشخاص، ولا يزال ابحت حاريا عن
حنه صفة. اناس من أهل البيت أمام الدمار، أحدهما واقف أمام
نرفعة بناع حركتها، والثاني يجلس على ارضيف نوقفا قليلا كما
نرحل وبعد الأصوات الثلاثة. هم وأقاربهم ماتوا الرحل الثاني كما
عنهم وفي ساحة الأخرى كان أطفال يقومون بجمع قصاص الحديد
نسخة من الأعجار، نجمعها وبيعها طول قصاص حديد البراميل نه
نكن بنحوه نصف ذراع، وأحيان أقل أحد الأطفال ينسحق كنه

المرحوم راحل عن القصبان، فيصرح به الرجال ليعود. عمره حوالي ثلاثة عشر عامًا. ثيابه شبه مهترئة، وعيناه سوداوان شعره معتبر، ويبدو أنه من نفسه أكثر من مرة في الانقاص، ليجمع أكبر عدد ممكن من قصاص الحديد التي ربما يستطيع بثمنها شراء الخبز الرجل الحالس على نصف، يشعل سبحاته ويراقب الرافعة، وينقص العيار عن رميته. كانت استه لا تزال تحت الانقاص، لكن الرجال قالوا له أنها كانت دائمًا، وعليه أن يستعين بالضبر.

وصد إلى الحامع. كان استكان من البدو. الحامع فسيح ومقسم لنامة عذة بأغطية الأسرة. هنا، ستقيم بعض الوقت، ربما أيامًا عدة. كانت عائلات كثيرة قد نزلت في هذا المكان. وكل ما تملكه آثار لأعصاة وحصر بلاستيكية، أدوات مطبخ بسيطة أثبت ببعض خشريات العذرة ولحيز والحن والماء. لا توجد كهرباء هنا، ولا يوجد ماء، لكن أيضًا لا يوجد قصب.

ثم نكد ستهي من تنظيم المكان، حتى جاءت المحوزان محمول على أيدي ميسرة وصهيب. كانت هذه فرصتي للعودة إلى اسرلة. ولم أقل رفضهم. لم أت إلى هنا لأبقى بعيدة عما يحير.

عسكه أن توافقوا. قلت لهم بإصرار، فوافقوا.

نخمت المحوزان على الأكف، بين بزوح وبزوح ما يجعل التروح تترفعًا. وحده أحف الآباء الرجال يصنعون العذائر في مأم، يسمون. من موت شدتوني الأدوار. لأم المحوز عاصفة ولا يريد عدده. سي الحرة محوز صامنة الدموع نحنس في عيني عبوش. وسنته لا تريد توث بيها والتروح. نفضل الموت بكرامة التروح.

يجعلنا بلا كرامة. الأفضل أن نموت في بيوتنا لكن الرجال لا يهتمون بالنساء. يتركونهن في الحامع، وأعود معهم إلى المكتب الإعلامي

حين وصلنا، كان الناس بدأوا يتحركون، والساعة صارت حوالي الخامسة مساء. وحتى الآن، سقط حوالي سعة عشر برميلًا صغيرًا فوق «سراف»، وكلها على بيوت المدنيين وعلى السوق. لم يرد عدد الصواريخ والقنابل العنقودية، لكن الشباب قالوا ونحن نذهب إلى المكتب، أنهم سيعرفون لاحقًا. دخلت وحدي، وذهب صهيب وميسرة. كان بانتظاري مارتن سودر والصحافي الإنكليزي، واند من الصحافيين الشباب أحدهما أصيب، وكُسرت ساقه، فعالحوه مارين بعالج بعض الصور التي التقطها، عقلي مشوش بما يتدواله الشباب في العرة المحاورة. كانوا يذكرون أسماء العائلات التي راحت صحاب قصف اليوم هناك من قطعت يده، وهناك من بُترت ساقه، وطعنة انشلوها أشلاء من تحت الأبقاض.

الثورة على الأرض واقع مختلف الكتابة عنها مختلفة أيضًا. هذا الواقع لا يحتاج إلى نظير وترتيب، ولا حتى إلى معرفة نهاية كل يوم يحتاج فقط إلى هدوء الأعصاب وتدير الأمور ساعة بعد ساعة، كأن تعرف المحارح الأسلم البعيدة من المصعب، وهذا مستحيل، وتأكد من وجود أمتة ومعممين، وما إذا كان هناك نشاط في أماكن القصص توثيق صحاب طران الأسد وصواريخه أن تراقب «الإنترنت» على أمل ألا نقطع، ونصير هذه البقعة الصغيرة التي تتعرض للتدمير والإبادة خارج حدود العالم. أشياء بسيطة يحب الإمام بها، والأهم من هذه كنه، التماسك التماسك أمام الأعصاب البشرية الممزقة والدمار هناك لمسيوب، كي لا يعيب عن عقلك للحظة أن انهبارك هو مشكلة نحن حولك هكذا ساطة يجب أن تقترب من أصابع صغيرة وللملحمة من

تحت الأنقاض. تشتت جثة طفلة أخرى لا تزال حرارة سورها في
يديها، ثم تمشي، وتتابع البحث عن الضحايا هكذا أيضا بحث ألا
تسى وحواء الضحايا لتكتب عنهم، ولتحكي الحكاية ونسرد لنعالم
لحارحتي كيف كانت العيون بيضاء تمامًا تحت السماء التي تمطر
بالبراميل وهدايا الموت المتجانية. لا يهم أيضًا ما إذا كنت قد رز على
تحليل ما يجري، ولماذا يتم قصص بيوت المدنيين حتى تفقد الثورة
حاصنها الشعبية وتذهب كل المشاريع المدنية لني عدد من أحدها
دشطن ونشاطات في المناطق المحررة من سيطرة النظام أو نأمن
حظ إمداد عسكري، ما يدفع النظام إلى تدمير المنطقة كل هذا لا
يهم! المهم الآن أن تستطيع الوقوف على رحلتك بسما السماء تمطر
بالبراميل والقبائل العنقودية، وتقف ثاثًا كمسارًا

كنت أفكر في كل هذا عندما اشتعلت السماء من حديد.

ثلاثة براميل سقطت بصورة متتالية، إضافة إلى قبائل عنقودية.
هبطا درج المكتب بسرعة كبيرة. مارتن والصحافي الإنكليزي حملا
الثاب ذا الساق المكسورة، وهبطا به. وقفا أمام باب المكتب. كان
جمع من الشباب قد ظهر أمامنا. لم يعرف أين سذهب لأن القاذرة لا
ترال في السماء. الليل حل، ويبدو أن قبيلة عنقودية سقطت بالقرب
مننا دعانا الرّجال إلى الذهاب معهم، لكنني رفضت. قلت لمارتن
أني لا أعرفهم، ومن الأفضل أن نعود، لأن الشباب حذروني من
حالات الخطف. خروجنا لن يفيد شيء، يجب أن نترّل إلى الملجأ.
اعترض الرّجال الغرباء، قالوا أن الملاجئ لا تحمي من البراميل.
مارتن قال أنه سيخرج للتصوير، وعلى الشباب الآخرين حمل المصاب
والصعود به. قلت سأصعد وأنتظر. نظر مارتن إليّ بدهشة. وصعدنا
الذّرح، هو أكمل نحو الطبقة الثانية وصعد إلى السطح. كانت فكرة

حربية أن يقوم بصوير الطائرة الآن ومن على السطح. كثر من سر
قُتلوا بشطاب القذائف الناحمة عن الامحار. لحقت بمارتن، وصير
مف على السطح كانت المرة الأولى وهي عريضة ومحيفة، ثم اعتدت
لاحق مراقبة الطائرات وهي تلقي الراميل كنت أتخيل وجه انصار
الذي يلقي الراميل أحاول رسم شكل إنساني له!

السماء حمراء تقريبًا. الوقت ليس لبلا تمامًا. السيوت ترسم
كطلال. والأصواء تلمع من بعيد وقريب بفعل القذائف هناك وسط
حظ الشفق الأحمر، كانت الطائرة تحوم. السيوت هادئة وساكنة. ولا
حركة في الشوارع لوهلة يبدو المكان مثل لوحة، لولا الأمكنة التي
نحتج فيها الناس لمعاينة آثار انفجار الراميل الثلاثة الأخيرة القذرة
تقرب. نمت لمارتن. «سرل فوراً» ركضنا، وصارت أصابعي في
الضمة نبحث عما يعيها على الاتكاء، أمسكني مارتن، وحزني على
سرج فقدت توارثي. دوي الانفجار جعلنا نسقط أمام الباب. نعد
المحار ثاب. ثم ثالث.

في محطات الموت، يصير الجسد ملايين من محسّات حسنة
سوى سمعة في الموت، نصير مهمة الجسد الالتحام بما يشته
أنه موجود. فعل عربري يتراوح بين الجنود، وبين غريزة حيوانية
سحرة معدونة ضد السماء. كانت أصابعي تهشّ الهواء ونبحث عن
كثير حتى عدي أصبنا على موقّت. ألمح حيالات فقط مري
وصحفي الإنكسري كان بمواجهتي اشتكنا مفًا لا أعرف كيف
نحفظ حور. بعض في لحظة دوي الامحار الكبير، ثم نعرف في
حصة ضمت لتأبئة ركضنا كأن شيئًا لم يكن لا أحد يريد -
سيوت. ولا معنى للفتحة الآن، نحن معزود بشر مدعورين يرحون
في انزعاج عن قصة التلاشي

ركبنا في الشارع وركبنا حتى نوقف القصف. كانت سياره
محمّد قد وصلت، وهو يشغل بين أمكة القصف لإسعاف الحرحي
وسوثيق. ركبنا معه وحرّحنا من دائرة القصف. يقول أحد الشباب.
«سأخذ النظم للعائلات في القرن الذي يقع أول البلدة».

في الشوارع، لناس يحرقون ليعايروا الدمار، وكنت أرى لعمرة
أولى هذا العدد من مقاتلي «داعش». كان المقاتلون موجودين حول
أماكن القصف وبين الناس، يحملون أسلحتهم ويشهرونها. وحودهم
غير مسح مع الحياة هنا. يبدو عرباء ملامحهم سمراء داكنة، تميل
بى بزرقة، وهي ليست كسمرة السوريين. الرجال الثلاثة الذين وقفوا
أمام سيارة كانوا من موريتانيا، والاثنا الآخران، أحدهما يمني،
والآخر سعودي. وكان مصري يقف إلى جانب الفتيان. في العموم،
هم غير محبوبين من السوريين، وحتى هذا اليوم، كانوا خارج التسبيح
«أحمد عني لمحنتي، على الأقل في ريف «إدلب». أما عناصر حركة
«حرر الشام»، فكانوا من ضمن التسبيح الاجتماعي للناس، لأنهم
معهم كانوا من السوريين، ومن أبناء القرى والبلدات، وكانوا جزءاً
من المجتمع. لديهم جمعياتهم الحيرية، ومشافيتهم، ومدارسهم، ليسوا
معدودات عسكرية، بل حركة دينية دعوية أيضاً.

نصوات المدافع المنبذة للطائرات تُسمع من جهات عدة في
الريف. ما يعني أنهم يدمحون طائرة في السماء. تلاها دوي
معدّات قريبة. تسرع بالسيارة. ولمحنا بصلة رجال يركضون في
محيط الأبن من الشفلة، حريق وغبار. لكن السيارة لم نوقف. كنا
محمسين وسرّيد أن نصل وننضم معاً النظام شديد صرر على
صروف سماء. نوقف أمام القرن الذي هو عبارة عن ساحة كرة واسعة.
* صف إسمني. وحولها الشباب والرجال، هم مجموعة من المقاتلين

والشطاء. القصص يستمر. لكننا جلسنا. ووضعنا الطعام على الأرض.

المقاتلون كانوا من «جبهة ثوار سراقب»، ومعهم رجل كبير في السن مع عائلته، وإلى جانبهم مجموعة عائلات انضم إليهم آخرون بعد ذلك المدفع الرشاش أمامي مباشرة. وشعرت بالخلل وأنا أمد يدي بين أيديهم لتناول الطعام. هل يمكن التفكير في هؤلاء الناس الآن بمعزل عن الحالة التي جعلتهم مشاريع موتى. أصابعهم تغمض، ترتب، ووجوههم مرهقة، والجوع واضح على ملامحهم، التعب، الإرهاق، الزمن المحضض لنا من السلام لنزدرد الراد. لكن ذلك انضوت، ذلك الضوت لا يزال في أذني، صوت القذيفة، والارتعاف.

أكل كثيرًا كنت أدخر. لا أتوقف عن التدخين كالعادة، ومد سبوت وان أقول سبأتي يوم أفلح فيه عن حرق رثتي، لكنني لم أجد معنى لكن هذا في ما مضى من حياتي. الآن تحديدًا، أنظر إلى سحرهم وفكر في أنها أشهى ما يمكن الحصول عليه في الحياة مع الموت من نشائي الساحر، وتحت القصص في بناء غريب مثل هذا، الموت من مدفع رشاش ومقاتلين يصحكون على الموت، وليس معك كس فمه على نور وعشوش والمجورين، دعم أنهم بأمان في الجامع حيث مكان - وج.

محمد - محمد من شرودي «شو يا مدام خايقة من المدفع» رمة محمد - مسكر. وقت «شفت شو خايقة عم أرحف»، وصحكت.

محمد - محمد من سدة «سراقب»، عمره تسعة وعشرون عامًا على يد وشه ثوردة دمشق. درس في معهد تجارتي وخدم في الجيش (ب) من بصحبت. فسر أسسه ويستفح حذاءه يرفع يده إلى السماء.

وبعدني يا ربي خلصت الجيش في الشهر الأول من ٢٠١١. ما
 حقت نهى وبلشت الثورة يتابع الأكل بهدوء، وأنا أحته على
 كلام مثل كثيرين حرجا سلميين بمطالب إصلاحية فقط، أي
 و... بصحنا ويتابع قتلونا واعتقلونا وأحرقوا بيوتنا في سراقب،
 وحمل سلاح، فقط تاوت على حراسة بيوتنا كنا ثلاثة أصدقاء
 وبيت درودة وحده، نحرس بيوتنا ونساءنا وأطفالنا من الشبيحة
 والمخابرات. قتلوا صديقا، وبقينا اثنين. بعد ذلك، التحقت بكتيبة
 شهد بعد هلال. كيف فكرتم بتسليم أنفسكم؟، أسأله. لا
 صحت هدو مرة. كان ضوبلا وممكت وبالكاد يستطيع الترفع. توقف
 عن نعاء وأشعل سيجارة. كان هناك شبح من ريف سراقب، يطلق
 النار. والشباب هنا أطلقوا النار ردًا عليه ففكروا في حماية
 نفس لأنهم بدأوا بضيقون النار بشكل عشوائي علينا. شكلنا
 مجموع من خمسة عشر وعشرين شخصًا لحماية البلدة، وكانوا قد
 وصلوا حول سراقب خمسة حواجر للجيش والمخابرات.

نصب جميع إبيه يبدو أنهم توقفوا عن الطعام، والقصف
 ... و... أحمد تحدث وحده في صمت المساء: «لم أكن أبوي
 ... بعد مصامي إلى الكنيسة. كنا عندما ندخل المعركة، لا
 ... من منطقة قننة انفق أن يقوم بتوجيه الرصاص إلى
 الأعداء، لكن الأمور احتدمت بعد ذلك نعرفين! قصموا واعتقلوا
 وهو نساء، وبعثت لأمر كنت وحشيتهم عبده، ثم ما عدت
 ... من أبن بوخه مصاصنا، أنا أعيش الآن مع أبي وأمي وأخي،
 ... من جمع عن قتل شار الأسد من أهل أصدقائي الذين قتلوا
 ...

صانه عن الكائنات الغريبة المصروفة التي حوت مدار الثورة،

فقال: «لا أهم قصدك بهم، هم مجموعات مختلفة. هناك فرق بين داعش وبين جبهة النصرة... فرق كبير».

يدخل أحد الشباب، قائلاً: «... ليس صحيحاً... جبهة النصرة من أحسن لدس، لا يسرقون، ولا يقتلون، ويحمون الناس. يرد عليه مقاتل آخر «غير صحيح!». يتابع أحمد مقاطعاً الشاتين. «أما لا أسته حجة نصرة، هم لا يسيئون إلى أحد، سما داعش أساء للإسلام وسورية. وهم غرباء ولا يمتنون إلينا بصلة، ومن حق الإسلاميين أن يفكروا في الطريقة التي يرونها مناسبة لشريعتهم، حتى في حجاب المرأة وسفورها».

أسكت عن ملاحظته هذه لأنني لم أكن أريد الدخول في نقاش كهذا. هو يسطر مني تعبيراً. «بصراحة لا أستطيع إلا أن أحترم جبهة النصرة بعد أن حرروا الكثير من المناطق». أقول: «ولكن، ماذا عن مشروعاتهم التنموية؟». بحبيب: «لا أعرف... هذا، لا أعرفه! لكنني سأقول لك أمراً هذه مرحلة فوضى، وقدارة. كل شيء قدر. من النساء وتكاثرت الجهادية وأجهزة المخابرات والأمن والثوار. العالم كله نحن بعض في القدرة الآن. هناك فرق بين مقاتلين تركوا منازلهم وأوراقهم وحاولوا للقتال في سورية من أجل دينهم، وبين فلولهم التي ارتطمت بأجهزة محاربات، وتبيع نفسها للنظام وعمره معه، لا احترام في قادات بعض الكنائس».

أحمد يتفحص راتاً سيفاً هو ألف وحمسة ليرة من كتبه يعرف أنها تكبه ثمن سحائره فقط، وأنه يريد أن يتزوج. لأن نقاش سيمر من طويل بصحبت ويمارس سحرينه على كل شيء حتى عمر خمسة بقور «رات يا مدام شو الله غاصت عليك لنحي هور»!!، وبصحت أسأله بم يشعر أثناء المعركة، ولا أصححت

أنتظر بالحدثة أمامه، فيجيب بالحدثة نفسها. «في المعركة لا يوجد شر في المعركة أما حيوان، يا قاتل يا مقتول، هي هي هي. . . المشكلة أن حراً من الستة مع الثوار، بينما كل العلويين مع الأسد. لماذا نموت نحن الستة فقط والأقليات تبقى. لماذا هم صامتون إذا كانوا مثلنا سوريتين. أنا لا أفهم والله. لا أفهم. لا يوجد لدي تصور واضح للمستقبل. أنا مقاتل، لكنني ابن ناس وتعلمت في المدرسة وذكره القتل. أريد أن أتروح وأنجب أطفالاً، لذلك أب أقاتل، من أجل أن أعيش، لكنني أعرف أن الثورة مخترقة، وأن كل ما يحيط بها ضدها، وهي مثل أرملة فقيرة ومهملة ویتيمة. أحياناً أشعر بأنني مثل حجر شطرح، ولكن ماذا أفعل، أعرف أنهم يحركونني كما يريدون. من هم ممولوا الكنائس؟ من هم؟ لا يهتمني أن أعرف الآن، لكنني لن أتوقف عن قتال بشار الأسد، وأعرف أن ما يحدث هو حنون مطلق وأنا نتجه حميماً نحو الموت. لكن، هل نموت دون أن ندافع عن أنفسنا؟ ذهبت مرتين إلى تركيا. كنت أمشي في الشارع، وشعرت بشيء غريب. شيء لا يمكن وصفه. لا يوجد نصف! لا توجد طائرات! ولا صواريخ تقتل الناس هل تعرفين؟ شعرت بالغربة. نحن فقط نموت، نحن نموت فقط... هذا كل ما يفعله!».

توقف عن الكلام.

«أعطيني سيجارة يا معلم»، قلت له بعد دقيقة صمت. كان عاصياً، وهو يهيئ حملته الأخيرة، فضحك عندما طلعت منه سيجارة: «ما في شيء يستاهل. هلاً رح نموت. يمكن بعد لحظة!»، يشعل لي السيجارة، ويتابع الكلام والقهقهة: «ليه ما تنكتبي عن أبو نصر؟»، ويشير إلى شاب نحيل ذي وجه أبيض وعينين قلقين لم أتبه إلى وجوده بين المقاتلين، فقد كان منروياً، وغير عابئ بما يحدث حوله.

كنا نحس فوق حصير بلاستيكي، وعليه مجموعة وسائل باقي الأرض
كبت إسمنتية محمورة، وروائح زيت وسيزين تموح من المكان أعني
تماماً وأنا أدون أنني شخصيّة حارحة من رواية لا أصدق ما يحدث،
ولن أفعل ما حبيت. أنا الحيوان الذي يحمل الضمغ اللارم لتثبيس
الذاكرة الآن

أبو ناصر اشأت وُلد سنة ١٩٩١، أخبرني بأنه حاول الحصول
على شهادة البكالوريا ثلاث مرّات ولم يفلح. يبدو خجولاً ولا يريد
الكلام، ينظر إليّ بطرف عييه. قلت له: «ما تحجل أبو ناصر إيت منزل
أحي الضعير» أحاب بصوت خافت: «والله وأعز يا مدام»، ويروي
لي قصته «حمت السّلاح من أجل الجهاد في سبيل الله، في كتيبة
حسان بن ثابت التابعة لأحرار الشام، أقلعت عن التدخين، وذهبت
معه إلى خط الحبهة. في حلب، في حيّ سيف الدولة وسد
الشارع، بقيت شهرًا، ثمّ ذهبت إلى مطار أعزاز تركت أحرار الشام،
وانضمت إلى مجموعة مسلّحة مستقلة للذهاب إلى جبل الأكراد
أعطوني بدلة شاب استشهد، ولبستها. أنا لم أطلق النار إلا لأتار
لصديقي الذي شهد أمني، لكنهم رفضوا إلحاقني بالمعركة في جبل
الأكراد، الأمر رهس كان قائد الكتيبة من سراقب. فتركهم وعدت
إلى هنا ثم أكر أمدت ملاحاً، لكنني حصلت على بارودة هدية في
أعزاز، وذهبت إلى الأمير في سراقب، وأردت الانضمام إليهم، لأنني
وحيد لأهلي وأريد انقاذ قريتهم من أعطاني البارودة هي أعزاز فـ
أنهم في خطر مع، وأني يجب أن ألتحق بهم، وعدت إليهم»

سأله عن المجموعة المسلّحة التي عاد إليها، فقال: «إنه
مستفهم هناك الكثير من المجموعات التي كانت تعمل بهذا الطريقة
بقيت ثلاثة شهور ثمّ ضربت مرة واحدة، وكان الجيش بها حرم ونفوس»

بعدة اشخاص بطلاق طليقة في رأس كل منهم. قائد الكتيبة كان
 قد ترك في المعارك ويحتفي، كنت عاصيًا، المفترض أنه أميرنا،
 ملك يهرب؟ أحد بارودتي متي عندما تركته رغم أنها كانت هدية.
 أعرف أنه كان يتناول حبوب هلوسة، ويدخن ويفعل الكثير من
 النساء محترمة، التحقت بكتيبة أبو طرد، قائد لواء ثوار مراقب
 ومث أربعة أشهر معهم، ولأن بارودتي ستمى في المقر، ولا أملك
 لن بارودة البارودة الواحدة سعرها أكثر من مئة وثلاثين ألف ليرة.

أبو نصر، يريد الاستمرار في القتال مع أنه أراد أن يكمل
 برسه كان قد تعلم العزف على الآلات الموسيقية بعزف على
 كمان وعنى العود بصحك أحمد، ويقاطعه «هو عازف عود
 مسر» بهز رأسه، ويقول. «ثم أعد أستطيع العزف!». بصرح أحمد:
 «لا تكذب» «والله ما عدت أعرف أن أعرف، لا أعرف لماذا! كنت
 بك في سي أفنل ضد الكفار الذين يقتلون المسلمين، والآن أقول
 سي أفنل ضد الظلم. إذا بقيت على قيد الحياة وسقط بشار، فسوف
 أنت كل شيء، وأنتحق بأحي في أميركا لأدرس الموسيقى. أنا أحت
 عود قبل لأن كنت أخاف ألا أموت شهيدًا، لأحظى بالسجدة،
 «حي ربت تكذب وانتقص بين ما بقوله الأمير لنا وما بقوله في
 حسن ممرات» «بحسب صوته ينظر إلي بغضب احمر حذاء
 «مرب عنه أكثر ناع» «في إحدى المرات انشق عقيد واناد من
 مسكبه وبعود على اقتحام مطار مع، اقتحمناه، وصرنا على
 حزب النصارى لكن الأمير رفض دخولنا. ولم يسمح لنا بالتقدم. هذه
 حبة»

عند في حسنة. وبدأ أكبر من عمره، مفعلاً وحريًا، والكثير
 من حسن في صوته «أب لا أمكر في الزواج أبدا كيف أتزوج وأب

ساموت هي ابي ليعظه كما يري من نحن نعيش تحت القصف شكرا
 دانه، سمعت عمو بعد قتل ابا فلق حذا على اهلي، ولن انكر في
 برث سلاح حتى سقط بشار لانه لا يتوقف عن قنا هل اقول لك
 امر بعد حرج ستمس ولم بكر لذي سلاح فقتلونا. والآن يقتلونا،
 وس يتوقفوا، هم من يقتلون نحن ندافع عن انفسنا لكسي اقول لك
 ان لأمور بسب حنده، هي حلب عندما كنا بعد رحلا يشرب الحمر،
 في شرب يقومون بحنده امام الناس، وهناك كتاب جهادية دعب
 واحرف وحديث الناس من هم هؤلاء؟، اسأل. بجيب غير
 مهم، نكتبهم دبحوا بعض الناس لانهم علويون. وحللوهم لانهم نه
 ينفقوا شرع الله

الساعة السادسة صباحًا. استيقظت الطائرات مبكرًا وقصمت
«سراقب». طيرن «المبغ» لا يخفي نفسه. ستنطبع تمييزه من صوته.

من خلال التافذة القريبة من مقر الكتيبة، أراقب الشاب الذي
يجلس وراء مدفع ٥، ١٤ ويوجهه إلى السماء، ويصوب باتجاه الطائرة.
الرّشاش موصوع في صندوق سيارة شحن صغيرة. المقاتل الذي يجلس
وراء المدفع أعرفه، ألّوح به بيدي، وأراقب السماء معه! هو في عالم
حر يلتحم بالرّشاش، ويطلق النار. قال الشاب أنّ الطائرة عادت
لأنها حادت من الرّشاش. لو كانوا يملكون مضادًا للطيران لانتصروا.
لا يملّ المقاتلون من تكرار هذه الجملة.

الأسلكي يرعق: «راحت الطيّارة يا شاب الله يقويكم. حلّي
عبوكم مفتحة».

أعود إلى التافذة، والشاب لا يزال في مكانه، يشعل سيجارته
ويراقب السماء. بدا مسترخيًا وسعيدًا لوهلة، يحمل الأسلكي بيده

الأخرى ويصنع إليه. كنا مجموعة كبيرة في المكتب، شاب من دمشق
 قال دكتوراه في القانون، ترك البلد وانضم إلى العمل مع الشاب في
 الثقافات والرمحيات. بحيل ومتحمس، وقلق لا يتوقف عن العمل،
 يبقى لأيام عدة ثم يعود، مثل شطاء عدة يأتون ويرحلون، وحسب
 قال لي «مشك أنت» صهيب ابن «سراقب»، وحفيد العائلة التي
 أعيش عنده. لكنه ترك أوروبا وجاء للعمل مع الثوار، ترك دراسته
 جامعة، ويعمل في الثقافات والترديو، ويقاقل. أصيب في إحدى
 أحداث سافه وصار أعرج. مقاتل شجاع، ويرفض أن يترك «سراقب»
 حتى يموت. يقول «موت أو ستصر». كنت أتشاجر مع طوار
 نوقت، بحاضنة عنده يقود السيارة في الحل بملك قنًا ليصر،
 وشجاعة استثنائية. أقيم مدرّس رياضيات، لم يعادر حتى الآن ويرفض
 الخروج كما يقول هذه الأيام. سيعمل ذلك بعد وقت قصير، لكنه حتى
 ذلك الوقت، كان يخدم الأطفال، ويبقى مع أخيه المشرف على نعمة
 مجموعات من القلاب، ويرتي الحمام، وسيموت بعد أشهر بقذيفة
 أطلقت من الطائرة. محمد ربيع رحلاتي الدائم، مهمل، مارتن سودر
 ونائب من «أحرار الشام»، ومجموعة إعلاميين، كانوا هم وفي هذه
 يعرف الضربة لا يرون يعلمون بأن الثورة سوف تستمر، «ولا بد
 من أن نحدث معجزة ما». يقول أحدهم

في أوروبا، كان حوار بين شابين عن أن الكنائس الإسلامية هي
 هي أحدث مدّ نعمة، وهو المدّ الذي سمح بانتهاكات وسرقات
 ونفريج لصوص، بينما حارثها كتاب «الحبش الحرة»، وأطلقت عنها
 سم سرقات. ولكن في النهاية انتصر الإسلاميون، يصيب شاب
 يدي كان يعمل ويشرف على مجلة يصدرها للأطباء، ويوزعها في
 نزيهه الشخصي لكل من حب وإدب. لم يكن عمل الشاب احترافاً.

يكنهم يتعلمون، وهذا ما كان يحدث غالبًا، فمن يعمل بالإعانة، قد
يقابل أيضًا، ومن يوثق وبصوّر، قد توكل إليه إحدى المهام الإعلامية
أو ثقافية أو الإعانة

شعرت بالضيق، وطلبت من أيهم وشخص اسمه بديع مساعدتي
على تنظيف العرفة التي نقيم فيها. كان المكان مهملاً، ويستخدم لكل
شيء. ورشة مستمرة لا تهدأ. شعرا بالفرانة بداية، لكنهما ساعداني
لاحقًا، قل أحدهما إنه ذاهب لمساعدة عائلة بالتزويج، وآخر قال أن
صديقًا أحسنًا يحب أن يصل إلى هنا، وعليه ملاقاته والمجلس
محليّ «سراقة» سيجمع اليوم هنا، لمتابعة تسير شؤون المدينة.
كان هذا الشطيم المدني قد بدأ يفقد سطوته لأسباب عدة، منها ظهور
هذه الشرعية، وغياب التمويل، والتساحر الذي ظهر بين أفراد البلدة
، هذه الأهم من هذا كله، أن الهيئة الشرعية والمحكمة الشرعية
كانت تحت حماية الكنائس الإسلامية، وتطقتان قوانينهما بقوة السلاح
الله

عند مغادرة للظهور مساء، وقمنا من أمكننا في العرف باتجاه
نفسه جعل على المدفع كان يصوت على الطائرة، وطلقات النار
مخرج مساهمة، وأن وصفت كفتي على أدبي، واستعدت عن المائدة.
خرج ثلاثة من شباب ووقفوا إلى جانب المدفع يراقبون السماء كما
في يوم صائفة من ورق وكالمعادة، انتهى المشهد بعد دقائق، لكن
سأفصح وظهر شاهر، وهو شاب هادي، من «جهة ثوار سراقة»،
كان ودود، لكنه لا يتكلم عاتًا دخل العرفة وقال «هناك جنات في
الوقت» بلا بـ شاب مساعدون ليعرف من هني ويدمهور» وصفت
معهم رأسي، وفقت «أنا قادمة» نظر إليّ بعناية، وصمت كعادته،
رحمت بهم

اشمس حارقة، وأصوات قصف بعيدة منا، في الجهة المدمرة
للبلدة توقفا على «الأوتوستراد الدولي» أشجار الشرو تحيط
بمطريق إلى الحجاب لأيسر، الوادي الضمير الذي يحوي الحثيب في
عمقه رائحة كربهة في المكان لم يسمحوا لنا بالتقدم أكثر، كثرة
نمحت لون ثياب إحدى الحثيبين، الرأسان غير موحودين، حدهما غير
بعيد عن الحثيبين، والدباب يشكل غيمة صعبة فوقهما، شاهر في
مرحبا من وصولنا، لكنه عاد إلى وحومه قرب الحثيب بقي مهد
هيكلاهما تحرجنا فقط لم يتعرف إليهما الشاب، وقرروا أنه بحر
دفعهما في الحجاب، اقترب الشباب نحو الوادي وصعوب من التقدم
أشجار الشرو تحية ولونها يميل إلى الأخضر لاهت. أصوات طير
ومصاف بعيد من حونا بدأ الشباب انحفروا ووضعوا الكمامات
لوهمية، حث أني سأسقط أرضا، كل هذا الموت! كل هذه الإحاطة
بالموت وحود شاهر الغني والحبوي، مع سلاحه الذي حمله هو
أبى سد مدافع عنه، ليس متطرقا ولا إرهابيا، يحمل سلاحه ويقتل
على نصفه الأخرى، مفاتنون غرباء يشبهون المرتقة يقطعون الزووس
باسم الدين، ويوقفون على الحواجر كمنحنيين للبلدان، ونحن
انحدسهم بغير الغوصي، واستماتة الشباب لمدافع عن ثورتهم التي
سبوت مهم فأنهم ضد نظام الأسد، وقاتل المجموعات الحداثي
التي بدأت تحزب جبانهم... كل هذا!

حسب عد جدد شعرة الشرو وراقنتهم.

«كيف يمكن أن أكتب عن هذا الحجاب كله؟».

كأنت سز نحة فائمة، وأحد الشباب من ورائي سمع ما أردت
ومضى برفه وور «والله يا مدام ما بذلك كل هالشوق، نعدني برفع
الصور» الأصغر بدأ يمشي عيني، شاهر والشباب يأبون في اتحادهم

وينشرون إليّ بالذهاب. نهضت بصعوبة. الرائحة في حذقي وصورة
 نِزَاس المفظوع احتلت مساحة دماغي كاملة. قاتل ومقتول. وبلا هوية.
 مرضى العث والدمار. في طريق العودة، قال شاهر. «ما بطلَ أنهم من
 جماعة، يمكن من جماعة السطام!» الشات الآخر أجاب «وشو
 عرفك؟» حلف الله يرحمهمون مين ما كانوا! لكن الشات في الجهة
 لأخرى قال. «إذا من جماعة بشار الله لا يرحمهم. فطيس!».

لا شيء سيبقى لنا. هجأة مرّت تلك الصورة القاتمة. هذا العدم
 يسبح في معصه، يأكل بعضه. في تلك اللحظة، عرفت أنّي أصع
 نفسي في المنطقة القاتلة. لست أهلاً لكلّ ما أراه، وما رميت نفسي
 به. أنا أضعف من هذا الموت المتسلسل. من هذا الشرّ المتوالد كلّ
 نوبة. وأندي يكر ويكبر حتّى يتلع الأرض! لن أقوى على العيش كما
 كنت سابقاً هذا يحصل دائماً، أفكر في ذلك، وأستعيد قوّتي من
 حديد، لكنّ القوّة الدافعة التي ترجّني في الموت كانت تكبر وتكبر.
 عدوه الموت الملساء تزحف في رغباتي. لا معنى لأيّ شيء بعد
 لأنّ رأسي مثل أوكر يمل متداخلة. أصوات القصف بعيدة وطنين
 تدب فوق الحثثين ووجه القملة تحت الرّكام. كنت أسبح في عدوبة
 الإسلام للموت

أنفخي صوت شاهر معنا وصولاً إلى المكتب الإعلامي.

كان أعضاء المجلس قد اجتمعوا في المكتب لمعالجة مشكلة
 عصع الحبر النازحة، فقد أحر من «سراف». تركتهم وحلت مع
 محمد نزيب ربارات بيوت النساء. كنا بحاجة إلى دورة لمحو الأميّة،
 وتحديد مكان لمركز النساء. ومتابعة المشاريع الصغيرة، لكنّ رأسي
 قد أدّون ما يقوله محمد بصورة آليّة. دخل شاب، وأحسني عن
 سديم العرب المهاجرين الذين يطنون من الأهالي السحّث عن

روجات الشهداء ليتزوجوهن، ويدفعون لهم الأموال لقاء ذلك. والقلب يرفضه كثير من الأهالي. لكنَّ البعض يوافق. كنت سمعت من هذا من قبل. البارحة تحديدًا، كنا في بيت زوجة شهيد، وقالت لي: «مقاتلًا يميًا تقدّم لخطبتها، وهي موافقة لأن لديها ثلاثة أولاد، ولا معيل لها، سوى ما تنقاصه من «جمعية الإحسان» التابعة لـ «أحرار الشام»، نكنها غير سعيدة. اتفقنا مع الشاة الحميلة على مشروع صمغ تباع من حلاله في بيتها موادّ للتنظيف، ولوارم للنساء، أكدت لي أن المشروع لن يكسبها، لكن ربما يعينها هذا عن اضطرارها لدروع مقاتل جهادي يمي. لاحقًا، استعدل عن فكرة الزواج به، وتغير معها نفسها.

أحد الشباب يصلح المروحة على الشطح، المروحة الحوض سوند الطاقة الكهربائية، لأن النظام قطع الكهرباء عن المناطق الثرة، وعمر وصعب يتأعد أمور الإذاعة المحلية التي أشأها الشاب

في الواقع هناك ملامح دولة تتشكل، بعد تحرير المناطق، لكن هذه الملامح ستتم محوها، وحققها بالقصف المتواصل، ومن خلال انتشار كرات الذسبة المتطرفة، مع ذلك، هذا وفي هذا المك. الضمير ومهم. كانت الثورة مستمرة. الشباب يقومون بتجربة مستائية في الإدارة الذاتية للمجتمع الأهلي. هم قادرون لكن هذا من لا يريدون أن يحققوا ثورتهم المدنية الديمقراطية، وهم يعرفون هذا. قبل أن تبدأ دو الواحد والعشرين عامًا، والذي يعمل في حربه تصدر في رعب الشباب «كل ما نريه يحدث الآن هو من أهل تحول ثورة ديموقراطية إلى حرب دسبة. وهؤلاء التكفيريون لا يعرفون» يعمون، لكن فسادهم تعرف. يصدق على الأرض. له الناس من الإحوا فلا هي نصف

فما سحور المكتب بانحاء بيت منتهى . كانت القائرة قد عادت
 من سماء لكن مدفع «الذوشكا» ومدفع «٥٠، ١٤» ينصديان لها
 معر لأطفال يرلون إلى الشارع العرعي الذي دحباء يصعرون دائرة
 معو . ويضحكون ثم أصحك أفكر في القائرة التي تلوح فوقهم .
 وبني قد يحولهم من لحظة وأخرى ، أشلاء اثنان من أمهاتهم .
 من رب المرء ، واحمقان . رجل يحمل كيس من النصل ويحرج به
 من زروق ، ومقاتل يحمل سلاحه ويدخل الرقاق المقابل . الحياة كما
 هي

من حوينا على بيوت النساء عمار كثيف يعلو الحدرا والوحوه
 «كل شيء» . حتى إنني كنت أمسح وجهي بكفي ، كل دقيقة كنت
 بعد عمي . كيف لا يفقد الناس عقولهم ، وهم يعيشون تحت الموت
 كل مواصل

هذا الضاح، استيقظت متعبة، وافتقدت وجود آلاء وحكياتها
 آخر نيل، لكن شعورًا بالرضى غمرني، فهي آمنة الآن خارج سورية.
 ناسي أنني أنام فيها منذ يومين، بدأت تشعرني بالضيق. كنت أخشى
 النوم في بيت النوم، حتى لا يضطر أثناء القصف للخروج أمام الناس
 عراة. أنا وعناءة سوداء إلى حاسي، وفي الغالب، كان يتعذر علي
 سوء مع شعور والحر الحارق بالكاد أسهو وأستيقظ وهكذا على
 مدرّأة هذه القصف توقف، ويحب الذهاب إلى بيت منتهى وصب
 ومدرسه لأخذ ساعة المشاريع لكن، قبل ذلك، قال محمد، ته
 حب معه حشر نوافع في الشوق، والذي سحوله مركزًا للنساء.

مع شوق وسط اسراف، وعادة يتركو القصف عليها، كان
 هدف القصف هو قتل أكبر عدد من المدنيين القصف توقف، منذ
 ساعة، وشعرت بنيل من أماكن أنا ومحمد عندما بدأت تعدّه
 أسماء روجت لشهداء النواصي سراهق النوم، قل إن ذلك صعب،
 صبرم أيام هذه، كب أسهل الذهاب إلى كبريل، من أجل ررر

يحاول سطاء الدخول في رفاق للحروح من السوق توقفاً، لأن
خطوطاً من الدخان الأبيض صارت تتساقط على السيارة، وعلى
حواسي بواقي السيارة، صارت تعبر تلك الخطوط مثل شياطين طائرة
خطوط دخان أبيض وأسود تتساقط وأشكال حديدية مستطيلة، ورأسي
صار يسر أصلي أسمع صوتاً حاداً لاحتكاك الأحسام الطائرة
بالسيارة. أحدها عبر جناح الطائرة بالقرب من محمد، وآخر مرّ قرب
رفتي بعد دقيقتين أو ثلاث فقط، فتحنا أعيننا، خلّث حلالها أنني
أموت، وأردت رؤية آخر ما تمكن رؤيته. لم أفكر في الحياة، ولا في
الأشياء الحميمة. فكرت في أن هذا سيكون سهلاً، وأني حائفة فقد
ومدعورة، ولا أعرف أين سأنتقى القديفة وفي أي حرة من حسدي،
فقد بدا واضحاً أننا تحت مرمى القصف. ما لم نكن نعرفه، أن
ومحمد، أن الرميل الثالث الذي دارت به الطائرة وألقته فوق السوق
كان فوق تماقنا، وأنه لم يصحّر في الأرض، وإنما انصهر في السماء.
وكان لهذه المصادفة الشديدة أسبابها، فعند أن اقتنى المقاتلون مدافع
رفائش نصف الطائرات التي يبلغ مداها مئة كيلومترات، صارت
المروحية، يرمع في السماء لأن الشباب أسقطوا طائرات عدّة بهذه
الطريقة، وسحبة هذا الارتفاع الذي اضطرت إليه مروحيات الأسد،
ولأن الرامل هي أسلحة بدوية مصنوعة من مواد أولية بدائية، انتهى من
هذه شدة على المدنيين لهذا لم يصحّر كان يلزم وجود قتل سة
إشعاعه قبل رمية من الطائرة، هذا القتل لم يكن طوله دقيقاً بل يكفي
لوصول الرميل إلى الأرض وفي حساب المدة الزمنية التي يحتاج
إليها الرميل لتسقوط وقتل أكبر عدد ممكن من الناس، وفي هذه المدة
حساب طول القتل في تلك الظهيرة، هما ما جعلنا نعيش حتى الآن،
هنا قبل انتهى إشعاعه والرميل لا يزال في السماء

أسرع محمداً إلى بيت منتهى وتركني هناك. طلعت منه أن يأخذني معه لأعابن الأضرار، فقال: «ليش؟ لتموتي معي...؟»، وابتسم موزحاً بيده قل أن يستدير ويعادر.

دخلت بيت منتهى والغبار يغطي السماء. النساء كنّ بانتظاري، مجموعة من روجات الشهداء والجارات والأطفال. بيت كبير يصعج بحركة. إني اليسار جدار مفتوح. قالت منتهى أن القصف كثيف هنا لأن وسط الشوق. كنت بحاجة إلى أن أفهم ما يحصل، فهم يمشون الأرض ويضعون فوقها أطباقاً من شتى صنوف الطعام. ويضحكون، ويتناحون أخبار قصفهم! الجميلة ذات العينين الواسعتين، كنت تصمّ فعلاً إني صدرها. هي زوجة شهيد وتريد فتح مشعل صور الأحرى طيبة عزباء، لكنها مهتمة بالأدب. امرأة مرفقة حديد. تريد ماكينة خياطة. الحياة التي تدفقت فجأة، بعد الرميل من سقف فوق رأسي، جعلتني مشتتة وأنا أروي لهم الحادثة. رأسي مع صدمته وشفتاي لا تترالان ترتجفان الجميع يحيطون بي، وامرأة سكك سدي، وأخرى بدأت تقرأ بعض الأبيات القرآنية. لم أعرف - وجهي أصفر. وأنّ عيني رائعتان، لكنني كنت فعلاً مسبوكة لأنني كنت عنى فد الحياة. وكنت أحاول معرفة ما تفعله النساء للحماط من هذه نفوذ. كنّ حميلات طبيبات طعامهنّ لديد أطفالهنّ، مع عمر. تبدو علامات الاهتمام عليهم. وإحداهنّ أحضرت معها من حصة من ثياب

صماء التي تدبر مدرسة. وهي أخت منهنّ، كانت تشرح لي ضرورة أن تقوم سكوبيس سلسلة بشرية من النساء تقوم بتعليم الأطفال لم يسبق لهم لأن لا يمكن جمع الأطفال في مدارس في حانة معصية. ستكون أعداد الضحايا كبيرة، لكنّ حين يتعلمون في بيت،

سيكون عدد الصحايا أقل. لاحقاً، سيذهب الأطفال إلى المدرسة.
وليس بأنهم لنقص

يصنع الأوراق أمما وبدأ تسحب كل حالة من حالات النساء
على حدة ودراستها. ثم يكرر بمكسي التوقف عن المتابعة، رغم أنني
بدأت أفقد تركيزي. شعرت بأنحلال أمام قوتهم رأسي مشوش
بأنكم مل. صوت النظارة ثم يتوقف، وأصوات سيارات الإسعاف في
الخارج. صحيح الأطفال، وصحون الطعام التي تدخل وتخرج
بدا الكلام. كان شهوة التحكي تدفقت دفعة واحدة. قالت صبيّة في
تخريب من عمرها، أنها غير موافقة على ما تفعله الكتائب الإسلامية.
فوجدت هذه الكتائب في أحد الأيتام قطعت رأس حديتي، وعلقت على
عقب ومشي في المعاصر في سوق «سراف». قاطعتها أخرى وصرخت
فيها: «تعرفي شو كان عامل؟ طلبوا منه الاستسلام، وكان داخل
بذنه ما فلو يصيروا عليه رصاص حتى ما يقتلوه، أنا فرايسي كان
هو بيت وسعف. وصررت عنهم هو بالذات كان بذه يقتلهم كلهم. قتل
أشهر من شباب حتى ألفت عليه واحد من الشباب، ودبحه، كانوا
عاصرين. فداك بها مرأة أخرى «مجنون» لم يحرج صدى بشار الحلي
أحد. بنوهم هذه حاصير الموحشة، هاد إجماع، لبش يحمل رأسه
من ساس. كان بعد هذه عريضة المحكمة الشرعية، من تعرفي هلا
صبر. لا حول ولا قوة. وأقصها أخرى: «أما صقل، ما بدنا ولاد
نبرو. نفعه روحته هذه» همس امرأة «والله القدام أقطع»

كان لأحد مدحون وبمحرجون ومفرون من أحصاء. ردت
بصوت ضئيل. انكر بعد شو دور ما رج أهل أبي نصر فلي
ووعني من هت ما طرا

كس كتب ملاحظاتي حول وضع كل امرأة. وما رأت منهن

لهم إصرار الحياة الهادر الذي ألمسه بأصابعي وأنفسه بعمق. من
لنوني يفتن بها تحت الموت، أما أنا فلدي فرصة للخروج من هذا
الحميم والعيش خارجًا.

عندما عادت الطائرة من جديد، صرخت إحدى الشابات وهي ابنة
نهيدي هذه طائرة مبعث، وسمعت صوت انفجار، فقالت امرأة
أخرى «هذه قصة عقودية»، وتسابقا للخروج طلت منتهى أن أبقى
عندهم. لكن محمداً كان ينتظر خارجاً تحت القصف ارتبكت أكثر،
مسحورة، وركضت هابطة الدرج.

في بيت العائلة، «أبو إبراهيم» ونورا وعيوش، برلوا إلى المدخل
وخطروني قبل متناحية تتساقط، ووجدت من جديد أن من الجوار
مكبر نقيب بأي شيء، وسط حملات الموت الجماعي هذا.

كبت العائلة قد عادت من الجامع، مكان الزوج. نورا خاصة.
بعد عيوش أن تصعد لنفي إلى حائط العجوزين. وأصعد معها، تأتي
عمر عديم إلى درج الملحق، وبأكل بصمت.

مكبري مشغول في الوقت الباقي لي لإنهاء عملي مع النساء.
أصعدني مستنعم صباء لتعلم الأطفال تحت القصف، أو على
أحد من منى من لعنات في «سراق» ربما كان ذلك مستحيلًا
من عصف لعيب مع ذلك، اسطعنا أنا ومحمد ومنتهى الذهاب
سأرى من يدب، المرأة التي أرادت أن يكون لها مشروع خاص
... وهو - تمنح صانوع سبب لتحميل، وهذا ما أدهشي، فمن
سبب هذه الأمور لأن كانت يدب سمراء بحسنه. لديها ثلاثة
أولاد، حتى لا غير معروف أين هو روحها أنه سحور العدمية
... عيشين صانوع الشرس دخل سبب، وهو ما فعله في أغلب

مشاريعنا، لأن التقاليد تمنع النساء من الخروج كثيراً. قبل الثورة كان
الأمور أفضل، ولم تكن النساء في العالت، بحاجة إلى العمل إلا
احلف الوضع. أحررتي القلبية من «سراقب» أن نسماً كبيراً من النساء
هذه من الحامعيات والمتعلّقات. لكنّ سطوة العادات والتقاليد هي
السائدة. ليس الذين وحده، بل أيضاً الخوف من الناس ومن الستهم
أناء تقلنا بين بيوت النساء، كنا مضطراً للتوقّف بسبب النصف،
وهو ما أتاح لي رؤية عدد كبير من الناس، معظمهم من طبقة متوسطة.
مع الثورة تدهورت أوضاعهم. كانوا لطفاء وكرماء. وكلّما دخلت بيت
أحدهم، كان يحاول الحوض معي في شأن الحرب الطائفية، وكيف
هو حارحها ولا يؤمن بها، ولا يريد أن نكون هذه الكتائب المتطرّفة
في المجتمع السوري، لكنّ الجميع لا يملكون القرار ولا حول ولا
قوة لهم. كنت أقسم من هذا أنهم يعرفون من أنا، ولم أشعر بينهم
بحظر على حماني. لكنّ ما حصل في اليوم التالي جعلني أعاد
«سراقب» بعد أيام

عندما لمحت من تحت الباب ظلال أقدام، اعتقدت أنهم الشباب
يومئذ. بعض الإصلاحات في خطوط الكهرباء أو جهاز «الإنترنت»
بصانتي، ورغم أن الحركة صامتة ومريية، فقد كنت أشعر بأمان لأن
باب حديد المكتب في أسفل البناء مقفل. مع ذلك، أقفلت باب
معي، وصحت الشاعرة مستعيدة صور الثيلة الماضية، حيث كنا في
مكتب الليل نركض في العراء.

بعدت الظلال التي تظهر من تحت الباب لا أشعر بالخوف
ولا بالغنى. داحني ساكن تمامًا عظامي تؤلمني. والضداع وطيب
لأمر يثقل حركتي. النارجون لئلا أثناء القصف، كان لا بد للشباب
من ربرة نمتي. وصل مداء استعانة، كنا نحلس مع مارتن سودر،
وسبع. وهو فني في السادسة عشرة يهتم بكل ما يحناحه المكتب
إعلامي. أبو حسن، محمّد ومنهل وأربعة من النشطاء الأديب
سعيدون «الإنترنت»، يتابعون عملهم. كان هذا بعد الثانية عشرة. أنا
ومارس. نحن نركض عندما سمعنا القصف، فقد كان بعد العرة عذرة

عن صالة كبيرة، وحولها مجموعة من الكراسي وُضعت أمامها مجموعة
من أجهزة الكمبيوتر. في العرف الأخرى، حصر بلاستيكية ووسائد
هذه حال عالية المكاتب الإعلامية التي زرتها في ديف «إدلب»، رهد
في التماصيل وتكشف في الحياة والأدوات وطريقة العيش كان من
المؤسف أن تكون ريادة المشفى مع مهمل ومارتن بعد منتصف الليل
وتحت قصص القبايل العفودية، هي المرة الأخيرة التي سأرى فيها
مارتن، ولم أكن أنحيل أنني سأكون شاهدة على عملية حطفه وإخذه
التيه التي سفت حطمه، كنا معا في المشفى. مارتن صور كل تفاصيل
قصص المشفى، بنع الدم، البيوت المحروقة مقابل المشفى، أجساد
الحرثي، وجوه العائرين، المنتظرين. لون السماء، الأشجار. توقفا
أمام عرفة طفل حريق. حتى تلك اللحظة كنت أشعر بالتوازن، لكسي
مقدنه أمام منظر طفل لا يتجاوز عمره الأربع سنوات، يبدو كأنه
استفط من النوم، كان نحيلًا. وجهه جميل ولا يبكي ينظر إلى
لنصف جسده لا يرقا ولا يبدو عليه آثار حروح، لكن في صدره
نقا عميق، هو أثر شظية من قسلة عفودية، تستقر في جسده، نفثت،
وتعمل بظن أحمر بأنه سيشق صدره بالكامل لاستخراج الشظية،
وأن أصر إليه لا أعرف لماذا فعلت هذا! لكنني شهقت وقت
الله بالله، وحرحت لم أكن أنحيل صورة أكثر وحشية
من مثل طفل كعصمور حرس صامت لا يشكو. يتألم عبء
شخص ومبشدا بأمل العالم كله لا يعرف ما يحصل حوله تدخل
كره صخرة سوداء جسده، وناء في لحمه تنهشه من أحشائه انتهت
بني أنني فوق بقعة دم كبيرة في المشفى شعرت بأنني أفق على
حتى من صرحت، واستعدت كان مارتن يصور الطفل، ثم ذهب
عرف المشفى الفقير والمحتاج إلى كل أنواع الأدوات اللازمة لجسده

بالجرحي كان الناس، ودرعم أن الساعة قاربت على الواحدة والنصف
يلًا، لا يزالون يأتون بالجرحي. أعود إلى غرفة الطفل لآدي يحدق في
سقف، والطبيب يستعد لعملية شق الصدر بخادر. مارتس يسدي
ومنهم سقمًا مسرعًا كب أتحرك ببطء. قال مارتس بالكليرية هادئة:
«كل شيء سيكون بحير. سيحوا» وعدنا إلى المكتب، عبر طريق
صوبة توفها فيها مرّت عدّة بسبب قذائف تهمر أمام مارتس بصور
كأنه يحصل. لا يرف له جفن ولا يرتحف بتابع التصوير كأن
يهدف نني نهمر فوق رؤوسنا لا تعني شيئًا!

في الساعة العاشرة صباح اليوم التالي، اختفى مارتس. في ذلك
يوم، كنت أمتد إلى القاعدة عندما علا صراح منهل. وتلاه إطلاق
رصاصة وصحّة الأمر لم يستغرق أكثر من عشر دقائق. تأكدت من
علاق نسي، وتوقفت عن التنفس. صراح ورسا ص، ثم طرق قووي
على باب عرقي، وإطلاق رصاص منهل يتحدث إليهم يريد معرفة ما
يبدون كنت أداني تصفرا، ولم أعرف ما إذا كانت السماء بمطربا
بمعدل أم بالضوايح، لكنني تأكدت من أن مسلحين في المكتب
مغمورين بها حته، والظلال التي كنت ألمحها لم تكن سوى التمهيد
عمته الافتحام والمداومة. يصرخ منهل «الكمبيوتر سر! اعطيني
كمبيوتر! أثناء ذلك، وضعت عباءة عليّ، وحجائًا، وفتحت الباب
فلا، وبدي الكمبيوتر. كان منهل يقف أمام باب عرقي، ووجهه
بعض دما. ويمع رحلا مسلحا من اقتحامها شق الباب صغير ولم
س نكسر منهل أعرق باب هورا. وأب عدت إلى مكسي، مرّت
دفتر رندا، وفتحت الباب ثم استطع أن ألقى على الحيد الرّحل
لا يزال أمام نسي، ومنهل واقف ووجهه مفرح بالذم. سيحبرني
منه نأه كان يصرخ على رأسه يكف المسدس عتبت أنه سموت

الآن فكرة وحيدة استولت عليّ هي أنهم رجال «داعش» وقد جاؤوا
إنما لحطمي نتيجة معرفتهم من أكون، أو لقتلنا، لأنهم كانوا يلاحقون
بسطاء الثورة ويقتلونهم أو يعتقلونهم كما كان يعمل نظام الأسد.

وحه مهمل يقطر دماً، وعياني تطبقان وتنفتحان. اعتقدت أنه
يحتصر، لأن كمية الدماء الثائرة كانت كثيفة. سألته: «أنت بحير؟»،
سبب وجود الزحل المسلح الملتزم، لولا صرخته المرعبة: «فوتي
وليك» وحه مسدسه إلى وجهي. سمعت صوت قلبي يسقط مثل
قذيفة بطرت إليه بثبات وهدوء، وقلت له: «عفواً يعتذر»، ثم أغلقت
الباب، وحلست على السرور. انحصر تفكيري فقط في أنّ اللحظة
القادمة هي اللحظة التي ستهوى فيها حنة مهمل، ويفتح الباب، ويطلق
عسى رأسي الرصاص، أو أعيب في عتمة الحطف حلست بهدوء،
شمناي ترنحمان.

الملتزم المسلح لم يكن سورياً، كان من المقاتلين المهاجرين
المراب. هناك عليتان ما رلت أحفظ تحديقه في عقلي. كيف تكون
هنا لعامل؟ من هو؟ عيب لا ترقن ولا تتحرّك. سيكون الموت
المحتمل ولكن، لبنا على طريقة عيون القنلة التقليديين. لقد بدا شأنا
حسناً وحدث حمراوان، لكنه قاتل ربما لا يتجاوز العشرين من
عمره. كنت أرشح، ولم أستطع الانتظار أكثر. فتحت الباب، هذا
بالصالح المنتمين قد اصبروا، كانوا تسعة قيدوا محمداً سوار
بلاستيكي، وهو سرح الشور معه الذي تقوم قوات المحاربات
والشعبة بتعذيب المعتقلين وأساس به. سوار بلاستيكي حاد، يستعمل
كأصعد، وينفذ على المعصم، حتى يعرض باللحم، بحيث إن أي
حركة تولّدي إس مريد من احتكاكه بالحلدة وحز اللحم أبو حسن
مقيد، وبديع أيضاً. كانوا كنهم تعرّصوا للضرب بأعقاب الساق، وكلّ

أدوات المكتب سرقت. لم يتركوا شيئاً، حتى الأسلاك الكهربائية
الخاصة بتوصيل الأجهزة، سرقوها، وسرقوا الأوراق، وكل ما كان
موجوداً، خلال دقائق كانوا قد استولوا على كل شيء. الأقطع أنهم
أحدوا مارتن! لقد كانت عملية خطف لصحافتي أجبي من أجل فدية.

الأمر لم يتوقف هنا، فمنهل والشباب ركضوا ولحقوا بالسيارة،
وكانت احتفت. حاول الشباب الشكوى للمحكمة الشرعية، لكن
الشكوى ذهبت هباء، الكتيبة التي كان مقرها ملاصقاً للمكتب،
أجمعوا بها بعد أن ذهبنا فوراً إلى بيت «أبو إبراهيم»، وتم إحضار قائد
كتيبة «أبو دياب» وجلسنا مع مجموعة من المقاتلين وأهالي البلدة.
مهل رفض أن يظف جرحه قبل أخذ حقه من المحكمة الشرعية. لكن
محكمة الشرعية كانت تريد إثبات أن تنظيم «داعش» هو من خطف
مارتن سودر، الصحافي البولندي.

كان واضحاً أن المقصود أيضاً هو تخويف النشطاء المدنيين
عسكريين، بعد ذلك، ستتكرر حوادث قتل وخطف لشطاء علمانيين،
وسبغون ملاحقين.

في النهاية، احتفى مارتن، وكنت أثناء التقاش مع الزحال في
نمو أؤكد لهم أن شعضاً يعرف المكتب وتحركاته بشكل جيد هو من
ذا المنتمين إليه، وأنهم عندما اكتشفوا وجود امرأة حافوا وأسرعوا
بإزحله. لأن أربز الرصاص سيأتي بمقائلي الكتيبة قوساً. في النهاية،
س يستطع أحد القضاة عليهم. الموصى عارمة، وحالات خطف
صحافيين الأحاب تزداد، من أجل الفدية ومن أجل إحصاء الحقائق

كان المحرم بتملكها. مارتن كان استثنائياً، أبصر الوجه،
صحفها، وأعمارته. هادئاً أخرى للشباب دورة تدريب على

التصوير العوتو عرفت كد مهدن أيقظ أثناء تحرك نحت النصب.
ورغم انهماك بالنقاط النصور، لم يكن يسي أن يمر من سيرة أول.
يُفتح لي بابها، أو أن يرت على أكاف الشاب بعد انقضاء منس.
بحسب كد يحدثني عن تربيته مع قصايد الشعوب، ويقول أن مع
قصبة شعنت وأهمها، لكن العالم في الخارج صعب ومعقد.

احتضني مارتن وانشر حبر أني كنت مع الشاب في المكتب رغم
محدوة تكتب على الأمر حتى لا يعود المسلحون، وصار من ضرورة
معدرة اسرق. ورغم أن الشاب من «كمونيل» جاؤوا لأصطحي
سرعة عند سماعهم الخبر، إلا أنني فضلت البقاء لأبدا لأضمر
ولأساعد الشاب في الشهادة أمام المحكمة الشرعية. لم أكر أعرف
أن المحكمة الشرعية قد تعثر وعودي حريمة بحد داتها
عدت إلى بيت العائلة.

بور صرح بابا¹¹¹ ويلي نو حفظوك...، ثم تصع كفتها على
وجهها، وبصفتي، عتوش أحاطتني تحت واهتمام، ثم قالت وهي
بحرج شراء الحصار ونحوم: «قبل الثورة كان الرجال بشعور
حاجتنا. هل نعتقد أن الثورة جعلت من المرأة شيئا هامشيا؟ لا
أضرب بحر لأن بحرج وشعري أعراضا، وتتحرك بعبات الرجال
نمشكها في نكبات نكصيرة العربية التي سيطرت على حياتنا. بحر
يريد أن يغير أن يحدو نكبات مكان الشاب يحاربون على جهات
عده، بشر الأسد، المنهزين المسلحين، الحاططين والمرترقة من
بصموا أن يعمرو كل هذه الأشياء دفعة واحدة، ونحن نشعل أبدا
حصنة نو نفي نوصع على ما هو عليه مستعير هذه الأرض»
نذهب عتوش إلى الشوق من دوني هذه المرأة طلوا مني الشوق
في السب

صرت مدللة العائلة التي تحتتمع ههنا. الأخت وولداها واستها،
 مدرسة اللغة الإنكليزية، الأخ واسه، أنا وبورا والعحوزان، زوجة الأخ
 الكبير، تحتتمع ههنا، وبدأ التخطيط للأيام القادمة. كيف يعيش الناس
 ههنا تحت القصف المتواصل من جهة، وما يحدث من تغييرات عميقة
 من تحتتمع من جهة أخرى. يقول ابن الأخت، وهو شاب مثقف
 وخبير، كيف سيعيش ههنا؟ يبدو الأمر صعباً. نحن مثلاً نريد التفكير
 بأمير يومياتنا. الأرض احترقت، التجارة توقفت، الشباب ذهبوا
 بنفس، وسيعودون إنشا شهداء. هذا الوضع قد يحتمل لسنة أيضاً،
 ولكن ليس لسنوات عدة. سنعود بالتاريخ لقرون مضت، وإذا بقيت
 محكمة الشرعية والكتائب العسكرية الجهادية تسيطر علينا مع مقاتليهم
 عرب، سنصير لأرض محكومة بالعسكر والذين المنظر، الإسلام
 دين بر ونيس دين عسر.

كان محور الحديث عن «داعش». أستمع إليهم، وأفكر بما يمكن
 - معصومهم، أقول، «لن يقتلوه أليس كذلك؟». بحسبي أحد
 - لا، سيعتقلون به من أجل المال. المشكلة أنهم لا يعرفون
 - معصومهم، كان أحد أعضاء المحكمة الشرعية، والذي ينتمي إلى
 - معصومهم، قد هُزم مهلاً بأنه سيبحث العلمانيين كلهم من هذا
 - معصومهم عنوش. كيف بدأ يعيش إذا كل مرتقة العالم سمحوا
 - معصومهم، أي سورة مرتقة وسلاح ونظر.

أحاول تركيز على ما يقوله الناس ههنا لا أحد يسمعهم الناس
 - لا صوتهم، ولا شكة «إبريت» يستطيعون التعر من حلانها
 - أفكارهم

كان تأمير طعام يوم واحد يلزمه الكثير من الجهد، رغم أن هذه
 - معصومهم أي ضفة بيورة، لكن أسفل تحت نصف، وعبات

المواد الغذائية وعلاء الأسعار وفقدان الكهرباء والماء، تجعل العيش حقيقياً التواء هنا يصنع أساس الحياة، يقم بتدبير أمور الطعام والتطافة والضرورات للأزمة لقاء الأطفال والرحل على قيد الحياة مد يومين، ربما مع محمّد، ومنتهى مشروع «بيت المونة» لمجموعة من أبناء اسراف، كن يصنع الطعام إضافة إلى بعض المواد الغذائية نمونها ويقوم بيعها لناس سعر مقبول، ويعشن مستقلات اقتصادياً رزقهم بعد الإفطار جلسنا في باحة البيت الأم ومن حولها سبع بيت وثلاث عائلات أخرى. باحة البيت تصطف فيها الأواني الملبنة بعض أنواع الزرود في الوسط، شجرة رينون. المشهد يبدو متناقضاً مع صورة البيت من الخارج، بعد أن سقطت قديفة أمامه، الزرود بصفحة وحمره. مكان العمل هو غرفة واسعة فيها براد وفرد، ورفوف تصطف فوقها أواني راحة لثني صنوف الطعام، وصنوف لحوي. كل يرمهم براد كبير لحفظ الأطعمة وصمان عدم فسادها، إضافة إلى مولد كهربائي من أجل الاستمرار في العمل العشرة هنا شامه وأصواء الشموع لا تكفي. «يقوم بالتقنين في استخدام المولد لأن ثمر الماروب عالياً، يقو الشاب ابن لمرأة، والذي يقوم بعملية إحصاء الثقات إلى المارل «هنا، في هذا المشروع، يصنع اقتصاداً مرثاً منحد، لكن كيف يمكن الاستمرار في ظل هذا الوضع؟».

عندما أتت نبتة، وكنت نفة وأنا أسمع أفراد العائلة يتحدثون عن مدخل تدبير الحياة، وم رانت عاتقة في دهي حملة «أبر البراء» من المحكمة الشرعة، والذي هذه الشطة اليوم تقطع رؤوسهم.

كبت النسوة بكثر ما قلته مارعاج. وهن يقمن بتقطع الحصار، والزواج والمحرم بين المطبخ المظلل على باحة المذار، والعرفة التي سخن فيها حول اللاسكي.

«أبو عكرمة» كان أيضًا في المحكمة الشرعية، هو فلسطيني أردني. قبل أن يأتي إلى هنا، كان في أفغانستان والعراق وباكستان. رجل مثلي، وصوته ناعم وخفيض، ولا يرتدي لباسًا إسلاميًا على طريقة رجال «القاعدة». ثيابه مدنية. عندما جاء إلى هنا، اعتقد الناس أنه من منطقة «حوران». هو رجل صامت لا يتحدث عن نفسه أبدًا ولا عن ماضيه، لكن الناس عرفوا أنه كان مهندسًا ميكانيكيًا يتقن الإنكليزية والفرنسية والأفغانية. عمره لا يتجاوز الأربعين وهو صمام الأمان لـ «جهة النصرة» في «سراقب» ومحركها. ذكي جدًا، متزوج. إنه أحد أعضاء اللجنة الأمنية في «سراقب»، وكان في المحكمة الشرعية، ثم تركها. يقول أنه جاء إلى بلاد الشام لمقاتلة «الروافض» والظفاعة.

نقول امرأة من قريبات العائلة: «وأنتم رجال سراقب ليش سلمتموها للغرباء؟».

في تلك اللحظة، كان أمر واحد يشغل بالي: كيف سأعيش في هذا السجن، إذا كان من الصعب عليّ التحرك لوحدي، أو حتى الذهاب خارج البيت لأمتار قليلة دون حماية لي؟ هل سأتمكن من الماء؟ كما كنت أخفظ؟ وكيف يمكن ذلك دون أن أشكل عبثًا على هؤلاء الناس الزائعين، وسبًا في زيادة أعبائهم وتعاستهم أيضًا.

قد محمد «السوا» رح يجوا لعدك بكرة، أمان أكثر إليك» نظرت إليه وإلى نورا التي كانت تقوم بقصّ قماشة على الحصير. لقد سمع منهم ما أفكر فيه. «والله مو خايفين عليك من الناس، خايفين من نمرنقة والنصوص». وولاد الحرام» قالت نورا، وهي تنظر إليّ بحزن شديد صمت. لكنني قرّرت الذهاب إلى «كفرسل» الآن، أفضل وسبه نبشر النصب بالآمان. لقد صار وحوذي بينهم خطرًا عليهم.

مركز (علامي في «كمربيل» كان قد تعير كلياً، بيت كبير مكوّن من غرف عدّة، وهو مركز لاستقبال صحافيين عرب وأجانب ونشطاء ووسيطات كدو صطّروا للخروج من مناطق النظام بعد أن لاحقتهم قوّات الحديرت، وعادوا من الشمال للمشاركة في الثورة.

نسب له شرفة واسعة مطلة على بستان زيتون، وهو مطبّ صي
ضريح كـ . وكانت جلساتنا على الشرفة. هناك مركز للشباب أعد
لتشريب صبي حلاق إذاعة خاصة بريف «إدلب». قال لي رائد أن
«يهدف منها» هو إطلاق القضاء العام للحكي والكلام، وتناقض
من ذلك مساوغة وشاغرة». كان يرى أن هذا جزء من ديموقراطية

تدريسي، هو محور العمل هنا، ومرحمة الشطاء. حاند وعبد
له وأحمد، عبد، أسماء، هم ومجموعة من الشباب الذين بدأوا
بمظاهرات السجدة، كما بدأوا بملابس النظارات. وأحمد الترس،

من يأتي بين حين وآخر، وهو كالعادة، وكما رأيت للمرة الأولى هادئ وصامت. كانوا قلقين من بقائي في «سراقب» بعد حادثة حطفت مارتني، وأرادوا أن أبقى عندهم حتى لحظة معادرتي سورية. رائد يتحدث بشكل دائم عن أمل قادم. لم يفقد الأمل من نجاح الثورة، رغم كل الصعوبات التي تعرضت لها، ورغم تحول سورية إلى ساحة قتال بين مصالحة دولية. عبد الله يقول: «سموت أو تسحق الثورة، أو سموت وتغسل الثورة»، ويضحك. عبد الله شاب في العشرين من عمره، كرس حياته ومنذ ثلاث سنوات للثورة. رائد كان يعمل في قبل الثورة. حمود كان الرجل المثالي في العمل. معهم كانت انونت كان يقترب من الإفطار، واشعلوا بنحصر الطعام.

على الشرفة يترتعون ويقوم رائد بإعداد سلطة الخضار الشاب ثلاثة أذنين كانوا يعملون مع «باص الكرامة» وهو مشروع مدارس مخرجين الذي يعمل عليه مع رزان. هم طلاب جامعة في أوائل العشرينات من العمر، حسن طالب اقتصاد، ويوسف وعزت وفراس في أدب إنكليزي صائمون. يتحدثونني عن آلية نشاط العمل في مدارس الثلاث في «كفريل» وفريتين أحريش، وقيمة عرض الأفلام السينمائية والنشاطات الرياضية والموسيقية للتخرج الذين تركوا قراهم بعد أنه دفرتها طائرات الأسد.

كان رائد يذهب ليأتي بالحصار من «معرة النعمان» تحت ضغط يقول أن الحصار هناك أرحص وأفضل. نحن نتحدث، نضحك. رائد تدخل وتخرج من المطبخ مثل الميكوك ها في «كفريل» كنا نستطيع الحفوس في الهواء الطلق، ورؤية أشجار الزيتون. سمع نحتها أكوام من القمامة يتم حرقها باستمرار. نمركر كان بيتاً محتلاً من جيش النظام، ويبدو ذلك من آثار

الطلقات المستشرة فيه، ومن الثقوب في حدار المطبخ التي كان يستخدمها القناصة لقتل الناس. عندما خرج الجيش، قام الشباب بنظيره، لأن صاحبه وهبهم إياه، لكن آثار الخراب كانت لا تزال واضحة.

أسد رأسي إلى عمود الشرفة، وأفكر في أن رأس جندي كان هناك، وأن رصاصة احترقت جبهته، زعق اللاسلكي: «طائرة فوق التوقف، طائرة عند الساحة يا شباب»، وسمعا الصوت في اللحظة ذاتها التي أعلن فيها أذان المغرب وهي لحظة البدء بالإفطار، انضم إليا محمد العطار ويارا نصير وإبراهيم الأصيل، وهم من الشوريين النشطاء الذين كانوا يدخنون ويخرجون من الشمال ويعملون على تفعيل النشاطات المدنية. رأسي على الجدار، والشباب يحملون كؤوس الماء لبدء الإفطار. سحقت في وحيه بعضا. قال رائد: «يلا... صيانا ممولاً بجماعة»، وأنا أخذت صحنى ومكيت الطعام، كذلك فعل الشاب. حمود صعد المرح، وبدأ القصف... تركنا الطعام، اتجهت إلى أحد الأعمدة الداعمة وصرحت بهم ليفعلوا ذلك، كانوا تقريباً في الحراء، ونحوامه بصي أن القصف بالبراميل. ركعت وراء حمود وصعدت المرح. كان المشهد نفسه يتكرر في كل القرى. ولحقنا بعض شباب نصب نحوامة البرميل على مقربة منا، وسحابة العار لا تزال واضحة. صرح حمود: «ارنوا»، وهو وقف يراقب، رائد بقي واقفاً، ثم ركض بسرعة. ولحقه الشاب. كانوا كما يفعل شباب «سراف»، يمدون توثيق ما يحصل، ومساعدة الحرحى، والتصوير. كانوا يقومون بمهمة قوتة حتى نرثنا المرح. ومائدة الإفطار لم تمتد. قال محمد الذي جلس ووضع اللاسلكي في حوضه: «انظر اليوم أحداً حضاً... كل يوم قبل الإفطار أو في بدايته».

نحتم من بقي حول الطعام. كنا مدخن فقط. لم يمت أحد
 نقام أصاف المقاتل الأربعيني: «سذ بداية شهر رمضان وهم
 ينظرون أدان المغرب ويبدأون القصف إقا بالطائرات أو بالصواريخ،
 سمعهم يتحدثون على اللاسلكي». يقول المقاتل. «كيف سمعهم؟»
 سألته قال. «سمعهم بأذني هذه»، واستسم بمرارة، «مادا كانوا
 يفنون؟». «كانوا يقولون أنهم سيقومون بإعداد إفطار شهني لنا من
 براميل... ويضحكون»، وأنا نظرت إليه باستغراب! «أي والله يا
 مداء، منقط شو يضحكوا مع بعضهم وهتي عم يزثوا البراميل. واحد
 منهم وقل ما يزثوا البرميل: قله لرفيقه: يلا فطرهن للكلاب!» سألته:
 «وهل يتحدثون هكذا مع بعضهم وهم يرمون البرميل؟» أجاب: «ليس
 دنا، أحياناً، سوء حظي خلاني أسمعهم. هذا جزء من مهتاتي».

أبو محمود، المقاتل الحزين والخاصب، والذي أحاوره، كان
 سمع لأحاديث القطارين، هو أسمر الشرة ذو عيين زرقاوين. كان
 عمل في السعودية، في المقاولات، لمدة ست سنوات، ثم عاد
 «سرى سبارة وبنى بيتاً في البلدة. عندما بدأت التظاهرات السمية
 في برك عمه كسانق، وتمزغ للعمل الثوري المدني مع الشباب.
 بكر. مع دخول جيش الأسد «كمرنل» تغير عمله، وصار يلاحق
 محبين «السبكش»، كان هذا في الرابع من تموز سنة ٢٠١١،
 بعد ستة أشهر حمل السلاح، كان سلاحه بندقية بسيطة، ودخل في
 معركه ضد الجيش هو ورفاقه. السدقية الروسية كانت غير محدية،
 كم يقول، فأنى نقاصة كي لا يتعرف الناس إليه وهو يقاتل جيش
 الأسد. مع انواء فرسان الحق التابع لـ «الجيش الحر»، وعدم بدأ
 «الأسد القصف، ترك النقاصة وعمل على رشاش ١٢.٧، وهو
 «...» في مصاد طيران يقول إنه يحمي ناسه وأهله من القصف، رغم

أن سلاحه ضعف بجرح من بسبه صباحاً ويعود في نهاية اليوم. لم تترك بدته، وبقي مع روحته وأولاده. يرى أن طريقهم طويله، وأن دخول النصوص إلى الثورة مع بعض الكتائب الجهادية قد حرّبه لسانه وهو ينظر إلى السماء، وعينه أيضاً على اللاسلكي، ماذا سيفعل بعد أن يتوقف القل، يتسم بمرارة ويهز رأسه. «سوف أعود للعمل كسابق سيرة، رمي هد كله»، وأشار إلى الرشاش. قلها بعرف وأنى، ثم أضاف: «لم أكن أبوي حمل السلاح، هذه أداة موت وأنا أريد الحياة لقد قتل نظام حافظ الأسد أبي في سجن تدمر، حيث بقي مسجوناً لديهم إحدى عشرة سنة عندما اعتقلوني في فرع الأمر لثباصي، قل لي نعيد بهدوء ما تعمل بأولادك مل ما عمل أبوك ميت وهل تعرفين، أنا كبرت من دون أب، حرمني النظام أبي وحرمني من حقوقي المدنية، ولم أعترض. خرجنا في تظاهرات سلمية مضون وأن لا أريد نظاماً إسلامياً، أريد دولة ديموقراطية ومدنية، أنا واضح...»

سما هو يتحدث، عاد الشباب، ورووا لما حصل، وأبرزت سفت بقدسه، واسماء الجرحى. «المهم لا يوحد قتلى هه نسوم ساكل»، قل رائد كست أمتهر الفرصة لمراقبتهم وهم يشاؤون انقضاء، يأتي بعض الشباب ويخرجون. مقاتل آخر انضم إلى مجموعة كست اكمريل تستحق كل هذا الشاء في التاريخ القصير بنور انوريه كذبت الجيش الحر تسيطر على البدة، ولم تشر منها الكتائب والائوية الجهادية المنتظمة حتى تاريخ هذا اليوم، هي هدية شهر نور

حضر شباب ادم الكرامة، وكان يحب الذهاب معهم إلى مدرسة قريبة هي قرية بعد من ريف «كمريل». انضموا إلى مرهف

نحدث كان عن تفاصيل القصف. مثل خلية نحل، يدخلون ويخرجون. يعدّون الأدوات اللازمة للعرض السينمائي للأطفال رؤية هذا الإصرار لمتابعة الحياة تحت القصف تعني الكثير لي. هم لا حرة فيه في المجتمع المدني ونشاطه. كانوا يبتدعون صنوفاً من العمل مدفوع، حسن، الأسمر المتهكم، عزّت اللطيف المهدّب، ولكن دعك فراس الذي بالكاد نسمع صوته. عبد الله المنقّب بالتمساح، شاب حيوي الحميل مثل لوحة لفارس من العصر الفيكتوري...
رفهه جميعاً والغضبات تتوالى في حلقي، ولم أكن أستطيع حتى بحرف، وأنا أمصغ طعامي. يحتفون معي وأحتفي معهم بمشاركة موت. كان هذا يكفي ليكون أصدقاء موتنا المؤجل والحاضر دوماً يحب عدم التفكير دائماً في هذا الأمر، وإلا سأصاب بالحنون من فداحة الظلم.

و لأن في هذه اللحظة، واللحظة التي أنت في اليوم الذي تلاه، عند ضلت منهم ترك مهمة إعداد الإفطار لي، كنت أكتشف نفسي، لا نحدور الذائعة التي اعتقدت أنني أحيّد تقطيعها، جذوري في حننه، جذوري في الحب، في الدين، في العمل الوظيفي، في فكرة يوم، كل الحدور التي كانت تمرّ أمامي وأقتلع نفسي منها وأرمي ما سطر مني في تربة جديدة، إحلاصاً للحريّة والحقيقة المتبدّلة في عمري كنت فداحة، في لحظة سرّية، وأنا أمصغ طعامي وأراقب سفر حياة في شأهم.

في ليوم الثاني وأنا أطلع لهم، وتحدث عما يمكن أن يعنيه س. أكبريل وأخداها، وأقرى المحبّة بها، احتملوا بالماندة التي عندها، كأنهم تنفّسوا هدبة عظيمة عيوبهم دائمة الامتداد، وكنت أدرك في أعماقهم الحاجة الماشية إلى الشعور بأن ما حملوا به في

ثورنهم عندما خرجوا قبل ستين، قد تحقق بعضه، هم لا يريدون أن يصدفوا أن ما يحدث هو حرب طائفية، والدليل هو وجود هذه المرأة التي هي أبا سهم كانوا لا يأتون على ذكر الأمر إلا مزاحاً، كما حصل بعد أيام عدة وعندما بدأت الظائفة القصف، وكعادة مع أذان المعرب، دندن رائد بأغنية «بالذبح حياكم»، فرد عليه شاب وهو يدندن «فرقة رابعة». ثم بدأ الضحك والغناء. لقد حوّل هؤلاء الشباب أعينهم قدم في إحداها تنظيم «جبهة النصرة» في «نشر» جعل طفل صغير، يهتد العلويين بالذبح. وفي المقابل، كانت هناك أعباء باسم «فرقة رابعة» لطفل علوي، يتغزل فيها بقتل المناطق السيئة لثائرة بطريقة بديئة. كانوا يستخدمون الأطفال كأدوات كراهية الشباب في «كمريل» يعنون الأعين بسحرية ويضحكون، كأنهم يلغون معنى الموت فهما قُلت في قلبي. «لقد قهرناك أيها الديكتاتور، هي لحظة، وربما يموت بعدها، لكننا هزمناك، أنت تنتصر ربما، لأنك محرم ونحن أبناء سورية التي كانت .. في هذه اللحظة هزمناك»، لكنها لم تكن أكثر من لحظة، لحظة وموت، تكثف القصف بعدها وعرفنا في صمت تام

بعد أن ارتشها أكوام عدة من الشاي، كان من الضروري التحرك لندفع إلى مدرسة لأطفال تحولت عالية المدارس أماكن سكن نذرحس

لكهرماء مضبوغة وأصواء بعيدة تلمع في السماء. القصف مستمر في «مفرقة التعداد». ونحن نتركها حتماً ونذهب في الاتجاه المعاكس، حمام وأنا وروان وفراس وعزت وحسن.

كان عمي نقيب الأمر في رأسي ونحن نختار سائيس الزينوب واشبر، والسماء صافية، والقمر في أوج اكتماله بدرًا. إن ما يحصل

الآن هو أشبه برواية وليس حقيقة، وعليّ التفكير في أنّ هذه الضمت
والتكود، والبهجة التي تنقلب من السماء، ليست إلّا سحرًا خالصًا،
وهي ليست خوفًا من الموت. الهنئات الصغيرة التي تقطعها النداءات
القدائف البعيدة، تؤكد لي شكوكي بأنّ رغستي في الموت هي ما
يدفعني إلى العودة إلى هنا. ليست الرغبة فيه، بل الانفكاك منه
والذحول فيه، ثمّ ما ألدي يدفعني إلى الضحك الآن، وإلى نفس
نواء عميقًا وفتح النافذة ومدّ رأسي إلى الخارج، ونزكه يتأرجح. قال
عزت: «وصلنا».

كانت المدرسة تقع في قرية الدّار الكبيرة على هضبة، لا تعد من
«كمريل» سوى عشر دقائق بالسيارة. لا أثر لصوء. المدرسة تعيش في
غلام داس مثل القرى المحيطة بها لكنّ أصواء خافتة وشجيرة تلوح
من داخل العرف. يأتي رجل ويرحب بنا. رجل آخر، ينظر إلينا
بدرء، ويمضي. مجموعة من الشّباب الملتحيين، تقف على طرف
النّباح، تراف ما يحصل بمصول، الأضواء، معدّات التّشغيل حاضرة،
المرح موحود. الشّباب حضّروه منذ بداية عملهم. تدفقت من مسي
المدرسة مجموعة من الأطفال، وانتشرت بيسا، وعلا الصّياح وتعال
نضجكت والنّصراخ، وخرجت الأمّهات

هذه علاقة بالتكود والموت. وهي ليست لوحة يتمّ تحويلها إلى
سرد، هذه حقيقة يتدقّق الأطفال، ولا أستطيع تمييز حوهمهم في
النّضمة بقمرون، ويتمّ فصل البات عن لضيّان، هي مجموعات هذا
كـ عربنا، بعض الأمّهات تقدّمن متي، إحداهنّ تعيش مع ثلاثة من
أصداها. تدمر بينها في «معرة النعمان». امرأة أخرى تركت مدينة
«حلب»، وحاءت لتعيش مع أقرباء لها في «حلب»، فقد قُتل كثير من
عائلتها، وبقيت مع خمسة من أطفالها ها كانوا يقفرون حولها، طيلة

في العاشرة، بدأت تتقدم وتعني، صوته جهوري، وواضح، مبحوح،
لكنها تمسك بيد بؤمها التي فقدت النطق تحت القصف. كنت
هريس أنني تعني تحول إشرارك أحتها، قالت لي المرأة التي من
امعة نعدا، إنهما يتحطان، فتدخلت امرأة ستيئة، وهمست لي
بعضي بنو ما عم تشوقوا هلس شو عم يصير فيها، طيب وحا
لايمى بد يصل هيك. حملة العجور هذه اسمعها دائما عند
رور بعض بيوت في القرى المحيطة بـ «كفربيل» وفي وسطها أيضا
ناس تدعى نم يشاركوا في أشوة لكنهم آمنوا بها كانوا يفقدون
الأمم بعد حروبهم وحصارهم وقصفهم وقتل أولادهم. السبيبة
تمسكت مرفقي بقسوة، واقتربت مني: «فقدت ثلاثة من أولادي، وبني
رج نصف، والى الرابع عم يقاتل، وأنا هون مع ستة من أحمادي،
وهون، ثم أشرت إلى ثلاث ساء شابات. «هدون كياي». تبتست
أمامي

اشعل جوار العرش السماوي، وانتشر الضوء.

كان شاب يتحدثون مع مجموعات لأطفال، وقد صفوهم في
صفوف منصف المشروع يحاول إيجاد بديل مؤقت للمدرسة، كي لا
يسرى الأعداء في عرنة ويحتلقصف سيكون هناك جيل كامل لا
يحد من وكنه، وهناك محاولات لتجديد الأطفال، وقد نجح
في مدته «سنة» من قبل تنظيم «داعش» «حبهة التصرة» أيضا تقوم
بجد الأعداء

بدأ العرش، وأنفذ محبوس بينهم عرض تعبيتي وتلصبي
ورمهم، ثم حور مع الأعداء يتقدم الكبار أيضا يأتي الحيران، لا
هو صف ولا كهنة على اليسار مجموعة من الشباب المنتهين
من صف ببحري، قد في شباب أن هناك من هو غير رهي عن

عنهم، بحاسة في ما يتعلق بموضوع السيسما والزسم والندروس سي
نقذه للأطفال، لأن هذا يعدّ كمراً وحراماً، ولكنهم كانوا يراهم فقط.
ونه يسمعون النشاط. «من هم؟» أسأل. يقولون: «جماعة حبهة نصرة،
ومؤيدو داعش... وبعض المتشددين».

ثم أقوم بداية التشويش الحاصل والاضطراب الذي يشهده تكريسه في
تريف هنا هذا يعني، وإذا استمر الوضع على حاله، أن الشكل
نحية نمذبة كافة ستزول. لكن الناس يقاومون، هكذا نقول طبيعة
نحية. إن الطبيعة تتغير وتتطور في اتجاه المستقل وليس نحو
حاصي، لكن الخوف كبير من انكثبات النجدة ومشروعها لإقامة
دولة إسلامية.

في منتصف العرض، نسمع دويّ اصغار صحم، فسمع السمع
وعني، ثم ألمح الفرع في عيون الأطفال. صاروح يجر من فوق
(وبدأ نحية القرية الأخرى! على مقربة مما سقطت قديفة. ثم بصرح
حد لأنهم ركضوا واحتضنوا الأطفال. شابا بصرحون، وأحدهم
مكبر نضوت يقول «شو قلنا لما نقصف القلابة وترل قديفة. شو
معيل شو قلنا عن الاحتياطات؟»، لكن أحدا لا يسمعه. كانت
هذه مجموعة من التعليمات التي ألفت للأطفال في حالات كهذه.
أول الإسراع في الركض والعوصي، قد تنسب بأداة بعضهم بعضا،
كأن يدوسون بعضهم، واضعاً منهم يظنون تحت الأقدام وكثيراً ما
يعرف حركة المجموعات، ويقولون تحت مرمى النيران، بصرح رجل
أوقفوا شاشة العرض، اسرعوا تشروا اسرعوا وحسب النصف
عندما يهين شدة شاشة العرض، وتقرّب امرأة من

«لننت يا سني شو عم نعملوا» يدكون بعضهم البعض ويحتمل
عندهم مصابيح لنك يدهم باكوا ودهن يوقف من هاجره

الفصف روحوا وفصوه عن القصف، وبحنا بألف خير... الله لا يوفقك يا بشار. ويلعنك أنت وعيلتك المجرمة. أحييت: «والله يا حاتي لو فيا بوقه موقه... هاد اللي طالع بإيدنا».

الشباب يللمون قطع المولد الكهربائي وبقية المعدات.

انظام يعود شيئاً فشيئاً إلى المكان، والساحة تخلو من الأطفال ومن الكبار أيضاً، لكن وجوههم تراقبنا من زحاح النوافذ في عرفة المدرسة. تقول رزان: «إذا نزلت القديفة هيك ممكن يموت عدد أكبر منهم». فيجيب شات من جماعة المراقبين الملتحين متهاكماً: «هيك يكون حكم الله وقصاؤه وقدره».

حل الضمت هناك هيس غريب. السماء أظلمت. ليل مطلق. ولا حتى صوء صغير. الشباب يركبون السيارة.

في اليوم التالي سيتمكن الشباب، في المدرسة الثانية، من إكمال العرض والتحدث مع الأطفال.

المدرسة الثانية كانت حارج «كفر بيل»، وتقطنها حوالي خمس عشرة عائلة وهي أكثر من سبعين طفلاً. تتراوح أعمارهم بين الثانية والثالثة عشرة. عائلة المشاركي والمتحمسين كانت من الفتيات. انضام هؤلاء كانوا حذرين. ويقولون أنهم رجال ومكانهم ليس هنا أحدهم وهو في التاسعة من العمر. قال لي بعد أن طلبت منه المشاركي: «شو شافيني صغيراً بكرة رج أهرب وروح لعند حبة نصره». أن يعرف قوض. أخته اتسمت، وقالت: «كذاب». ما يعرف بعوض. كنت في العاشرة، وحيلة. فصرح بها أن نصمت، لأنه لا يجوز لها الكلام في حصة الرجال. لم يكن الضمت، اس التاسعة. نوحيد التي يفكر في هذه الطريقة، اس أح أحد المقاتلين.

كانوا يربطونه بالحبال، وهو لا يتجاوز الثانية عشرة، بعمود البيت،
لأنه هرب والتحق بـ «جنحة النصر» من أجل القتال. وعندما استطاع
أهله إعادته، ستمهم وشتهم وقال أنه بريء منهم لأنهم كفرة

كنت أشعر باليأس، فمهما كانت مشاريع الدعم النفسي والشموي
ونشأني وحتى الاقتصادي التي يمكن أن تغطي بعض مدارس
نشرجين، أو بعض التجمعات البشرية التي تعيش في العراء، فهي
عاجزة، أمام حجم المآسي اليومية وهولها. هؤلاء الأطفال بالكاد
يأكلون الطعام، وهم يعيشون في مزوج دائم، والأيام التي يحضر فيها
شباب «ناص الكرامة» لتعليمهم وتدريبهم غير كافية. حجم الكارثة
لابية أكبر من كل جهد يُبذل في سبيل إيقافها!

الأصواء المشحونة بالبطاريات كانت تنتظربا في المكتب رائد
وبعض الشباب شغلوا مولد الكهرباء عندما وصلنا. كان احتفاء
ممنوع الأهلي والمحلي بالناشطين العرباء كبيراً. حاتم الذي رافقني
سارته خلال وجودي بـ «كفرنسل»، كان بانتظارنا. يقول أنه أنهى
درسه الجامعية قسم الأدب العربي، وكان يحلم بأن يكون أستاذاً
حزماً، نكتهم قلوا بياضه أنه أحد الضباط، رغم أنها لم تكن
معجزة

بصفت حاتم الشامي لنا بحماسة، ينصرف متهدد شديداً اشق
عمر الجيش في الشهر التاسع من سنة ٢٠١٢، وهرب من دمشق عبر
جسر اللادقية، إلى ريف إدلب، وشارك في تحرير الحاحر الأول في
«كفرنسل»، لكنه بعد أسبوع رمى السلاح، وعاد إلى نشاطه المدني لم
يكن معجناً بأداء «الجيش الحر» ولا الكتائب العسكرية، هو لا يستطيع
معداة ما يحدث من قتل ووحشية، ويقول أن هناك سرفات قام بها
مقاتلون، هو غير راضٍ عن سلوكهم

في «كفرسل» نسبة تتراوح بين خمسين وستين في المئة من الأهري تعيش على زراعة القمح والزيتون، ولا توجد تجارة. السكان بعاليهم من الموظفين والمتطوعين في الشرطة والحيش، ومنهم من يعمل في نسج، ومنهم نسبة من المثقفين والمتعلمين وقد ردت أحد هؤلاء لهدر كامل. وهو كاتب، لم يعادر «كفرسل»، بقي مع زوجته وأولاده وأحفاده بعد أن استشهد أبوه في القصف، صار يهتم بأحفاده.

حسام من الشباب الذين لم يحدوا فرصة للعمل، وعندما كان في الحيش، كانت خدمته في الفرقة الرابعة، قال أنهم في الحيش رفضوا إعفاءه إجازة العقيد الذي يشغل منصب رئيس قسم الهندسة في النجف، طلب منه تمجيد سيارة «ساما» لونها فضي. فعلاً، وصلت السيارة إلى النجف ٤٦، وكانت سيارة مدنية. ولما سأل عنها قالوا أن العقيد اشتراها، وهي ستستخدم لمحاربة العصابات الإرهابية المسلحة كان العميد وحسام يشتعلان بالسيارة الساعة الثانية عشرة من بعد منتصف إحدى شبلي، وتم تجهيزها للانفجار هذا العقيد خضع لدورة على يد خبراء روس بحكي حسام قصته بعصب. بعد الدورة، هم يتعصب منه، وكنت أرافقه بالمروحية، إلى تل رخال، وكان السكان محاصرين بالنجف، والعقيد يتحدث مع قائد الكتبة ويسلمه بموت أسفه. عرفت أن عمل السيارة سيكون في منطقة حرب، وكب أصغر فئة العصابات المسلحة. بهز رأسه بأسف. كان يروي فضله جيدك والسيارة تحارب في القرى المحيطة بـ «كفرسل»، ونحن نسير أثار قطع الأشجار وحرق الأثار واجتماعات البشرية التي تشر في النجف. كان هذا يشبه عودة الإنسان إلى الوراثة آلاف السنين، كأنهم من الغيب حياة. أطفال ينامون تحت الأشجار وبار تشتعل بين نحرارة الضحمة ووجوه حرقها الشمس أطفال وساء وقليل من

ترحال بهم الرجال يذهبون للقتال، أو يموتون. وحسام مستمر في
مره فضة. «أحببي العقيد، أن السيارة صارت جاهزة للتفجير، وأن
م برمه هو تركيب الضاعق فقط. هذا يعني أن أي شخص سيركب
سيارة، بعد تركيب الضاعق، ستمحرقه، حالما يُشغل محركها في
نكث ليلة، أيفظي العقد الساعة الثانية عشرة.

لا يتوقف حسام عن الكلام، تحت قيط الشمس، والعرق يتصب
منه. وسهوب من الأشجار المقطوعة أمامنا، يمسح جيبه بمسديل
مسبلاً. «العقيد قال لي أن اثنين من الشباب، سيذهبان معي لتركيب
ضاعق ودهست مع الشاتين، كانا صامتين، ولم يتفوها بحرف، ولم
يدعني أَسْتَتِي. طننت أنا سدهب إلى أرض المعركة، وكنت قلقاً،
كنتي كنت أقوم بخدمتي الإلزامية، ولم يكن مسموحاً لي محالمة
لأمر في طريقنا، عرفت أن هذين الشاتين الصامتين هما من
مخابرات الحوية، والمفاجأة الكبيرة كانت هي أن السيارة التي دهب
بها دفعت في ساحة القابون الرئيسية. ترجلت منها وإذا بسياريس
معدن معدن. قال اشابان أن اللواء حميل حسن، يطلب منا العودة
إلى سيبريس، أنا بإحدهما والشاتان بالآخرى. كان ذلك مباحثاً
معدن بالغة لي، لكنني طلت منهما جيداًك جهاز «الراشدة» الذي
معدن لإشارة، كي أتمكن من وصل الضاعق ما فعلته أنني وصلت
معدن بالعكس. بحيث لا يصحح، لأنني لو كنت وصيته بالشكل
صحيح لا يصحرت عوة وزبها حمسة وثلاثون كيلوعراماً وأدت إلى
حصور محررة في ساحة مكتظة بالناس ما فعلت أراحي كثير
معدن عملي وعدد كافي منا إلى مكانه هي اليوم لشيء صاخاً، عذرت
معدن خدمتي. صدقيني لقد صدقت أنه يوجد برهانون وكنت متحمس
معدن منعاع عن بلدي صدهم، لكن ما حصل جعلني أعرف الحقيقة

لقد كانت عصاة الأسد هي الإرهابية».

هذه قصة حسام الذي يشاركنا الجلسة، ويعني، ونحن نرتشف الشاي.

كان من المفترض أن يروي رائد اليوم حكاية «كفرنسل»، وكيف بدأ الثورة، وإلى أين انتهت، لكنه قال أنه سيفعل ذلك بعد دهب الجميع. وأنا وروزن كان علينا الذهاب قبل الساعة الثانية عشرة إلى البيت. هذا أفضل، مع أن الشباب ما كانوا ليركوبوا تتحرك وحدا. وهذا كان سحناً أكثر، فحس نساء وعريسات، وحالياً حتى نساء البده لا تتحرك بمردهن، فقد كثرت حكايات الحطف والسرقة والقتل.

اشتمت العبيبة التي هبت من بساتين الزيتون أرالت تعب النهار الطويل الذي يحتاج إلى روايات طويلة للكثافة عنه، وأختصره ببيع حمل الشهر الذي يحوي السماء الزرقاء وأصوات الطيور، والتحام السماء بالسهوب الحدوية، عيون الناس القلقة وهي تتجمع أمام البيوت قبل موعد الأذان، وحركة التوق الضعيفة، ثم ذلك اليأس الذي أكدته الحادثات التي رزتها، لا يريدون حكم الأسد المحرم، هكذا كانوا يصومون، لكنهم، في المقابل، لا يريدون حكم الدولة الإسلامية والانحلافة والعودة بالتاريخ إلى قرون مضت. شاب يدرس في الجامعة، ولم ينحز بالعمل العسكري، قال «نحن نحت احتلالين، الاحتلال الأسدي، جاء بالاحتلال الجهادي التكفيري، لقد تعبنا»، وتصيب أمه: «نعا ويريد أن يعيش... يا الله... يا الله»، ثم ترفع يديها نحو السماء. حصل هذا في دكان صغير، فيما كنا نشترى بعض المواد الغذائية قرب المكتب. لا يمكن الحديث عن هذه الأمور بساطة الأمر هاء كيف يأكلون، ينحشون؟ كيف يرودون بعضهم، ما الذي يريدونه؟ ومن بقي منهم على قيد الحياة؟ كان ذلك صعباً، لأن مورهم

بواصح من الإعلاميين والصحافيين كان يزداد. أحدهم من أصحاب
مجان، صرح وأنا أصور بجهاز «الآياد»: «يا أسة... إذا صورتها
بجي النظام يفصصها، يرضى عليك روجي من هون، ماتوا اتبين من
ولادي وكومة الحجار هي... كانت بيني». قلت له «تكرم يا عم»،
وبصرفت.

بعد انصراف الشاب، بقيت أنا ورائد ووران وحسن وعزت
وحنود، وكانوا يحضرون للرسم على جدران «كفرنيل» صباح اليوم
ثاني حذرهم ونوحات الكاريكاتور التي يصورونها ويوزعونها
جمع أنحاء العالم، كانت وسيلتهم الأقوى لنشر معاناتهم. لم يكن
إلهي ردي على رائد، وأنا حاولت الاستفادة من حيويته. أسامة
بني يعمل في الإذاعة داخل القوس، حضر واتفقت معه صباح اليوم
ثاني على تدريب الشباب على إعداد البرامج الإذاعية. قال أنه سيقى
مع، ففنت «لو شرب قهوة، أمامنا حديث طويل». قال: على
سي والله. فهم نماما ما أردته. لم يكن بحاجة إلى كثير من
سمع كان دكا حذا، ويدرك أنه يقود مجموعة، ولم أعرف ما إذا
كنت هذه مبرة إيجاعة أم سلبية، ربما تنصح في المستقبل. حتى الآن
نفس تحببه أن الثورة كانت بحاجة إلى قيادات محلية مثل رائد
من «نداء أنت احك وأنا ساكت».

دخل شتان، وكنا في بداية العشرينات، قال أحدهما «شو مدام
كل شي مدام؟ هون ما في حطط ولا شي، أنت بامان» شكرته، ولم
سبه من هو، فقد أعدت على دحون الشاب وحروجهم للاطمئنان
مسي بعد حطط مارتر، فذرت بأنهم يشعرون بأن من أنديهم أمده
لحب الحطط عليه.

بدأ رائد حكاية كفرنيل والثورة، وأنا أكتب ما يرويه «نداء

الاحمات في شهر شباط ٢٠١١. كانت هناك مجموعات تكتب
 الشعارات على حيطان كفرنيل ضد النظام في آذار، جلسنا بشكل
 محدود أن وثلاثة أشخاص وبدأنا التنسيق لم يكن لدينا أي اتصال
 مجموعات أخرى في سورية تواصلت مع الشباب بسرية تامة، لتحقيق
 ثورة على نظام الأسد. نحن نستحق أن نعيش. بالتسبة لي، أردت رؤية
 رئيس آخر لبدي. لا نريد أجهزة أمنية مجرمة. نريد قضاء وقانون نحن
 نستحق دولة. ولنا عيداً عند آل الأسد اتفقا على خروج أول مظاهرة
 في الخامس والعشرين من آذار فشلت المظاهرة، وحينها أقام عضو
 فرع حزب الشعب احتفالاً بنفس اليوم، ومشوا في كفرنيل في مسيرة بأيداً
 مشددة، وهو ما حققنا للحزب في الجمعة التالية، ومن دون هدف.
 كانت مظاهرة قوية، وكنا حواري مثني شخص أو ثلاثمئة. نصنعهم كانوا
 مدسوسين من الأمر، لأنهم أرادوا معرفة ما يحصل المخبرون كثير في
 كل مكان في سورية، وكفرنيل مثلها مثل كل المدن والبلدات والقرى
 صوّرت المظاهرة وبشرها في الأسبوع الذي يليه لم نخرج، بعد أن
 اجتمعت مع كسر لعائلات ومنعونا من الخروج، وتم تشكيل لجان
 شعبية ووقفوا على أبواب الحوامع لمنع المظاهرة، نحن لم نرد سوى
 انظار ضد نظام الأسد والاحتجاج والمطالبة بدولة قانون وقضاء، لكننا
 عذب وحرقنا في اليوم الخامس عشر من نيسان، وكتبت التاريخ واسم
 كفرنيل، وكنا نحمل علم السماء، وكتبت على اللافتات. بالروح بالدم
 عديت يا درعا يا ناياس. الله سورية وحرية ورس. لقد حرقنا رعداً عن
 عتلات التي كانت تحرق إحرام الأسد وفي يوم السابع عشر من
 نيسان، صهرت عصراً لأنه يوم الاستقلال، وبادياً بإسقاط نظام الأسد،
 وكنا ديت على اللافتات وصوّرتنا حامت سيارات الأمر، وحوالي
 مثني عصر محذرت. ووقف في مواضعهم سلميين. وتجهوا رصاصهم

حولوا هم وجهوا رشاشاتهم نحو صدورنا وسحبوا وقفوا عزلاً ورفع
 شارة النصر انسحبوا. تركت بيتي وتخفّيت، أم والشباب. لم يعد سام
 في بيوتنا. يأتي في النهار يرى أهلاً، وفي الليل سام في العراء، وصر
 صرخ بشكل يومي في مظاهرات، وكانت الحاضنة الشعبية ضعيفة لأن
 لماني كفريل حائفون، وهم لا يزالون يتذكرون أحداث حمراء ومحررتها
 في عام ١٩٨٢، والتي راح صحبتها خلال أسبوع واحد أكثر من ثلاثين
 من قتل على يد قوات الأسد الأب ومخابراته. لم تتوقف عند كفريل،
 بل ذهب إلى القرى المحاورة، وندفعهم إلى الخروج ضد النظام، قرية
 حبرين، حبالا، معرريت، حاس، الهبيط، كفرعويد كل يوم مستقل من
 قرية إلى قرية. ودهنا في المظاهرة مشياً على الأقدام إلى معرة النعمان،
 وخرج مع أهل المعرة. في الثاني والعشرين من نيسان، كانت أول مرة
 تكبرس فيها لافتات كفريل، واستمرت منذ ذلك الحين كل يوم جمعة
 وصارت تنفيذاً يورعه على شبكة الإنترنت، واصم الكثير من الحائضين
 س. وصارت تتراوح أعداد المتظاهرين بين أربعة وسبعة آلاف شخص
 مع ذلك، كان خوف الناس من مواجهة المحاضرات كبيراً، لم أسي
 س. ومن يرمي عليا التورود والأرز ونحن نصرخ مطالبين بالحرية

يوسف رائد عن الكلام متأثراً. يرسم خطاً بإصبعه على الحصى
 من أن يجعل سجادة. كان يرتفع فوق حصى بلاستيكي، ومجموعة
 وسد هوية أن محذرة بسبب الشعب الشباب يصعدون لإحلال، رغم
 هم شاركوا في كل الأحداث يسارع رائد. كنت معنوس نلأس،
 ذكر هذا بعد ذاته يجعل الناس تحذف الاقتراب منا، وفي الثاني من
 س. دهم رحل الأسر بيوت الصبيحة. كبروا بيوت الناشطين بعد
 معمرهم. وعنفوا حولي حماساً شديداً، وعصم شباب من
 معمرهم. ودعوا إليه، هذه بعض الناس س. ثم ألقوا معمرهم

بحواجز من حجارة، وأشعلنا النار بإطارات السيّارات، وهدد بحرق الشرطة والمحفر، إذا لم يخرج المعتقلون، وذهب وفد من كمبريل لمفاوضة النظام على خروج المعتقلين، وعادوا حائبين في اليوم التالي، جاء أمير فرع حزب البعث، وسأل عن مطالب الناس، وكانت مطالبنا كالتالي: كف يد الأجهزة الأمنية عن الناس، وحل هذه الأجهزة، وتغيير الرئيس. نحن ناقشناه بشكل هادئ، ولكنني عندما قلت أريد لسورية رئيساً مختلفاً عن الأربعين سنة الماضية، سكت أمين الفرع، وبعد دقائق، قل: أنه لا يريد شعارات في اللافتات ضدّ بشار الأسد، ولا يجب أن نلعن روح حافظ الأسد، وهذه هي الطريقة الوحيدة لخروج المعتقلين. نحن لم نلعن روح حافظ الأسد، كلامه لم يكن صحيحاً، نحن فقط هتفنا لإسقاط بشار الأسد. في السابع من أيار، أحرينا انتخابات ديمقراطية للتسيّفة^٩ أقاطعه. «كيف بدأت التسيّفة، وكيف تشكّلت؟» يصحك، ويقول: «والله منها لحالها». ويصحك حمداً.

كسب أصوات النقص بعيدة، ثم اقتربت أكثر، وكنا نلتفت إلى مصدر الضوضاء، قل حمود «ما تخافي ما يطرّ اليوم بنقص»، ردّ حرس «لا عنها نخاف، لأنه ممكن دائماً بنقص!»، فعلا الضحكت وانهمهم لا سوفهم عن الضحك، بتفسونه كمضاد حيويّ للموت!

سمع رائد بدأت التسيّفة بشكل عمويّ، في التظاهرات طهر أنحصر أكفء وبشطاء ومهمّون كتب خمسة عشر شخصاً، بأسر انشده المحدثي، وحرس الحمرا وأنا. . ولم يكن هناك اسم تسيّفة مددوا كتب نحة. ولم نخدم حينذاك المايستوك، كان هذا منه ثم سنة ٢٠١١. مع كلّ ذلك شكل عمويّ وارتحالتي، وأردنا نظم حركات شعبية اجتماع في بيت أحدينا، وانتحنا سبعة أشخاص

للمهئات السياسية والعسكرية والإعلامية والتطوعية، وعندما شعروا بأن
 شرعية هؤلاء المنتخبين ليست شعبية كافية، اجتمعوا في المركز الثقافي
 وأحرقوا انتخابات وأخبرنا جميع الناس، وتشكلت تنسيقية كفريل. في
 اليوم الأول من تموز، وكانت «جمعة الإرهاب»، خرجنا بمظاهرة
 كبيرة. لكن يوم الرابع من تموز، دخل الجيش وقطع أوصال المنطقة
 كلها، نحن هربنا من كفريل. كنا حوالي ستين ناشطاً، وعشنا في حيم
 في انغراء والساتين وقرى أخرى. لكن الناس كانوا يطردوننا من هذه
 القرى خوفاً من الجيش وأجهزة الأمن. في كفريل، كان هناك تسعة
 حواري للجيش، وحوالي ألف وسعمئة عسكري ومئة دبابة ومئة عربة.
 دُحقت حصة وكتنا لافتات داخل كفريل، رغم وجود القنصة والجيش،
 وخرجنا في مظاهرة من جامع العقبة، فتدخل الجيش وأطلق النار،
 هرب ثمانية الجمعة التي تلتها، يوم الخامس عشر، خرجنا في مظاهرة
 وب كفريل، في معرة صرما حملنا اللافتات ووقعنا عليها اسم
 كفريل. كان لا بد من العودة إلى كفريل، وعندما يقوم بالمظاهرة،
 يهرب من أمام الجيش. يصربوننا ويطلقون النار، ونهرب. كنا
 سمسر ونم يكن لدينا قنلى، وكانت مظاهرات النساء قليلة خرجت
 معهن سانية يوم الثالث عشر من أيار.

بوقف، وأنوقف أيضاً. ارتشف قهوتي، وأشعل سيحارة. انظر
 ٥. بنقل القمل وأشجار الزيتون التي تحيط بالبيت

«وكيف حملتم السلاح وتحولت الثورة من سلمية إلى مسلحة؟»
 ٦. فاجأ «لم يكن بطل أن الطام سينقى، كنا نحترق أننا نستطيع
 سحره بالإصرار والمظاهرات السلمية، لم سوفع ما حصل، لكن
 فعلا حملنا السلاح»

بمولد شاب عاصف، كان قد دخل ووقف أمام الباب: «شو يعني

كانوا هم يقلبون ويقصمون، شو معمل مسوت؟! ليش محد يد
سلاح؟!«

يباع راند "في حمعة العشائر، كان هناك مستودع محروقات
لحيش، اسمه لال وادي الضيف، وم يران حتى اللحظة هه
المستودع فيه سرية حراسة. نحن في حمعة العشائر، ضربنا مقر الأمر
العسكري في معرة النعمان، بعد أن سقط لدينا شهيد، وقسم من شارب
تواصلوا مع عسكري في وادي الضيف، وأخذنا من هناك ٣ بندق.
وحننا بها إلى كفريل، واستطعنا استعارة ست بندق أخرى. أصبح
عندنا ثمان عشرة بندقية. وطمرناها تحت التراب في بساتين الخس.
وصرنا نحرقها بهزار من التسيقية عندما نريد الذفع عن بيوتنا، وفي
هذا السلاح مضمورا ولم يستخدم، حتى دخل الحيش. حينها قرر
حمل السلاح ونسبه من تحت التراب، ووضعنا شروطا بحممه، لقد
معنا ذلك مكرهين ورعنا عما، لم ولا نريد حتى اللحظة السلاح
واستخدمه بده في حالات الذفع عن النفس، كنا نعيش في الغراء
والجاء ويوم سلاح نذفع عن أنفس صد وحوش التربة والوحوش
الأممية. يوم السادس عشر من آب خرجنا بمطاهرة. هجم الحيش
عقب وانتشر في نهمه. وبدأ حملة اعتقالات واسعة أحد الشباب
حاولت أنه ستعدده من بين أيديهم بعد اعتقاله، فرموا أرض،
فوقعت، وكشف رأسها على نمل، ما استمر مشاعر الناس واجتمعوا
مع شباب، وجمعوا السلاح، وذهبوا إلى حاجر العذار، وقرروا نزل
على بيت شرف كان مع بندقية واحدة وقناصة نقيبنا سامعير،
فمن منه عذير من الحاجر، ومنهم نقيب في الحيش هكذا بدأ
نعمل الصبح في اليوم الثاني لتلك الحادثة، نزل الحيش بكثافة بين
ناس، وعمل كثير منهم، وحوزوا معمل الستودع معتقلا لهم.

وكسروا البيوت. كان الاعتقال جماعياً وعشوائياً... لقد كنا مجرد مدنيين وننظّاهم! أنا كنت أعمل في لبنان قبل ذلك، وأن مسلم ولكني زبّد دولة مدنيّة ديموقراطية، فما الذي فعلناه حتى يحدث كلّ هذا؟ صرنا نعيش في العراء، ولم يكن بيننا مثقفون. نعرف بعضنا لآنا أبناء بلدة صغيرة، ونحن أقرباء. وكنا من سبع إلى ثماني مجموعات غير مسلّحة، ولكننا صرنا مسلّحين بعد ذلك، هناك أشخاص رفضوا حمل سلاح ونفوا ناشطين مدنيين. وكانت هناك ست مجموعات مسلّحة أصبحت سبغاً. كلّ مجموعة كان فيها من عشرة إلى أحد عشر شخصاً. يرأسهم رجل كلمته مسموعة ومحترمة. كنا نتورّع فقط لنذوّع عن البلدة، وبدأ المتعربون من أهالي كفرنبيل يرسلون إليّ المساعدات. وصرنا بنفاسمها. بدأ ذلك في شهر آب ٢٠١١، كنا نعطي الرجل مئزج ستة آلاف ليرة سورية، أمّا العازب فعطيه ثلاثة آلاف. كانت حاضنة قسبة والناشطون قليلين. في شهر تشرين الثاني، أنشأنا أول كسبه وكان اسمها: كتيبة شهداء كفرنبيل، وصارت لاحقاً جزءاً من جيش نحر. حققتنا اقتصت بضرب مواقع الجيش ليلاً، اثنان يقودان دارة دارة، يضيقون النار على الحاحز ويهربان، ثم يصرب الحاحر عما كلّ الليل. وفي الوقت نفسه تأتي درّاحة عليها اثنان من جهة مدله ويضيقون النار في اتجاه الحاحر نفسه. نحن نصرّبهم، وهم يقولون مسعصص صواب الليل بهذه الطريقة، كنا نصرّبهم من التحرك ليلاً وصرنا نعدّس نقوم بهذه العملية مع الحواحر التسعة المحيطة بكفرنبيل. بشدّد على حمته الأخيرة، كأنه يريد تقديم تبرير ما

بكمون الجمع. كنّا نعمل ذلك لأنهم كانوا يؤدّون أهمّ ونحن أردنا عدم لأدى بهذا الشكل، يكسرون بيوت ويمتقنون ضابّات. لقد أردنا حاميهم فقط في هذه الفترة، اشقّ المقدم أبو المجد هو أول ضابط

مشق، والتفيا به، وأراد العمل معا. خفا بداية، لكننا عملنا معا
 لاحقًا، وصار قائد كتيبة شهداء كمرنل، والتي صار اسمها كتيبة فرسان
 الحق، صوّرها وأعلنّا تشكيلها عبر رابط فيديو. حينها كان الناس
 يحترمون ويطربون إلسا بهالة من القدسيّة، ويتبرّعون لما بما يستطيعون
 ويقدمون كل أنواع المساعدة الممكنة. كانوا هي غاليّتهم مع الثورة،
 ونفيت الحاحية الشعبيّة للثورة تتراجع وتتقدّم بين حين وآخر صر
 يصع العامّا محلّيّة أمام عربات الجيش، بالسّكر والسّماء، وبمصر
 الموادّ مع قليل، وذلك كي نحمي المظاهرات من تقدّم الجيش. وهذا
 بدأت الناس تشعر بالانزعاج من تخريب الطرقات والشوارع
 والمحجرات كانوا صد ما فعلناه، ونحن أردنا منع دخول الآليّات
 العسكريّة إلى كمرنل. اختلعا مع أهالي البلدة من أجل هذا التّكتيك
 الحديد. ماذا كنّا سنفعل؟ كان شابنا يموتون تحت التعذيب، ووجدنا
 حتّهم بعد تحرير كمرنل في حديقة المدرسة التي كان يوجد فيها
 الجيش. وإرداد غصص لأهالي من عمليّة تبادل إطلاق نار المستمرّ
 ساوس الحش، لأنّ السيّوف تتضرّر وتتخرّب. وازدادت حدّة القتال
 في الليل والنهار وصارت الشوارع مسرح حرب، ومعها إرداد غصص
 لأهالي، وصر صمغاء بحر أنّهما الأهالي بالتقصير في حقّا وتركنا
 نوحدها، وأنهم بنا تدمير السّدة ونخلت عنا الحاضنة الشعبيّة، ولم
 بعد لأهالي بقدّمون لنا المساعدات. وعندما قامت الهدنة بين الجيش
 النظامي والجيش الحرّ، كان لدينا أمل بالصّعظ قبل موعد الهدنة في
 يوم الثّامن من الشهر الرابع، حينها جاءت المساعدة من الجيش
 العسكريّ، ووصدنا سلاح، وكان هذا في نهاية شهر نيسان سنة ٢٠١٢.
 كنّا نشري فدائف أر بي جي. وتكون عبر صالحة للاستعمال. جدد
 بحار السلاح، ومات أحد الشاب بسببها، لذلك وجدنا أنفسنا

صغاء، ولكن مع مساعدات المجلس العسكري، وصلت عشر قاذفات
 روسية حي جديدة. أظن في تلك الفترة، انتهى عصر الأسد في
 كفرنبل، وبدأنا بضرب الحواجر. كان حاجر العبار هو أولهم، وكان
 هذا في الشهر السادس. حينها بدأ جيش النظام بقصفنا بدبابات،
 فدافع المورديكا، وكما تربن الآن، قد تسقط علينا قذيفة في أي
 لحظة كانوا يقصموننا بشكل دائم، ونحن لم نتوقف عن القتال، وعن
 محنتهم، حتى قمنا بتحرير خمسة حواجر. كانت لحظة التحرير
 حافلة قد بدأت الساعة الثالثة صباحاً. زرعا حول ساء الحيش
 لأنهم وفجرائها. كان حاجر من قرية حريزين بدباباته، ومركبنا في
 مساحة صغيرة، وصاروا يقصموننا من الحواجر، ونحن نهرب في كل
 الاتجاهات. وانقص بلحق بنا. حلست حينها قريباً من القصف،
 وكنت نقاعة، كنت أنتظر الموت. ثم انسحبا، واعتقدنا أننا سنأتي
 بحرية في اليوم التالي، لكن الحواجر انسحبت لمقر البلدية،
 حواجر الأخرى ذهبت لوادي الضيف، وبقي فقط حاجر البلدية،
 وثلاثة حواجر في كفرنبل، يعني كل الحواجر المحيطة بنا في القرى
 سحب إلى وادي الضيف، في تلك الفترة، بدأنا نكتب كفرنبل
 بحرية، بعد أن كنا نكتب في لافتاتنا كفرنبل المحتلة، وكان هذا في
 شهر السادس من سنة ٢٠١٢.

بعض حمود، وقال بحبل "الارم ينتهي الحديث"

كنت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً، وانتهت إلى أن
 سمع حاداً من الأسم يجرح من أسفل ظهري وينتهي في أصابع قدمي.
 "رحمتي متبستان ولا أستطيع التحرك" بعض رائد وقال "عذ
 خصرك، وأن تم أستطيع التحرك، ولوهذه حبل إلى أننا نجرح من قعر
 عمود، وأنني عندما أكتب، أنه ورقة شجرة سقطت من راسه وداسه

الأقدام واهترأت وتحولت عبارةً يرحل نحو قمة جبل بعيدا!

هكذا ولا شيء أيضًا يمكن أن يحول الحياة هنا إلى معجزة
كيف لي اختيار الموت بهذه الطريقة؟ وأين يكمن كل هذا الشرّ
السهل؟ الشرّ الذي حرق فحاة من الجحور، وتوزّع في الهواء شرّ
يولد شرًا، هي دائرة لا متناهية من الدوران، وها نحن نصعد في هذه
الدائرة الحزينة. أنهض وأشعر بأنني أصعد في زوينة من الشرّ، ولا
حار لي سوى الاستسلام لهايتها وحده هواء الليل ونحن في الطريق
إلى البيت، ألقني من ذهول هاويتي.

كان صوء السيارة يشقّ الظلام الكامل، ويحب الصعود إلى بيت
رزان. كنت تستغل فيه النشاطات اللواتي يأتين للعمل المدني في
المناطق المحررة، ثم تصاعل وحود النشاطات والتشطاء، لأنّ عناصر
«داعش» وبعض لكتائب المرتقة يحطمونهم، و«جهة التصرة»
تلاحقهم كبوا سطرون إلى الناشطين المدنيين بصفاتهم كفارًا، وقد
بدأت عمّات اعتقالهم وحطيمهم وتصفيتهم منذ أشهر، مع ذلك كانت
كفريل تتمتع بحصانة، لأنّ وحودهم فيها قليل، لكنّه بدأ بالظهور.

وحودي بالنسبة لنشأ هنا أيضًا مسؤولية كبيرة. كنت ألزم بكلّ
ما يفرضه حرب، وعقدت انعم على الذهاب إلى المعركة، أو على
الأمّل إلى أحد خطوط الجبهة لا أعرف ما كان يدفعني إلى ذلك.
رنا هي لعلاقة مع لحمية ليست الحقيقة المطلقة، بل النسبية. كان
يجب أن أرى كل شيء بأه عسي. في العودة إلى سورية بين وقت
وآخر مسنّه ومنكرة، نه يكن فقط من أجل إنشاء مراكز تنمية لنساء
أو مدارس للأطفال. لقد كنت أبحث عن علاقة ما مع هذا نشر
التماسيل من أسس الأشياء. أبحث عنه، عبر الكتابة عن حقيقته. ما
هو وما أصل سهوته! أحور فهم الشرّ، لأنني لم أكن أستطيع التوحيد

على الصفة الأخرى، حيث يتم تصنيعه، في المناطق التي يسيطر عليها
النظام، وما على هذه الأرض حيث أقف ينمو الشرّ باعتيادية.

ربما كنت أعود لأواجه المرايا الموشورية التي قطعت أوصالي
وحدوري. ففي هذه الحرب التي بدأت تأخذ أبعادًا طائفية فرضت
عليها، كنتُ وحسب المولد أنتمي إلى ذلك المكان، ولكني أيضًا لا
أنتمي إليه، وحسب الفهم المنطقي لعلاقتي بالحرية، فأنا أنتمي إلى
هذا المكان الذي أضطرّ للتسلّل إليه سرًا، وبرفصني، بعد أن احتنته
الكتائب التكفيرية.

توقفت السيارة، وكان يلزمنا المرور عبر ممرّ ترابي، يوصل إلى
البيت. أنا ورزان نصعد الدرج، معاً مصباح كهربائي صغير، وفي
البيت نصنع المصباح على رفّ صغير في العرفة، لإضاءة المكان. شخصه
كأن يتم في المركز الإعلامي، فالكهرباء مقطوعة بشكل دائم. الماء
أيضًا مقطوعة، وعلينا الاستحمام بتقشير، والنوم تحت ملاء لأنّ
التموص قد يلتهمنا! هذا ما قالته صبيّة لي وهي تعالين وجهي صباح
اليوم التالي وآثار اللّسعات بادية عليه!

تحت بيت رزان، غرفة واسعة يعيش فيها برحون. خمس
عائلات متقاربة، مع عدد كبير من الأطفال. تركت بيوتها بعد قصفها،
حيث قُتل ثلاثة رجال منها، ولم يعد لديها مكان يؤويها. تتجمع بساء
العائنة تحت الشفدة. اثنتان مهّن حاملان أسترّق السمع إلى أحاديثهنّ
وأنا أصحو كنّ بحيلات حدًا، حتّى الحاملان مهّن يدهشي حمل
عيون أطفالهنّ صاخًا.

وأما أفتح النواة الحديدية لأراهم وقد احتشدوا تحت شجرة الرّمان، وفوق الأحجار التي تشكّل سورًا للبيت المقابل، يحدّقون بي بمصول. شبه عراة، حفاة وشعورهم لونها أغبر، وجوههم متسخة. أحلس معهم تحت الشجرة، وكلّ منهم يروي حكايته.

في كلّ مكان تتحرّك فيه، نجد نازحين وعوائل مشردة. اليوم ومحر نصح لبلّاء. كانت الطبقة الأولى مظلمة، وكنت أفكر في الأطلال، وأتهم الحامل. أروهم قتل في القصف، وعمّهم أيضًا. عنهم الثاني، يأتي ويذهب بين وقت وآخر، وهم جميعًا لا يذهبون إلى المدرسة مدّة سنة ونصف، وينقلون من مكان إلى آخر، ويأمرون أحيانًا في العراء.

أقول لوران ومحر نصح الدّرح متسلّتين حتى لا نوقظهم. «إنهم بام»، تقول، وقد بدا اتعب عليها. «أريد تدخين سيجارة بهدوء».

اكتشفت أن صمّا ساحرًا يلفّ الليل، وأنّ السّاعة قاربت

الواحدة، وأتني لا أستطيع حتى تحريرك قدمي، أو مع جموسي من
الإطفاق. كانت السعادة تغمرني لوهلة لآسي لست خارج حدود
سورية، أردتُ البقاء كلّ عمري هنا، في سحر هذه اللحظة. اللحظة
التي تحولت لاحقاً مشهداً ثابتاً في عقلي لا يتزحزح من أمام بصري
وداخل بصيرتي.

دوى انفجار قوي، كانت القذائف بدأت تتسقط، مع ذلك عموت
بعمق حتى الخامسة فجراً.

صباحاً أفتح عيني على صوت القذائف. أستيقظ وبني حاجي
للعودة إلى العتمة. أريد عمراً مثل أهل الكهف. قدماي تشتعلان
بلسعات الحوض. أرتشف القهوة بصحبة رزان التي كانت معتقلة قبل
أشهر، وشاركت في الثورة، وهربت من سورية، ثم قرّرت العودة
والعمل في الشمال

أصبح دفتري الصغير ومهتات اليوم كل يوم في الشمال السوري
سحب أن يعادله إنتاج شهر كامل من العمل: هكذا، كنت أردد دائماً
أن أبقى شهر كمن، يعني أن أاجر عمل أشهر عدّة هكذا كان
المعمرين، لكن الظروف لم تكن دائماً توفّر لي ما أريده. القصص
حوصل بشل الحبة، ويحول الشر كائنات مذعورة وجائعة.

نوم من مهدي، درس لطلاب في الإداعة، الذهاب لي مركز
تسليم، ونفذ أحد الكتب من «كهريل»، ثم الذهاب إلى «معرة
النعمان»، وعودة لئلا لأكمل قصة الثورة في «كهريل».

في المطبخ، تصنع رزان أدواتها بترتيب تعلق أكياس القهوة
 وتكثر بملاقط غسيل، تشر الغسيل على الأبواب ومقابضها. تفتح
 باب حراثة فيها مرآة طولانية نستخدمها كبديل عن مرآة الحمام. البيت
 من محاورا لبيت قصف. يطل شاكي على البيت المقصوف، وعلى
 مصة وراه، حيث يتركز القصف. استيقظ اليوم على همس ناعم بين
 ضيق يحلسان في راوية حولها القصف خيمة! الطفل الأول يبدو في
 حادثة والثاني أكبر. الجدار نمت عليه أعشاب، وفي الزوايا،
 نحتت أرهار صفراً صغيرة، وعلى الأرض حيث ترتع الولدان،
 مجموعة من أكياس النايلون البيضاء. كان الولدان يعدان دحلاً (كرات
 دحبة صغيرة) حمراً وخضراً وصفراً. يُخرج أحدهما من حبه قطعة
 نمش، يعردها، ويلعبان. كانا من بيت مجاور لبيتنا. السماء ررقاء.
 عمو بض صغيرة وناعمة تمر بهدوء، وأصوات قصف تتعالى. أبتعد
 عن نافذة. الامحار قريب، أصرخ برزان لتستيقظ وتحتمي بالعمود.
 لا أستطيع النفاذ هكذا. لحظة وأركض إلى النافذة. الطفلان لا يزالان
 في مكثهما، يقومان بتبادل الدحل. شعرت باطمئنان لأنهما بحير،
 ورجعت على الوسادة.

ناس الأديس لا يكتف قصص بطولاتهم أحد، أو كيف سيفومون
 سمر سعد، هم أنفسهم كانوا غير مكترئين بالشعارات الكبيرة أو
 كمسكات الترقية. الناس الأديس أراقسهم في حيواتهم هذا وأراه
 موصوح، قد عبروا حيواني نعم، على هذه الذوب الصغيرة الترابية التي
 لا يسع من القصص، والتي تصطفت على حاسها البيوت، ونست في
 حوشها الأعشاب هؤلاء المحمولون والمعمورون، والأديس يركبون
 دحسهم الشربة وقد يقتلون من أحل شراء ثلاثة أرعمة من الحمر،
 هؤلاء يفسون لها ويعيشون حياة يومئة مريرة تمر الفدائف فوق

رؤوسهم وتهدم القنارات بيوتهم وتحرق مساكنهم. يستيقظون كل صباح
ممتنين لأنهم ما زالوا على قيد الحياة. عاشوا بين زواريب الأحجار
وتحت أشجار الريتون والتين. هكذا بكل بساطة، وكما يتحول الليل
والنهار، يتقدمون في العمر ويحسون الأولاد ويموتون بلا صجيج.
سرعة حاطفة تمر بحيوانهم. لا أحد يكثر بهم، ولا يفكر في ما
يريدون، وهم يجلسون الآن على مصطباتهم. النساء بغالبيتهم هن
يمتشن الأرض مع أزواجهن أو ما تبقى من الأزواج، والأطفال
يركضون ويلعبون في مساحة ضيقة ومحدودة. العائلة التي تمتد
الأرض وأمر بأفرادها في دربي الصباحي، مكونة من خمسة أطفال
ورجل وروحه. كنت تناقش ما إذا كان بإمكانها الحصول على لترين
صافيين من العاروت فقط. تسأل المرأة روحها عن المكان الذي يباع
فيه الخبز، والنسب الكبيرة ذات السموات الالوتية عشرة نكنس
المصطف. ورش عليها من إريق ماء بلاستيكي صغير يضع قطرات.
أب نظر إلى السماء حياء، وإلى زوجته وطفلة الرضاعة حياء آخر،
بهمهم كلام لا أسمع، وأما أقول: «صاح الحبر»، فبردة الجميع
مضون وحمور. «صاح الحبر»، ثم أتبع طريقي.

حساء بسطرمي في السبارة طلست منه معاينة أماكن القصف
والدمار في الضفة. لم تكن محطمة عن عالية البلدات والقرى في ريف
«السد»، صدوت سنة الحراب فقط. هي «كفرسل»، نسبة الدمار
موسم. لا يدرى «العمرة» التي سدهت إليها بعد الظهر لكنني،
وحلان ساعة ونصف، صوّرت أماكن الدمار، المدرسة، وخزان الماء
كبير. كنت حرّامات المياه هدفا لطيران الأسد. منع مياه الشرب عن
عرب مصفاة هي ميسنة متعمدة لنظام المدارس أيضا نصف،
وحوز بعضها مراكز لمكتبات العسكرية

وسط الأسواق، كان هدفاً للقصف في عالية المدن والقرى. في
ساحة السوق ووسط البلدة، ألقت القاذرات خلال الظهيرة ثلاثة براميل
منفجرة، فقتل ثلاثة وثلاثون شخصاً خلال دقائق إلى يمين الساحة،
قصف جامعها الأثري القديم. كان القصف عشوائياً. وبحر يمر ساحة
سوق المهذمة، حيث يسى أهالي «كمربل» عموداً حجرياً من الرّحام،
يرى عليه أسماء الشهداء الذين قضوا في قصف القاذرات الحركة في
سوق طبيعية، يقول حسام، عادة الحركة لا تتوقف، ولكن، مد يده
شوة فلتت كثيراً. المخازن ومحالّ الخضار والعربات لا تزال على
حانها أراقب مجموعة من الأطفال أمام عربة من الخضار، أكبر ولد
فيها في الخامسة عشرة. الأطفال كلهم يصيحون. حناجرهم قوية،
يصيحون بروحون ويحيثون بين عربات عدّة.

يعود إلى المكتب الإعلامي، ونبدأ مع شاب الإذاعة درس إعداد
برامج يقول حسام أنه سيفيب ساعة ويعود ليأخذني إلى مركز

انفسو الحاضر بالإذاعة كان مؤلفاً من ثلاث غرف متداخلة، كل
غرفة تؤدي إلى الأخرى. حناجر بلاستيكية وضع وسائل من الإسفنج.
دعيت غرفة التسجيل والثلاث كانت صغيرة بالكاد تكفي لشخص
واحد أدوات ومعدات بسيطة. يقومون بالث التحريبي، ويحضرون
محدثات مباشرة مع الناس. لم يكن للشباب حرة في العمل
إعلامي ما أرادوه هو أن ينقلوا خبر الكلام إلى القراء العام، وأن
يكون مسموحاً لهم أن يناقشوا مشاكلهم الحياتية واليومية بشكل مباشر
بحسري أسامة، وهو مهندس شاب في أوائل الثلاثينات، أنه يريد
سريعاً للعمل في الراديو ويحضر هو وعمر وأحمد برنامجاً للحدث
في شؤون اليومية لأهل «كمربل»، مشاكل الإعانة، الشرفاء،

الانتهاكات التي تتم على أيدي الكتائب العسكرية، وهذه كانت أصعب الأمور التي يمكن الحديث عنها.

يقول شات صغير السن، لم يتحاور العشرين «حلصنا من عسكر الأسد، بحونا عسكر الجهاديين».

القو حاز، وكان الفصف قد بدأ، وشرل بعض الشباب إليه. انقصف كد من المدفعية، وهذا يعني أن هناك فرصة للتحفة البراميل وحدها كدت بحولنا أصامًا بشرية.

بعد اذرس، دهمت مع حسام إلى مركز النساء. المركز أيضا عبارة عن قسو غير محقر أم خالد، مديرة المركز لم تحصل على الشهادة الثانوية، سها، خالد أحد الناشطين. تصلي وتصوم، وتقود سيارة لديها صانود تحميل للتبذات. تقرأ وتقول أن النساء، سيقمن بالتعبير كدت تمثل شريحة مهمة من نساء الرّيف في «إدلب»، ونسوي بظمحر إلى الوصول بالمجتمع الأهلي والمحتلي إلى مطالب نثورة الأولى في لعدانة والحرية والكرامة. كانت تتطري مع مجموعة من نساء في القسوء وقد أنهت دورة تعميم المحرر والتطيرير. المركز بحاجة إلى كساء كامل

لحجاب ها حره من التقاليد، ولكته ميد أكثر من سنة، بدأ بنحوّل واحنا ومريضة وقديونا إبراميا. في بعض الأماكن في «حلب»، فرصة نظيم «داعش». في الرقة، كانت النساء يعظبن وجوههن وأحادهن شكل كمل بالأسود، بعد سيطرة «داعش» عليها لا يمكن التفكير في هذه المنطقة من الرّيف كحره معمر من العالم لقدنة إحصاره مثل عائلة أرياف سورية نكر النساء ها متعلّمات إلى حذو ومدرات على الحوار، وعلى مناقشة أمور الشبسة. ويدرك أن تعصّر

حديثاً يحدث، وسيسير من للدخول في نفق مظلم لا خروج منه
وانكائب العسكرية الجهادية التي تسيطر، يوماً بعد يوم، على الشمال
سوري، كانت تعرض قوانينها الاجتماعية والدينية بقوة السلاح
ومن تحت القصف المستمر، كان الحديث عن هذه القضايا يعثر
برو وبلا معنى، هكذا قالت الصبايا ونحن نرتشف القهوة بعد معاينة
مو

كنا نجلس في الطابق الثانية فوق النفق مباشرة، مجموعة ساء،
في واحدة منها تفكر بصوت عالٍ بما يمكن فعله وسط هذه الظروف
صعبة، وكيف يمكن الاستمرار بالعمل دون إلحاق الأذى بالنسوة
وبأزواجهن وعائلاتهن ودون تجاوزهن العادات والتقاليد «هذا صعب
حداً، عيب الانترام بتعليم النساء والخطاطة وشغل المخزر وقص الشعر
... بعض، لا أكثر ولا أقل، وحين تنتهي هذه الحرب يمكننا التفكير
في مور أخرى»، تقول إحداهن. لأم خالد رأي آخر: «يمكننا تعليم
معنا لأكاديمية والمدرسية، والقيام بدورات محو أمية ودورات تعليم
للسنة» فت نهن من الضروري وجود «إنترنت»، وأجهزة «كمبيوتر»،
بحسب عدم بدورات دعم نفسي، والأهم دروات محو أمية للنساء.
«هذا ك يحدث، سقطت قديمة بالقرب منا كنا نجلس تحت
شجرة، وسمع نهر، صرنا متكويين في العرفة الداحلة مروت دواتق
أخرى صر بي نعب، ثم عرفنا في صحك طوبيل، لكنني رأيت
«حرفين نهر نمرودة لا بد من أن وحيي كان أصغر أيضاً

كنا نأخذ تشير إلى الواحدة ظهراً، وحاد موعد العودة بي
حكيت سموات إلى حقد لحيه مع أبو واحد» جاء نأخر، ولم
حرف موعوده، ولا استطع لمشي وحدي في شارع يقول
سواء لا يحركي سمودهن إلا نمرودة هذه الأسماء، ولكن بحسب

ألا أذهب وحدي، مهما كلف الأمر في الحرب تحدث حالات
موصى، فكيف عندما تكون هذه الموصى موشحة ومظومة. النساء
يعتقدن أن من الأفضل متابعة الحياة كما هي. أم خالد تقول: نعم،
أنا أعيش تحت الحرب والنقص، ولكنني أريد أن أعلم الفتيات كيف
يعشن حياتهن بطريقة حميمة، يريد أن يتروح وسحب وسي حياتنا، لا
يريد الاستسلام للموت»

فكنت نظريتها هي الحديث. كانت أم خالد تجسيدا حقيقيا
تفكرني عن المشاركة مع المجتمع المحلي الشعبي في الشعبية والمعرفة.
وثقت بهذا المجتمع، أكثر من ثقني بالتحب السياسية والثقافية

النساء كن لديهن فصول لمعرفة حياتي الشخصية. وأقنعني أم
خالد بضرورة تصفيف شعري، وفعلت ذلك. أهدتني إلى صالون
الحمام الذي فتحه في بيتها. كان متواضعا بأثاث خفيف، لكنه كان
كأن نخرج منه عرائس السادة وهن في أبهى ربة.

في القربى بنى مكتف. وبعد أن جاء حسام، كنت أفكر بأنني
سأحب ألا أنسى، رغم فداعني بأن القادم أسوأ مما مضى لكنني لم
أهد حسام، ونساء من حولي محبي المرء من الأمل.

كنا في الأول من آب، والشمس الحارقة وملابسي السود التي
ننظيها بالكامل، تجعلني أختنق. كنت قلقة بعض الشيء، فأنا ما زلت
أرنحب حتى اللحظة عندما أسمع دوي انفجار، فكيف وأنا ذاهبة إلى
خط الجبهة الأول!

«أبو وحيد» يتظرني.

انطلقنا مباشرة. لم يتغير «أبو وحيد» كثيرًا. صار أكثر نحولًا.
منذًا في الحديث عن المعمارك، وبدا محبطًا بعض الشيء. لم يكن
يحصل على تمويل لجنوده بالقدر الكافي. سأله: «هزما؟». نظر إلي
جيدًا، وقال: «آخ... شو بدّي أحكي لأحكي. انتصرنا وانهزما ما
نصدقي أبدًا أننا انهزما. العالم كله كان ضدنا... كله». كان يقود
نسيارة وأصابه على المقود ترتجف. ذراعاه صليتان وقويتان
ومحروقتان من الشمس. سأله عن أحوال زوجته والأولاد. فقال:
«سعرهم بسعر الناس كلها». طلبت تدخين سيجارة، أحاب فورًا:

«لا... الدنيا رمضان ممكن يكونوا جماعة الجبهة أو داعش موجودين
ويطهروا فجأة هيث أصمر لحياتك». اعتذرت منه لسياسي هذه
التفاصيل.

الهواء ساحر ويلصق وجوهنا، وتتقدم عبر القرى. «أبو وحيد»
يسو أقل همة وأكثر حرًا. المرأة الحاضيه، في شهر شاطئ، كان يحتم
حين يقول «إن كل شيء قابل للتصلح، ونحن ما زلنا نحاول تحقيق
حلمنا». هذه المرأة كان صامتة أغلب الأحيان، لذلك لم أحاول إقحامه
في ما ألت إليه الثورة، والسبب الذي جعل من الكتابات الجهادية
التكفيرية تحلل الصدارة كنت أعرب ما سيقوله عن التمويل، وعن
الرجال الذين يتدفقون يوميًا من شتى بقاع لأرض للقتل تحت حجة
الدفاع عن الإسلام قال «سمر في طريقنا لنأخذ معنا أحد
المقتل».

كان المقاتل في «معريته»، لم يكن يسكن في بيته. جاء بزوجته
وأحنا إلى مدحة مهجورة، ووضعهما فيها، قرب خط الجبهة،
ليطبع أن يكون قريبًا منهما قال إنه لا يستطيع تركهما وحدهما في
العراء المدحة تقع في سهل فارغ إلا من الحشائش الباسية، وفي
داخلها لا يوجد سوى حصر بلاستيكي قديم، ووسادة عريضة سوداء
تنسج لشخصين أعمدة إسمنت وأحجار بلا إكساء تتحلل مساحة
المدحة، وتتوزع على المراعات في ما بينها. طلست من «أبو وحيد»
لفاء الزوجة وأحبها كنت عطشى، لكن الناس صائمون، وحب
احترام صيامهم الزوجة، أم قادي، قالت وهي نصم طفلها «انصموا
ببناء، ونصم البناء هنا لا مكان يذهب إليه، أنقى مع رحلي حتى
الموت كنا ثمانية ومع الرجال أصبحنا أحد عشر شخصًا، وهذه

سحرة نحوبنا منذ سنة. عندما قصفونا تركنا كل أعراصنا وراءنا
وركنا في الشارع»

ارتفع الباب الحديدي المهترئ، فصرحت، ضحكنا وقالنا «ما
بي شي محزق قط» وأنا شعرت بالإحراج لأنني اعتقدت أن قديعة
محررت أحتها التي تلعب من العمر سبعا وثلاثين سنة كانت تنكلم
نمنا. ولكن بأشي. سمراء. عباها قائمتان وحادثتان، يياصهما أحمر
سند. تدوان مخيفتين. لم أسألها من أين أتى هذا الاحمرار! كما
سبب نغرينين الممددتين، مشققان بشكل لافت. الطفلال حامين
بعريين، وعيوبهما واسعة وتحقق بصرامة. لا ترق الحصون أطفال
- رجب ندي عاشوا في العراء بغالبيتهم كانوا يحملون هذا التحديق
سما

ومت انزوجة عندما ناداها زوجها لتحضر له ثياب القتال سألتني
أحب «هل أنت داهية إلى هناك؟». قلت: «نعم». «هل تريد ثيابا
شبه مدني؟» فقال الزوج من الداخل: «والله يا مدام لو بتلسي مثلا
سند. حسر، لأنه رح يكون مكشوفين عليهم». رفصت. سألتها كيف
مسو. فقلت أن روحها يأتي بالطعام وهم يستحمون مرة واحدة كل
سبعة. وثبهم التي يرتدونها بغسلونها ويدلونها ثياب أخرى لم
حسرو حتى ثبهم «في الشتاء، سدة المنحاح أكياس بابلون، الرد
مصر أعمر. ثم بعد بحصل على الحطب. لم يعد هناك أشجار
سند. وصعنها أحتها «لا تستطيع ترك أرواحنا وهم يقاتلون نحن
سعرهم دشتا أب كنت مكرنيرة عند دكتور، وأحمد الكسنة
سند. لأن بعضنا كانت في العصر الحصري. سرح من قرية نبي
حزق. وأصعدنا معنا بالكاد يأكل، ورحنا يقاتلون هل نعرفس؟»

تقول وهي تضع يدها في يدي وتحقق بعيني. تعصر أصابعي في كفها، تؤلمني ويصبح صوتها محيثًا: «تريدين فعلًا أن تخبري الناس بما حصل لنا؟ اقصي أن تخبري البشرية كلها أن أبناء القرى الأخرى طردوا. ليس الأمر كما يبدو لك. الشعب ليس واحدًا! هناك كراهية تكبر الآن بين الناس. هل ترين هناك؟»، وأشارت إلى جهة نائية حديدية بالكاد يبلغ عرضها خمسين سنتيمترًا، وحديدتها متآكل وصدئ. «هناك الجبهة، نحن نراهم وهم يروننا. بيننا وبينهم ثلاثة كيلومترات فقط. ونعيش في مكان منعزل. نعيش حياة معدمة. نحن لا نعيش. لولا مخافة الله لقتلت نفسي. نموت ببطء ها مثل حيوانات مربوطة إلى شجرة ومتركة للموت جوعًا. أهالينا الذين بقوا ماتوا في القصف، والأفاعي تتسلل إلينا ليل نهار. هل تستطيعين النقاء معنا ليلة واحدة؟ مستحيل! انظري لهذه الأكياس».

كانت ثلاثة أكياس متوسطة الحجم معلقة على عمود: «هذه هي ثيابنا نحشرها في أكياس لغادر بسرعة في أي لحظة. نحن ضائعون ومشرذون، وهل ترين بطني؟»، تمسّد على بطنها المستفخ، وتناح: «سأحمل كل تسعة أشهر، وأتي بأولاد، حتى لا ننقرض. أولادنا سيستردون حقًا. نريدهم أن يتعلموا. نريدهم أن يقاتلوا حتى يعود إلى بيوتنا. لن نركع لبشار الأسد. لن نركع أبدًا. ولن نتراجع».

أفلت أصابعي التي بقيت عليها آثار احمرار. كنت بالكاد أتفكر! لن أبكي! عضضت على شفتي، وغرقت في نوبة بكاء صامت وهي تحقق في سفب المدججة المعدني. الطفلان يقتربان مني وأنا أهتم بالنهوض. استأذن بتصويرهما، فلا يضحكان. ركبنا أنا و«أبو وحيد» والزوج المقاتل باتجاه بلدة «حيش»، وهي خط حبهة أول في ريف

«إدلب». تركنا وراءنا الهضبة الصغيرة التي تعلوها المدججة الثعينة.
«هل هما بأمان هناك وحدهما؟» أسأل. يجيب الزوج: «الحامي هو
الله».

كان السهل فارغاً، ومن بعيد تلوح مدججة أخرى، والسماء التي
أخذت تميل إلى زرقة قاتمة خلت من الغيوم البيض.

تركتهما وأنا ألوح بيدي. وعدتهما بأن أعود إليهما، ولم أفِ
بوعدي. قالت لي: «لن تعودي!» وكانت محقة، لم ألتحقها مرة
أخرى.

زوجها، «أبو خالد» المقاتل الأشقر، ركب معنا في السيارة من
جديد. كنّا متجهين إلى حظّ جبهة بينه وبين قوات النظام سبع مئة متر
فقط. كان عدد سكان «حيش» خمسة وعشرون ألف نسمة، وهي أكثر
منطقة تعرّضت للقصف. قصفت أربعة عشر يوماً بشكل متواصل.
المعلومات التي أخبرنا بها «أبو خالد» لم تكن بحجم الخراب الذي
رأيناه، فقد اعتدت رؤية صور الدمار في الشمال، لكنّ «حيش»
محتلّة، سكانها اختفوا، خمسة وعشرون ألف نسمة غادروا أو قتلوا
أو اعتقلوا، كأنها لم تكن يوماً. لا توجد شوارع. هناك أرقة ترايبه بين
حراب البيوت، والشوارع قصفت بالكامل. تتحلّلها أثار القذائف التي
تحولّت حفراً. الأبنية على الأرض، لم تكن مهذمة فقط، بل مجرد
حجارة متكومة. هناك حفر هائلة وكبيرة. يقول «أبو خالد» كانت بيوتنا
سقطت عليها البراميل مرّات عدّة. الجدران الإسمنتية التي تعلو
الطبقات والتي لم تنهزم، أعمدتها تحولّت منحدرات. أشجار
الزبرلخت لا تزال مخضرة شامخة وتظلل بعض الرّكام. ونحن مدخل

من الجانب الحلقى، أحييت رأسى. كان مهمًا ألا يدمحوا امرأة معهم على الجانب الآخر، سألت «أبو وحيد» «هل يروى؟» أجاب «محاول الالتصاف عليهم». كان يفصل بينا وبينهم شارع وبيوت مدمرة

في أعلى الهصة كانوا. وقفا قبالتهم. حفصا رؤوسا عدد برولا من السيارة، وصار «أبو خالد» يخفينى بجسده، كأنه درع واقى من الرصاص. حلصا، كان شارع من أكوام هائلة من الحجارة، من بينها تنشق أغصان صغيرة خضر لأشجار لتزولحت. يسارًا ويميًا وفي كل الاتجاهات، الحجارة نحتلط بالحديد وبالسيارات المتفخمة المحترقة، هم لا يتوقفون عن قصفها.

دخلنا غرفة صغيرة، كانت مثل باقى العرف اتى دخلتها، فيها حصار على الأرض ويصع وسائد. بدأ المقاتلون يتدفقون. كانوا أكثر من عشرة، وبدأ إطلاق النار. قال أحدهم: «لقد عرفوا بوجودكم». «لكننا مررنا بحذر، والتفمنا من حلف الشارع، فكيف عرفوا!!». سألت.

الرصاص لم يتوقف من الجانبين

في العرفة، صورة ولوحات على الحائط طبيعة صامتة. صورة لمقابل. صوره أخرى لورود ملونة، وبضعة مسامير علق عليها عدد من القمصان. كان المكان بالكاد يكفي لوجودنا، وجلس كل متائر ورشاشه إلى حاسه. وصعوا الرشاشات متقابلة تحت أرجلهم، فبدأت كأنها ترقص أمامي كانت لامة، ومواقها واضحة. من هنا يحرق الموت! فوقات سود تشكل دائرة حول عنقي، وطلقات رصاص تمر فوق السطح. كانوا ينظرون إلى نفصول وسعادة. أحدهم قال: «أهلاً وسهلاً يا مدام، ما حفتي؟ كان لازم تلبسي متلبا، حتى ما يكشفوك».

«بشمت له، وشرحت لهم ما أريد معرفته عنهم ومن هم، ولماذا بقوا، وهل صحيح أن الكتابات هنا تابعة لـ «جبهة النصرة» و«أحرار الشام»، ومن وصل «داعش» إلى هنا؟»

الشاب الذي تحدث كان ممتلئ الجسم حنطتي البشرة، ضاحك العيين، عمره ستّ وعشرون سنة. يمسك رشاشه بيده. قال: «كلّ من تربهم الآن هم من أبناء حيش، ونحن لم نترك بيوتنا نفقّ هنا لأنّها نهّمت. اسمي فادي، وكنت أعمل من قبلُ في لسان. لما بدأت الأحداث، ورأيت كيف يُقتل الناس على التلفزيون، تركت عملي وعدت إلى هنا. هذا بلدي ويجب أن أبقى فيه. اختصاصي العام وقادف آر بي جي. أرى أنّ هذه الحرب شيعة - سنية، ولا أراها غير ذلك. لم تكن هكذا في البداية. لكن الشيعة الإيرانيين تدخلوا ضدّا وقتلونا هم وحرب الله. الآن هم موجودون على خط الجبهة الذي مررت من أمامه. نحن نسمعهم على اللاسلكي، ونكون في مواجهتهم. بيننا وبينهم مئتا متر فقط. كما قرين حيش مدقّة بالكملة ولا يوحد لدينا مكتب إعلامي، مثل باقي البلدات. قصصونا بكلّ أنواع الأسلحة: صواريخ أرض - أرض، براميل، صواريخ سكود، قذائف وكل ما يخطر ببالك. كانت سماء حيش تمطر بالصواريخ والقذائف. لم يبق حجر على حجر».

بضيف شاب آخر: «هذه حرب دينية وليست شيئًا آخر، أنا سامي، عمري اثنتان وعشرون سنة. كنت أدرس في الجامعة. هل ترب أنّها من أجل غير الدين؟». يجيبه الشاب الذي بجاسه، وهم يوزعون أدوراهم للحديث: «نعم، هذه حرب للدين». يصل الدور إلى شاب عجول وهادئ متسم باقتضاب. شاحب قليلًا، يقول: «أنا أنس، عمري خمس وعشرون سنة، بدأنا هنا ومن وسط حيش، مظاهرات سدمية،

مثل كل القرى. لم تتطرق للذين أبدا، قلنا: الشعب يريد إسقاط النظام، لكن النظام اتضح أنه كافر، لذلك حملنا السلاح. هل تعرفين لم هو كافر؟ هي الذبقة الواحدة كانت تسقط فوق رؤوسا خمسون قديعة. أما أسر ابن حيش والكل يعرفني... استخدموا كل أنواع نظيران، ولم يستطيعوا الدخول. قُتل خمسة وثمانون عسكريا منهم. ولم يدحواها نحن لساها لوحديا، هناك حجة نصره، وهناك كتائب أخرى، نكتبها في هذه الكتيبة كلها من أبناء حيش. حرب الله هنا، وشيعة من العراق وإيران. هل ستقولين أن هذا ليس صحيحا؟ نحن براهيم وسمعهم! كل العالم وقفت ضدنا. المجتمع الدولي تخلى عنا ماذا كنا سنفعل؟ سنظر الموت. رفعنا شعار «لا إله إلا الله محمد رسول الله». الموت ينظرون، ونحن نستعين بالله على الظالم بشار». يقاطع أحد الشباب أسرا، وهو عاضب، اسمه نواف: «القذافي فتدت أطفالا. نعم، هي حرب دينية».

سرعان ما عرا انعصب وجوههم. يقول آخر: «العلويون قتلوا وسمعهم» تدخل «أبو خالد»، وينظر إلي بابتسامة: «هؤلاء الشباب كانوا كنهم عذاب مفراة دمروا بيوتهم، وقتلوا أهلهم، وشرّدوا من بقي هنا كما رأيت. ندمهم إحساس بالاصطهاد الطائفي»، يقاطعه أحدهم: «أنا سبيدي. العلويين والشبيعة ما يعرفوا الله وهم كدرا» برؤفة الشاب الكلام نفسه تقريبا

اسم هذه الكتيبة التي أحس مع عدد من مقاتليها «معايير حيش» كتب «حجة النصر» قد رفضت أن يلتقي بها في أماكن عدة، لكن هي في «حش». «أبو وحيد» رفض حتى أن يعرفوا آتي هنا. كان إطلاق الرصاص بشدة وخطب «أبو وحيد» منا أن نعاد مباشرة، لكن الشاب نعنسوا. وبدأوا يعرضون مشاكلهم وكيف تم إهمالهم وإهمال تحربة

«حبيش»، وكلّ منهم يردّد جملة مختلفة. كانت رشاشاتهم على الأرض قال أبو وحيد بصراحة: «لازم نمشي يا شاب، الوصع حطير على الشّت»

كان يودّي القاء والاستماع إليهم بشكل أفضل، لكنّ الخروج بعد ذلك سيكون صعباً، وربما يبدأ القصف. إطلاق الرصاص بين القناصة نحو حوديد على طرفي خطّ الجبهة، ما زال مستمراً. لم أصابهم، نمتبت لهم السلامة. الرجال هنا لا يصامحون، بالكاد يسلمون ولا يظفرون في عيني المرأة. كنت أعدّل غطاء رأسي لأحفي وجهي. يحاول التركيز على ما يقولون. كانوا يحتاجون لتشغيل المكتب (إعلامي)، ولكن بسبب القصف المتواصل، كان يبدو الأمر صعباً. ثمّ ناشطهم قتلوا ولم يبق سوى أنس وقد تحوّل مقاتلاً، قال أحدهم: «حاول مرة الاستعانة بعدة قرى وبعدة مكاتب معروفة للإعلام هنا، لكنهم لم يساعدونا، لقد تركونا جميعاً».

كان الشاب محقّقاً، فهذه البلدة تبدو منسية ومهملة، كأنها خارج الزمن والتاريخ، وهم مدّوا بوجوههم الشاة والغاضبة، أشبه بجثث محترقة أردت المعاداة، لأنّ أصابعي بدأت ترتجف، وهم يروون قصص رفاقهم الذين يموتون واحداً تلو الآخر. أحدهم قال هازناً أثناء رواية قصص الموت «اليوم دوري، طالع عالسماء»، فرد الثاني: «لا والله... ما نتروح قلبي» وضحكوا.

محتار عنّة البيت وسحي رؤوسنا بحوح ثلاثة من الشاب معي ومع «أبو حنّده»، «أبو وحيد» يتقدّما يقول شاب لم الصبح حيناً، كان يحس في الظلّ: «سي حترّي العالم يا مدام، أنا يموت وحدي وأنّ العدويين يقتلون، وسباني يوم يقتلون فيه، هم يفتنون وسحر برد

الأدي، هم والشيعة الكفرة هم وسائرهم العاهرات» هذا قال «أبو حنيفة» «عبد الحكي يا عتي»، فردّ بحذّة: «لا مو عيب». فنت وأنا أخذق فيه «الله يحميكون يا شباب، ويرفع حقكم»، فردّوا: «امس يا مداء، الله يحميك، والله بورتيا، لارم كستي تستطري تفطري معا». فنت لهم «إفصرا مارك»، ثم حببت رأسي وأنا أتجه إلى لسترة. بصرت بئيه، كان الرصاص فوق رؤوسنا: أنا أهلي علويين، وما عرفت حالي غير سوربة، فنت بسرعة. وانسحبت. دخلت لسيارة، فركضت لشدن وراني ومذا رئيسهما من نافذة السيارة: «ما تواحدنا يا مداء، والله ما قصدك! والله نحنا ما منكره العلويين، على راسنا إني وأهنا كنت صمنة، مثل نمثال من حجر أسمع ضربات قسي وأصوات الرصاص قد أبو خالد». «ما ترعلي والله مو قصدك»، وبدأت سبب الأعداء كان أسس يقف حاسنا، وعيناها بلمعان بالدموع، ثم اهتبت متي «والله يا مداء نحنا منحميك بروحنا، إني سب أسد» كان «أبو وحيد» و«أبو خالد» عاصيين متي، لأنني قلت ما منه، وأن لم أكن أعرف لم فعلت ذلك، ولكن كان على أحد أن يكسر حصار الموت هذا، ولم أكن لأعرف ما الذي سأفعله وحدث صممي حياء لكل لأبياء من العلويين، وحبابة لروح الثورة التي خرجت من أحدهم قبل مسي همس «أبو وحيد». «ما كان لارم تحكي ههنا»

كان شباب شعرون بالاحراج، وأردوا الشافس على حمايت ودون على صبر محنمة وأكثر أمنا مشي شاتان أمما، نحب الرصاص كل نضع ثوب بتمت أحدهم ويظهر إلي، عيونهم ممسمة بالأساء والأعداء، وأنا أنوح بيدي وأتسم لهم، لم أفكر بكعب

برصاص الذي يمرّ خلال الفواصل بين البيوت المنهزمة ويشتر حول
كس رقتي مشدودة. الأصح كانت تنهشم لأن حجري طقطقت وان
سرع رقتي.

قال «أبو وحيد» «ممنوع التصوير هنا، نحن لا نسمح به». ومرّ
شباب سريعاً أمام السيّارة التي تمشي سطر، يحملون رشاشاتهم. كنت
على حظ نجاة وأحدوا أماكهم. هو إذاً حظ الموت! قلت لـ «أبو
وحيد» «فستظر وتمرّ ما يحدث»، فرفض لأن المعركة محتدمة ويجب
أن يصرف يده.

قال أن تعطف السيّارة، نؤحت لهم. وقف الأربعة ولوّحوا
بمخالبهم.

دحمت في طريق تراثية، وانطلق «أبو وحيد» مسرعاً، بعد دقائق،
بعد أني «لست أعود بك أبداً إلى أي مكان مثل هذا. ما فعلته
محصراً، لكن كنت حينه لتري الشباب كيف يفكرون. عليك معرفة
- حرس قد يتصرفون بطريقة محزنة! وقد نُقلين - هررت رأسي،
«عبرت بي لحديث، فكرة واحدة حظرت لي «هل يوحد أقرباء لي
على جهة الأخرى» أقرّبني الذين أحتم وأشتاقهم، وعشت طفولتي
معهم. وندى تراءى وحومهم المحنة إلى فني أمام رجاج السيّارة،
وحومهم ضاحك ونحن نحار عنات الظفولة والمراهقة. أقرّبني
من لا أريد لهم الموت، ولا أريد لهم أن يصحرو قلة»

وصمت فخرني التوداء. فقد بدأت ملوحة عيني تغطي، والشمس
هي كانت تسعد شمعي. لم تعد مرعجه لكن الوقت قد حان
ممنوع. قال «أبو وحيد» أنك كذا بعد عن حود لنصام ثلاثيه مر
فقد هررت رأسي أيضاً كنت ألكي صمت وأخفي وجهي بالحداد

وطارتي السمكة. لن أحمل هذا سينمجر قلبي كنت أسمع
 صراده، تعلو وتعلو، وسيت أن أطلب منهما المرور لرؤية المرانين
 في المدحة. لقد حثت بوعدني. قال «أبو وحيد» أننا سنذهب عدًا إلى
 «حاج العسل» في «حلب» «البارحة حدثت معركة قُتل فيها خلال
 ساعات خمسمئة رجل من الطرفين». لم أنتمت إليه، ولم أنوجه بأي
 سؤال جديد. لم أحاول حتى معرفة الوقت الذي سنطلق فيه إلى ساحة
 المعركة هالك كنت أمكر فقط كيف يموت هذا العدد الكبير من الشر
 خلال وقت قصير كهذا» حتى أتني لم أنتبه نرول «أبو خالد» إلا عدم
 تقدم بحوي وألقى نحيبة الوداع وسيت كل ما قاله «أبو وحيد»
 لاحقًا كانت أداي تظان، وأنا أراقب الشمس تختفي وراء سهوب
 مترامية وهصاب تظهر فجأة تعلوها مجموعة من البيوت، المحروقة بي
 عاليته. وعندما وصلت إلى المكتب الإعلامي في «كفرنبل»، عسلت
 وجهي وحلست على الشرفة أتكى إلى العمود المجاور لشجرة الزيتون

العمود المجاور لشجرة الزيتون في المكتب، كان يطلّ على بيت صغير. هناك ولدان يقومان بإطعام حروفين صغيرين في حظيرة مصنوعة حديثاً. وأكوام من عيذان الحطب تصطف إلى جانب الحظيرة. اقتربا من شجرة الزيتون ورميا بي يعود من الحطب سقط في حضني. الشباب يوزعونها هناك رائد يقوم بالطنخ على الشرفة، يعارض الجميع. تأتي بقطع اللحم ويوزعونها، ثم يشويها على النار بعد أن يعمسها بالزيت ويحفظها بحصار. ويصيف إليها العليمة الحارة حمود يغسل الخضار. عند الله يطفئ الأرض ويمسح الحصار، رزان تحلي ما يصلها من أوان مسحه كان التحصير للإفطار طقساً احتفالياً، يسبق قذائف الموت. لا يزال هب معصر الحصار، والقطعام لا يزال هناك من يحبز ويطنخ، ويحعل بانتفاصيل الضعيرة إريق الماء يتم جليه مرّات عدّة ويوضع مع كزور عدّة بطيعة يدخل مقاتلان اثنان، ويصمّان إلى حفلة العمل. ند يصحّح ويقول «بعد ساعة، سأكل، وبعد ساعة سنقص، يعني معقول سموت وما يأكل أكنة طبة قلها»^{١٤٩}. أنفى صامنة

كان رائد يدرس الطلّ، ثم ترك الدراسة وذهب إلى لسان، وفي
 يعمل هناك، حتى عاد فجأة، وفتح مكتباً عقاريّاً سنة ٢٠٠٥. يقول لي
 «بعد عودتكم من المدرسة، سأكمل قصة كمريل» أخته «طبعاً»
 عفاً لا يزال مشوّشاً، وأردّ باقتصاب. عليّ التماسك حتى وقت
 العودة من المدرسة، وعليّ تقسيم مراحل التماسك والقوّة إلى دفعات
 عدّة. انقصف القدم لئلا يستغرق سوى دقائق، إذا لم سخّ، فلن يترتب
 عليّ إكمال باقي المهمّات. وفي حال نجونا من الموت، سندرج إلى
 مدرسة الأعمى، ثم نكمل المهمّة الأخيرة وهي قصة الثورة في
 «كمريل».

أكتب، وبحول من القصص. سقطت القذائف تماماً بعد خمس
 دقائق من أدان المعبر، في الجهة العربيّة من البلدة. فتنبّسنا.

كنت الساعة قد تجاوزت العاشرة والتصف ليلاً، عندما عدنا من
 عمداً في «دعوى الكرامة» مع الأطفال التازحين، وعليّ أن أدوّن خلال
 ساعتين بقية الحكاية من رائد قلت له: «عدنا، هيا يا شهريار إلى
 الحكاية». فصحت أصمت: «تبادل أدوار، أنت الراوي، وأنا
 المؤرّقة».

كان الشاب يُعدّون الشاي يصنع قطرات من الماء البارد على
 وجهي كعصف برداني، وسبب كل ما مرّ بي في يومي الطويل.

«وصف إلى الشهر السادس سنة ٢٠١٢، عندما سيطر الثوار على
 كمريل مع بدء حواجر الجيش النظامي؟» قلت. هزّ رأسه. «نعم هذه
 الحواجر، ثم استطع انحود خلالها الشجرك إلا في دنائتهم وقررت
 بالرحيل ومن دون حقّة أن يقوم بممرّة التحرير الأخيرة كان هذا في
 اليوم السادس من الشهر الثامن مجموعة فؤاد الحمصي، المقتل

شجاع الذي حرق في شهر رمضان ونصب كميناً لحاجر الحيش على
 طريق نلادقة. ثم يرحل، فعاد إلى كمريل، ثم حصل تراشق طلقات
 بينه وبين حاجر الحيش، فأرسلوا عدة يقولون فيه أنهم محاصرون
 من قبل قوات الحيش، عندها أشعل الشبان الإطارات وأحرقوها
 وصرخوا مؤازرة... مؤازرة، وهكذا بدأت معركة التحرير، وتدفق
 نيران القذائف كثرة حوائى ألف ثائر مسلح، وبقيت خمسة أيام في
 حالة مستمرة، برابط وتوزع تقطع الطرقات. واستطاعوا أن يقطع القطع
 ويحارب عن قوات الحيش. وفي الوقت نفسه، لا يتوقف عن القتال
 في قصف بالطيران. في اليوم السابع، جاءت حوامات وطلت بقصفا
 أثناء معركة التحرير كانوا يريدون إبقادهم، بقيا أكثر من اثني عشرة
 ساعة موصلة، قصف الطيران حينها لم يكن وحشياً مثل الآن كان
 قصف بعضهم فقط ولضرورة عسكرية، لكن القصف الوحشي بدأ في
 شهر من آب سنة ٢٠١٢، وكان هذا تاريج سقوط أول برميل متفجر
 في خربة سوريّة كنت أحمل كاميرتي قرب الحاجر، وأصور كل ما
 يحدث في معركة منذ ذلك الوقت وبحر بقصف بشكل دائم
 - ميل في اليوم السابع من الشهر، قصفوا بطائرات الميغ، وفي
 يوم العشر أيضاً، لم يتوقف تحليق طيران الميغ بشكل مكثف، وبين
 - من والعشر من شهر، تحزرت كمريل، وأعلننا بيان التحرير في
 جميع شعوب برهوا، فقد صار اسم كمريل «المحررة». اعتقدنا أن
 حرب على الأسد بات قريباً كنت متحمسين وبقنعم الموت، وبدأت
 بحوحر تحرره، حوحر القرى الأخرى حاس وكمرول وقد ذهب
 لأهلي بعد خروج جيش هربوا لأن القصف يومي وكانت المعركة
 مستمرة وهلاك برصاص لا يتوقف من بقي أثناء التحرير الثوار
 معه. وحصلت أكثر من محررة في كمريل، في الثاني والعشرين من

أب، استشهد ستة وعشرون شخصًا في ساحة المظاهرات، وفي اليوم الخامس والعشرين من أيلول، استشهد سبعة عشر شخصًا وكان النصف يتواصل بشكل يومي. في اليوم السابع عشر من تشرين الأول، كان هناك ثلاثة عشر شهيدًا، وفي نهاية الشهر، أحد عشر شهيدًا. وفي الخامس من تشرين الثاني، سقط اثنان وثلاثون شهيدًا. كانوا يقصصون بعد التحرير بشكل يومي ويقتلوننا، وتحولت كفرسل إلى بلد حالٍ واحفص عدد سكانها من ثلاثين ألفًا إلى خمسة عشر ألفًا، ومن بقي منهم كانوا في النهار يزحون إلى القرى المجاورة ويعودون في الليل.

في تشرين الأول، تحررت معرة النعمان، وأهل حيش التي دُمرت كليًا نزحوا إلى كفرسل. صار البازحون يموتون معنا في المحارر، بصمت رائد. وأرمي دفترتي الصغير، وأقول له: «نستريح خمس دقائق، ونشعل سيحارة».

رائد منسم. يعرف أنه مسموع الكلمة. مع ذلك، لمحت شيئًا عربيًا وحديدًا في قمات وجهه، تمامًا كما حدث مع «أبو وحيد»، إنه الأسى! سنبر ونصف من القتل اليومي، التّضال المدنيّ السّلمي، والتضال العسكري المسلّح، وحطف المجموعات الدينيّة المتطرّفة للثورة، لكنّ أنا من الرّاحلين وعلى اختلاف مسارات الاثني، كانا لا يرالان مؤمبين بأن لا حلّ من دون سقوط نظام الأسد.

أمسك بدفترتي وأقول: «يلعني أيها الملك السعيد». وعلا صوتي، فاعندل رائد في جلسته، كان يجلس مترنّمًا لساعات، ويلف رجليه فوق بعضهما وطهره مستقيمًا، ويقول «طفًا، هناك تفصيل مهم، وهو أنه في شهر حزيران سنة ٢٠١٢، حصلت انشقاقات كبيرة في كفرسل من صناط وعسكر. ألف عسكري وخمسة وثلاثون صابطًا عد كلّ انشفاق كان الصّابط الأكبر رنة هو الذي يستلم الكنيّة،

ونحوّلت كتيبتنا إلى لواء. معركة التحرير، كانت أيضًا بقيادة حسر السّلم المشكلة أنّه بعد التحرير بدأت تظهر روح المنافسة على السّلمة من قبل المنشقين الجدد من الضّبّاط، والنّاس الذين التحقوا بثورة مؤخرًا. وعندما تشكّل أول مجلس عسكريّ من ضبّاط وخمسة من الثّوريّين، اسحلّ بعد أسبوع، وحصلت خلافات بين الكتائب من كهرسل والكتائب من خارجها، وانسحب ضابط كبير كان يملك المال والسّلاح وبقي المقدّم أبو المجد مع كتيبة فرسان الحقّ وهم الكتيبة الأولى التي عملت في الثورة، فكبرت واتّسعت، والمصوون فيها هم الذين حرّروا كفرنبيل. منذ ذلك الوقت، بدأت الفوضى في تشكيل الكتائب العسكرية.

«لماذا لم تسيطر الكتائب الجهاديّة العسكريّة على كهرسل كما حدث في الكثير من القرى؟»، أسأل رائد. فيهرّ رأسه ساخرًا: «كنت أعرف أنّك ستسألني هذا السّؤال، أنت تحافين منهم». «نعم أحاف، نسر على نفسي، بل على مستقبل البلد». «نعم نعم، كانت هناك محاولات منهم للسيطرة. عرض علينا أحرار الشام في شهر أيلول من سنة ٢٠١١ تحرير الحواضر بحر رفصا. حفنا أن يبقوا في كهرنبيل بعد التحرير. جهة النصرة أيضًا عرضت علينا في شهر شبّاط سنة ٢٠١٣ المشاركة في المظاهرات ونفيا برفض. برأيي أنّ السّكان المحليّين كان لديهم رغبة في وعود الإسلاميين لأنهم اعتقدوا أنّهم وحدهم القادرون على تحريرهم من الأسد، لأن الإسلاميين يملكون حال والسّلاح والعقيدة الجيش الحرّ تمويله ضعيف ولحا بعضهم إلى سرقة من أجل التمويل. السّبب الثاني أنّ السّكان المحليّين طوّا أنّه إذا دخل الإسلاميون سيحققون الحكم العادل الرّشيد بعد عقود من حكم طائف لم يحدوا فيه سوى القتل والنّظلم وكان هذا النظام، منذ

عهد الأسد الأب، يقدم نفسه على أنه نظام علماني. لكن، وبعد أن دخل الإسلاميون إلى المناطق المحررة، وحكموا، اكتشف الناس أن الإسلاميين لا يمكن أن يحكموا بالعدل، وهم سمحة عن النظام. أنا أقصد بالإسلاميين أولئك الذين يريدون الخلافة الإسلامية وتطبيق حدود الشرع من جماعة القاعدة. الآن صاروا شعباً مرفوضين، والتكاد المحليون يريدون رحيلهم». أطلب من رائد التوقف مرة أخرى: «اشرب كأس ماء يا شهريار»، أقول له.

فمت وحضرت إريقاً من الشاي. فجأة دنت الحماسة، وشعرت بأن بإمكانني السقاء يقظة لأربع وعشرين ساعة إضافية. كان يعويبي تدوين شهادات الناس على الأرض، من المعتقلين والنشيطين والمقاتلين، أنا راية الحكاية. أنا جزء من الخيط الواهي للحقيقة الملنسة في التاريخ. لا حقيقة كاملة هناك سطور عريضة تقول أن نظام الأسد مارس إحرماناً لم يعرف التاريخ المعاصر شيئاً له، لكن من جهة أخرى هناك حيوط تقول أن هناك صناعة حقيقة تمت، مع الأحد في الأعمار الظروف الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة المجتمع ونعامة الذئبة، لتحويل المناطق المحررة مناطق تسيطر عليها كتائب جهادية الحقيقية أيضاً تقول أن هذا المكان يقاوم الطرفين، وأن الثوار، ورعه أن معظمهم قتل أو اعتقل أو حطفت، أو حرق من البلد، ما رأوا بدومون مقدومتهم استثنائية وملنسة ومعقدة. وهي تتحول شيئاً فشيئاً حرباً دينية. هكذا كانت الثورات دائماً عبر التاريخ الحروب جزء من حقيقتها الحرب الأهلية، أقول لرائد وأنا أصف كؤوس الشاي: «نعم، نحتاج لرأس، لكن الظروف صعبة»

كان الشباب يسحبون إلى العرف الداخلية. قلت لحمود أني انحرّك قبل الانتهاء من بعض الأسئلة.

رزان سبقتنا، ونقيت أنا ورائد وحمود.

«الناس ما عادوا يريدون الكنائس الجهادية، لكن أظن أن
حادثة الشعب للشورة تصعب جدًا، أليس كذلك؟»، هذا كان سؤالي

«نعم»، يجيب رائد ويهز رأسه كالعادة، ويلوح بيديه. كنته
عربستان، مثل رجال الحال، وهو ضخم النحّة. يتابع: «هناك أخطاء
وهنا بعض الناشطين الأوائل، أرعبت الناس، لكن العصب
الأساسي نصت على العسكريين، لأن عدم قدرة العسكريين على
صدّي نصف المتواصل الذي كانوا يتعرضون له من طيران الأسد
عندها كانت هناك محاولات كثيرة من قبل الجيش الحرّ في البداية
لإسقاط وادي الضيف وتحريره. عشر محاولات باءت بالفشل. وهناك
ثلاثه عشر عن حبيبات. هذا الأمر أفقد الناس الثقة بالجيش الحرّ
كقوة في بداية الثورة يشقون به ويمجدونه، لكن السلاح كان ضعيفاً
عدم مشهد لأنهم وهم يحاولون تحرير الأراضي، لكن عدم وجود
مصدر صريح حسم بحسب نحن نموت لتحرير الأرض وهم يقصصون
ويحرمون لأحضر والناس، ثم هناك سبب آخر، للتطام أعوانه هنا،
وهو من يهود يشوه صورة الجيش الحرّ وفكرة الشائعات عن الثوار
من عميل في الإغارة والإعلام والسلاح. كانت هناك أخطاء كثيرة،
لكن هذه منعمل الإشاعة كأداة حرب أساسية في بثّ الدعر والتفرقة
من بين، ثم إن على نواب الشنة الناشئة من الثورة، الناس تعموا
هم يحزنون عن بعض بحمنونه مسؤولية أخطائهم عدم الحدود من
مصدر ضعف كل هذه الفترة مع العنف الوحشي لنظام، وحروب
كثير من النظام والناس بعيداً عن سورية، كان سبب مهمّاً أيضاً
نسب جيش الحرّ بقتل نيل بهار، دون دنده، والأهالي يرون كيف

يموت أولادهم دون نتيجة، والإعلام يصور دون جدوى، والإعاقة بالكاد تأتي بربع الحاجة، ولا ماء، لا كهرباء ولا طعام. باختصار الناس يموتون حذاً.

«هل من الممكن استعادة الحاضرة الشعبية؟»، أسأله مباشرة، فسطر إليّ باستعراب، لكنه بجيب بسرعة: «الثورة بدأت وهي ماضية، نحن كنا مجموعات الضف الأول من الشباب الذين بدأوا الثورة، منهم من استشهد ومنهم من ترك البلد أبناء الضف الثاني من الثورة عملوا في الثورة، في المكاتب التي قضا بإنشائها لتنظيم الحياة في أرض المحررة مكاتب إعاقة وإعلامية ومالية وإحصائية. مكتب الإحصاء مؤلف من اثني عشر شخصاً ومنهم ستة «كمبيوترات» لإحصاء الجرحى والمعتقلين والشهداء ورصد ما يحصل. المهندسون يوثقون بشكل يومي عملية الذمار والفصم حتى يستطيع إحصاء كلمة إعمار بلدنا. يعني نحن عندما بدأت تصل التمرعات من أهالي كفرنيل المعتربين، قررنا أن نؤنس مؤنس لتصل هذه التمرعات لكل الناس، وحينها أشأنا ما صار يُعرف بالمكتب الإعلامي، لسوريع المال على المحتاحين، وينكفل بدلت، أساس مشهود لهم بالأمانة والاستقامة والاحترام بين أهالي السند وأباء، كما تريب، كنت بالمكتب الإعلامي، في شهر تموز سنة ٢٠١٢ فكريا مكتب للإعاقة، بعد أن صار المكتب المالي غير قادر على مائة شؤون الإعانة بسبب التروح الكبير من القرى إلى كفرنيل، كان عدد خمسة عشر ألف دوح وكان يحب إطعامهم. فتحا المكتب الإعاقة من سعة أشخاص. عندما اشتد القتال، حرج لتارحون وانكسب التي حاءت لمساعدتنا قضا بإطعامها، هكذا كنا بعمل وحديا، من دون الاستعانة بتعارب الأحرار نحن صنعنا أفكارنا بأنفسنا كيف يمكننا أن نبأس من إعادة الحاضرة الشعبية إليها هذا

أمر صعب، لكننا الآن نواجه خطرًا أكبر من قدرتنا. كل هذه الكنائس
 جهادية والموضي الحاصلة غير معروفة المنشأ تقف عائقًا أمامنا.
 تنتسب لي، لن أتوقف عن هذا الحلم، لدينا تحربة مهمة وعموية
 ونراكمية بحب العمل عليها. لن أياس أبدًا، لكنني لن أقول أنني
 نستطيع إعادة انحصاة الشعبية بساطة. يتوقف رائد عن الكلام بزهة،
 ثم يتابع. «أعتقد أن هذا يكفي، لا يوجد المزيد». وأما توقفت عن
 كتابة، وأشعل كل ما سيجارته.

كنت السماء تلمع. ولم أستطع التعمؤ بحرف واحد رائد ينظر
 من شجرة الزيتون، ويهز رأسه، والضممت في الليل كان غريبًا. ليل
 لا دوي المحارات. حيداك كان ثقب قلبي يكسر ويكر ويرى ألا آخر
 هذا نيل نظويل.

العادات والتقاليد هنا في الرّيف تشكّل جزءاً من هويّة ثقافيّة وسلوكيّة، حيث كنت المرأة لا ترال تعاني من الاضطهاد الذي رادته هذه الحرب قسوة، ثم جاء تنظيم «داعش» و«جبهة النصرة» و«أحرار الشام» وغيرها من الكتائب الجهاديّة المتطرّفة لتفرض قيوداً تلغي حضور النساء. كنّ وما رلنا بحلم ونقاوم. رزان في بداية الثلاثينات من عمرها، اعتنقت مرتين في سجون الأسد. صغيرة الحجم. كان بيتها حميمياً كنت موفقة بأنّه كسافي البيوت التي عرفتها، حرّاء من حسيبي المر، استعصر عن سورية كلّها بالبيوت تلك. كلّ بيت له مكانته، بيت «أبو إبراهيم»، حيث أقبم المكاتب الإعلاميّة، الأمكنة التي بقيت فيها لساعات طويلة محاصرين تحت القصف، بيت «أمّ خالد». بيت «عبوش» المحترق البيوت المتراكمة في الدّاكرة والتي تهدّمت بفعل القصف، كنّا نحرك كنّا نعيش حياة عاديّة. نحن والموت نتغازل. القصف لا يتوقّف. نكر يحب أن بعد القهوة بهدوء على «عار» صغير. فجاءت القهوة هذا أهمّ من فكرة الموت والحياة في صباحات القصف!

ينوجب علينا الاعتراف بمظهرنا جيداً. التنظيف اليومي المتكرر
بماء الشحيح. بفعل ما يجب أن نفعله. الحياة تستمر بكل تفاصيلها.
منظر الشباب ليأتوا ويصطحبونا معهم، حتى لا نسير كعريبتين في
نور «كفرنل».

اعتلت رزان في شهر كانون الثاني سنة ٢٠١١ من قبل فرع الأمر
نسبي في دمشق، على الحدود الأردنية - السورية. بقيت في سجن
ادعاء مع القضايا المتهمات بجرائم القتل، ثم نقلوها من مكان
إلى آخر. كل يوم تنقل إلى سجن مختلف، حتى وصلت إلى دمشق،
حيث أطلقوا سراحها، وبعد شهرين اعتقلت من جديد، في فرع
مخابرات الحوثة، ثم أطلق سراحها، ولم تتوقف عن العمل. هربت
عبر الحدود، وقررت العودة إلى ريف «إدلب»، للعمل من أجل الثورة.
بعد ذلك «إن الجيش الحر كان في قلب دمشق، وكنا مهتئين لتسقط
الحكومة وكان محتمل اليرموك محترقاً، وكنا نعقد اجتماعاتنا هناك».

عملت في الإغاثة الطبية وفي التوثيق كانت قادرة على الجمع
بين الناس، وهي واحدة من أسرار وحوه الثورة، ولا تزال تحلم
سرحها. رغم ما يحدث. أنا كان لي رأي مختلف، كنت أرى أن
ثورة بدأت مرحلة حراها الضعب، وأن ما يحدث يتم التخطيط له
خارج الأراضي السورية وخارج حدود الثورة التي حلمت بها، لكن
نفسه لي. كان حيار تحني عن العمل من داخل الثورة، أمراً عبر
ول نقدش

حده أنو طارق، اسطرب أنا ووزان في نهاية المطاف الثورية
مؤلفه. في الشارع كان الترحيل حيات من قبل، وله سمعة طيبة من
سرح. وهو هند فصاع عسكري لأن، لا يزال يحلم بسورية واحدة،
ولا يرى في ما يحدث سوى حرب مصطفدي ضد نظام طاعية، ولا

يريد أن يسمع أي كلام عن الطوائف والأديان، رغم أنه كان يصلي ويصوم، وملتزمًا بدينه، لكنه كان يقول: «هذا أمر آخر، نحن نريد بناء دولتنا، ولا نريد خرابها»، سوف أذهب اليوم معه إلى «معرة النعمان» و«البار» أترك رران في البيت، ونشحه في طريقنا.

«معرة النعمان» كانت مدقرة بالكامل. وهي حظ حبة، ولا تزان حتى الآن تتعرض للقصف اليومي العنيف. كان هذا منذ ثلاثة أشهر فقط، والوضع الآن على ما هو عليه. ماذا يعني ليفصفوه في هذه المدينة التاريخية العريقة؟ الرجل الذي سذهب إلى لقائه كان أمير حركة «أحرار الشام» في «معرة النعمان»

نحاولنا منطقة الخطر التي حفظتها غيبًا لأنني كنت أرافق رائدًا عندما يذهب إلى سوق الخضار قبل الإفطار. كنت أحنى رأسي وأحس أمانتي لدقائق. هذه منطقة القنص التي يطل منها حدود النظام قبل أن يدخل «المعرة» بدقائق، سقط صاروخ، وكان الانفجار عيبًا. لم نوقف. استمررتنا بالتقدم.

المشكلة التي كانت واضحة، أن سيطرة استبدادية من نوع آخر دخلت، وصارت تشكل عائقًا جديدًا أمام أي عملية نشاط مدني، أو محاولة لسمية المجتمع المهذم. لكن البدء بخطوات بسيطة لا نستمر انكسب الجهودية سيكون مدخلًا جيدًا للحفاظ على علاقة إنسانية بين النساء والنساء الحارحي. لم يعد مسموحًا بأي نوع من أنواع الاحتلاط تحول الأمر قديونا، والظهور من غير حجاب، صار أمرًا عبر وارد بالمعنى أي امرأة غير محجبة هي عرصة للملاحقة، وأي ناشط أو ناشطة مدنية سيكون تحت خطر الخطف أو القتل أو الاعتقال. لكنني لم أياس أبد.

كنت مصرة على إجراء هذا الحوار مع أمير «أحرار الشام»،
ونكتي جزمت بأنني لن أعرفه نفسي

«أبو طارق» بالنسبة للجميع أهلٌ للثقة، وهو حدير بها. لقد كان
محضاً للثورة وللناس. لكنه المحضر اليأس!

بوخها إني مكان الاسحار. القديفة سقطت قرب مدرسة
الأطفال. كان شباب جمعية «بسة أمل» يشرفون عليها. القديفة
حرفت أحد الجدران، وانهار جزء من السقف على المقاعد الملوثة.
من غير الممكن أن يصدق المرء أن هذا المكان الملوّن تمّ صعه وسط
حرائب السيوت. هو بيت قديم تتوسطه الأشجار، وحيطه ملوّن، وبين
ركم الحجارة، ترر لوحات رسم عليها الأطفال بخطوط دقيقة دعمة
شكلاً مختلطة. أمام باب المدرسة، كان يجلس رجل عجوز، وهو
يرفع يديه إني السماء. الذحان والعبار كانا لا يزالان يملآن المكان.
رجل المحور أصيب ابنه بالقصف ومات في ساعته. «كان هذا
مذبح» يقول شاب واقف بالقرب منا، وإلى الجاسين نفايات وأكوام
حجارة. كنا وسط ثلاث جهات قتال.

مير المدرسة المدمرة ومكتب أمير «أحرار الشام»، الحراب يبدو
حماً أكثر وأكثر الفصمة لا تزال في الشوارع العالية، وأحياناً يلمح
شاره نضادة.

المكتب الذي يجلس فيه أمير حركة «أحرار الشام»، يشبه مكتب
مدير مؤسسة حكومية يصع سلاحه إلى جانب الأريكة، وأمام المكتب
معدنور لمحرسة في الجهة المقابلة، كانت عوائل تحرج وتدخل
سعيهم لحركة المقاعد والأريكة من الحدد الأسود المكتب الحشوي
يجمع، مضيق، ومجموعة من الأسحة من الزخافات نصطف وراء «أبو

أحمد». أمير «أحرار الشام» عمره ثمانٍ وثلاثون سنة وهو من إحدى القرى المحيطة «بالمعرة». وكان يعمل نلًا في لسان قبل الثورة، ولديه مشاريعه هناك. عندما بدأت الثورة، ترك لبنان وجاء في الشهر الثامن من سنة ٢٠١١، وانضم إلى الحراك العسكري مباشرة. لم يشارك بأية تظاهرة سلمية، ولا علاقة له بالحراك المدني. كل هذا لا يعبه، كما يقول. انتسب إلى مجموعة مسلحة من خمسة عشر شخصًا.

«أبو أحمد» أشقر الشعر، لحينه طويلة كثة، معتدل الطول، ممثلي الجسم يتحدث إلي ولا ينظر في وجهي. لم يسأل من أكون. قال له «أبو طارق» أنني أعدُّ كتابًا وأريد رؤيته، فوافق بدأ بمعلومات بسيطة، وكان يتوخه بالحديث إلى «أبو طارق» مبتسمًا. طلست منه أن يتحدث بما يريد عن نفسه وعن حركة «أحرار الشام»، عرفت أن عناصرها يروّجون لحركتهم، لذلك وجدت الفرصة سانحة بحثه على الكلام. كانوا يشكلون حرةً أساسيًا من المعارضة المسلحة الإسلامية، وقرينًا فاعلاً في الشمال أدار رأسه، ووجه الكلام إلى «أبو طارق». فاطمه أحد المقاتمر، دون إلقاء السلام، بأن وضع ثلاثة رشاشات على الأريكة، ثم خرج

أنظر في صفحتي ليضاء كنت خائفة قليلًا، لأن أصوات النصف قريبة، وبحر بين جهات قتال عدة، ولم أستسغ فكرة أن أكون في حصرة أمير من جماعات الجهاديين، وأقوم بإجراء حوار معه، وكم يكمل مدوني لكنني انتسم، وأحاول إخراجهم من تكتمهم. كان النهار قد انصف، وبدأت أشعر بالضييق والاحتناق، حلقي يحقت، تعرقت فحاة نكر «أبو أحمد» نكلم أخيرًا، وبدأت أكتب «التحققت بالحراك العسكري لإسقاط نظام بشار الأسد وإحلال شرع الله على الأرض عن تحت ظلم وإحرام حافظ الأسد وأنه أكثر من أربع وأربعين سنة

هذا يكفي، كانوا يقومون بالتحقيق معي فقط لأنني أقوم بقراءة كتب
 ابن نيمية، واس قيم الحوزية. فعلوا ذلك مرات عدة، مع أن حزة من
 عائلتي كان يساند النظام، هذا نظام كامر. وما أفعله الآن جهاد في
 سبيل الله. عندما اجتمعنا أول مرة، كنا نملك ثلاث بنادق وسيارة
 واحدة فقط، مع أبو السراء، وهو أحد مؤسسي حركة أحرار الشام،
 كان ذلك في شهر آب من سنة ٢٠١١. ناقشنا إن كان يجوز لنا قتل
 عسكريين وتوصلنا إلى أنهم إذا انشقوا فلن نقتلهم ولكنهم إذا ماتوا
 أثناء القتال، فهذا ليس إثماً علينا وموتهم حلال. بدأت حركة أحرار
 الشام بحمسة أشخاص فقط. كانوا يقولون لي أن أبو البراء تكفيري،
 ويريدون ما الانتعاده. لكننا بقينا معاً، وصنعنا العوات الساسة في
 طريق دوريات الأمن. لكن، عندما تدخل الجيش اخلف الأمر. لم
 توقع أن تدخل الجيش ويقتلنا، ويقصف المدنيين. كان هذا في بداية
 سنة ٢٠١٢. عندما بدأ القصف، حصلت عملية إبادة، واختلفت
 حقت. كنت الأح السادس الذي انضم إلى أحرار الشام، وأنا من
 مؤسسين، وتعرفت على الأمراء الذين قاموا بتشكيل أحرار الشام.
 وبعد أن وأبو السراء يقوم بعمليات التمجير بالعوات الساسة. متقل في
 ساءه من وكل خمسة عشر يوماً يقوم بتغيير لونها، واكتسب شهرة
 سمح لتبيلات، والأنا أمير المعزة، ولدينا كنيه من ألف أح
 محمده

الكر، ماذا تعني كلمة أمير هنا؟ لم نسمون بأمراء؟ أنتم هي
 «أحرار الشام» وهي «جهة النصرة» و«داعش»؟، أسأله.

سفر إنني حفظ، بهز رأسه، ويتابع «الأمير يعني المسؤول
 عسكري، والذي يحفظ للمعدات، وهناك مسؤول شرعي كالفاضي،
 سبب هي تكتبة ما يسمى مجلس الشورى، لكن هنا قرار الأمير هو

المرجح أقول: «إدّا، ما الفرق بينك وبين حافظ الأسد واسه، يا
 كى العائب هو رأيك؟». يحيب بهدوء: «ليس للأمر علاقة بي لكن
 هذا قانون. للأمير ضعف الأصوات». لا أجادله وأترك له فرصة
 الكلام. كنت أصوب عيني على فوهات الرشاشات الموضوعة جابه.
 يسمع «الأمير هو المسؤول السياسي أيضًا. لكنّ العمل العسكري هو
 لأمن. نديب متصوعون كثير من الإحوة الجهاديين بين المقاتلين.
 نحن لا نهنة نأمن، لكنّه يساعدنا على استقطاب أصحاب العقيدة
 الصحيحة. لا رواتب لدينا».

فصعته «كنسي عرفت أن هناك رواتب لمقاتليكم، وهذا
 جمعيات لكم ومؤسسات تجارية، وهذا ليس بخاف على أحد». أجاب
 وهو يصر في عيني للمرة الأولى، وبالهدوء نفسه: «هذا يستنى
 أصحاب المقاتلين، الرواتب من أجل أسرهم، ومصرفهم،
 وجمعيات من أجل مساعدة الناس». «والمؤسسات التجارية؟»
 أصعب. فداخعي حدة. هي البداية كانت هناك متاعب، لكننا مع
 معركتنا، بدأنا بعد من السلاح. صارت لقمنا من الجيش. هذه أموال
 مبروفة من مسمم ويحب أن تعود للمسلمين. في المعركة ها
 شرب عدة صهاريج لعل مياه الشرب من بئر للناس. لا يوجد ماء
 ولا كهرباء. ومتربع الاستعمارية هي لمساعدة الناس طريق
 حوسه. وبصرف الله بصركم يوجد لدينا مستقلون عن الثورة
 ونديب من الجهاديين غير السوريين مخلصون لنا، ولدينا الكثير من
 سورس من الإحوة المسمم الذين هاجروا إلى الخارج وكبر
 ولادهم في المسمى هؤلاء عادوا لنفبال معنا بالعموم، هناك نسبة
 ندية وسبعين بالمئة من السوريين كان هناك ثلاثة من الشبان،
 لكن أصلهم سوري، هاجروا أبوهم منذ بداية الستينيات».

«أبو طارق» يتدخل، بين وقت وآخر، لإضافة فكرة، أو شرح ما هو غير مفهوم. كنت أحاول إبداء أكبر قدر من الهدوء لكنّ الجو كان حارًا، وأصوات الضخّة خفّت في الخارج. وبدا العالم مسالماً بحصة مازدا ما أحطى بذلك الضمت في وسط النهار. لكنّ رائحة لحن أطلقت على صدري.

«ما هو شكل الدولة القادمة التي نريدونها؟» قلت. نظر في عيني مشيرة «ما نريد» هو سقوط الطاغية» فألححت عليه مرّة ثانية وكرّرت سؤال، وبحدّية تامّة: «طبعًا، نريد إمارة إسلاميّة. سوف يكون لدينا مبرر لمؤمسين، ومجلس شورى» بصمت. فأقول: «ثم؟». «ثم مد». سيكون هناك قوانين تحمي الطوائف والتصارى. ممنوع على جرّاء الخروج من دون حجاب. الشفور ممنوع هذا أهم شيء».

كان «أبو طارق» يطر إليّ، وأنا أتابع تدوين ما يقوله، وأسترق صوته. «أبو أحمد». لكنّه عندما أنهى جملته الأخيرة، نظر «أبو أحمد» إليّ، محدّرًا بعينه، اتسمت، فتابع «أبو أحمد»: «العلويّون لا مدّ في سورية، المسيحيّون يعاملون معاملة التّصارى في الإسلام». «أبو أحمد» ثمّ نشر بحلافة راشدة» يقول «أبو طارق»: «والعلويّون سمر مع الثورة والدور». «العلويّون الذين مع الثورة قلّنا، سرحوا، ونحن مسافلون العدويّين والأكراد حتى أحرّ قطرة دم». سمعت إحداهم لأكرادها، لكنّي تأملت الكتبة: «الديبا حمسة» «عشرون» أح في مجلس شورى، ولا يعرف ما يستقّر برلمان. ولا غير أن مشي في بهج الإخوان المسلمين وليس متفقين معهم نديا لأنّ زعماء مبادرة وزعماء هذا من المصالحات»

كنت أشعر بقطرات العرق تساق من تحت أذنيّ ونحرق منتصف صدري وسفري في بعض تلك القطرات برداد، وأصابعي ترتجف.

فكرت في تلك اللحظة في أن أي حركة أو رد فعل في التقاش ستكون
قائلة ومميتة. ركزت في حروف الكلمات التي أكتبها، فأنا الآن كاتبة
وصحافية يحب عليها إنهاء مقالتها وتدويناها ثم الانصراف، وهذه
أولوية، ثم يحب رمي المرأة الأخرى التي تنفس الآن وتنتعرق
وترنح حقا وخوفا. الآن أنا في طور النظر إلى المرأة الأخرى التي
ستكون لاحقا.

يتابع أمير حركة «أحرار الشام» في «معرة النعمان»: «نحن وجهة
النصرة متفقون في العقيدة، يختلف في بعض الأمور، وهم رجال
أشواق»

أسأله «ما اسم أمير حركة أحرار الشام الآن؟». يجيب بغبطة
«كبريا وأمير هو حسان عتود أبو عبد الله، وقد كان سجيناً وأطلق
سراحه في الشهور الأولى للثورة. نحن لدينا حب دينية مهمة، وعملنا
مد البدايه على وجودهم بسا. في أيار سنة ٢٠١١، اشتغلنا بسرية
وحذية، ولم نعلن عن تشكيل مجموعتنا حتى نهاية السنة. نحن الآن
حرر من الناحية الإسلامية السورية وكنا قبل أربعة فصائل، اتحدت في
م سها وشكلت حركة أحرار الشام وهي حركة الفجر الإسلامية،
وجماعة الطبيعة الإسلامية، وكتائب أحرار الشام، وكتائب الإيمان
المقدسة»

«أنا نعد عربنا أن يطلق النظام سرح الشيخ حسان عتود في هذا
السبب نندب» ينظر إلي مستغربا. أقول: «توقيت اندلاع الانتفاضة
هذا الأسد». لا، لم أحد ذلك عربنا. أسأله عن داعش وموقفهم
منه. يقول: «الإخوان في دولة العراق والشام موحودون هنا في المعرة،
وعد شاركوا مع في القتال وقسم كبير منهم من المهاجرين، إنهم
يريدون القتال ضد القذافي الصغيرة» يقول «أبو طارق»: «أخرب

ويجب أن يذهب، فأهز له برأسي. سوف تنتهي قريبًا، يضحك «أبو أحمد» ويقول. «أنا تحت أمركم».

«كيف تختل الوضع عندما يسقط بشار؟»، أعاجله بالسؤال. يجب. «ستحصل نزاعات كثيرة. هناك حروب بين بعض الكتلان، ثم لن لا أفكر بما سيحدث بعد سقوطه. أنا شهيد بإذن الله تعالى، أنا نصت في المعركة ست إصابات، وبعد الإصابة الأخيرة لم أشارك سوى في معركة واحدة».

«هل صحيح أنه يوجد الآن أمراء حرب؟». يجيب: «نعم يوحنا، هكذا هي الحروب». أقول له: «هذا يعني أن سورية ككيان وطني لم تعد مقبولة بالنسبة لكم؟». «كيف هذا؟» يرد مستغربًا «يعني أنكم يريدون أن تكون هناك دولة الإسلام وهذا يعني انهيار كامل لسورية؟». «لا، نحن فقط نعلي راية الإسلام. سورية تبقى كما هي لكن سلامة، العلويون يحرقون». قلت له: «هم أكثر من مليوني شخص، مدد عن المسيحيين وغيرهم من القوائف؟»، قال: «ليخرجوا من سورية، أو يسلموا، أو يدفعوا الحزبية؟». «ومن لا يخرج؟»، قلت. «حبس أسلفي مصير». «القتل؟»، أقول. «هذا حراذهم»، يرد. «أو نساء والأطفال؟». «ليخرجوا، ليخرجوا»، يرد ولا أترك له مجالًا لسوقف «والذوور والإسماعيلية ماذا ستفعلون بهم؟» أسأله صوب عن هؤلاء إذا عادوا إلى الإسلام أهلًا وسهلًا بهم، وإذا لم يفعلوا بهم حكم الكفار، مدعوهم للإيمان، أما العلويون فهم مرتدون يجب فسهم. صحت محاولة تعطية نوثري، وعلت «نكن النساء والأطفال، النساء ما دسهن؟» أحاب «النساء يبدن الأطفال والأطفال يصيرون رجالًا، والنزحل يفلوب؟» وقف «أبو طارق»، «لا، هذا كلام لا يمتكم! الله يحبكمي يا عدام، لازم يمضي»

مهمت أنه لم يعد مسموحاً بي بالحديث، وكان «أبو طارق» يطر إلى
 بدهول، وأنا هدته تماماً. نهضت بشاقل، وقلت لـ «أبو أحمد»: «لكن
 هذا ليس دين تسامح، وهذه ليست إرادة الله، هذا شر مطلق». هز «أبو
 أحمد» رأسه، وقد «دعي أمور الحرب للرجال يا أختي»

بسم كت معادر، حدثني عن مشروعه لإنشاء مدرسة تحفيظ
 القرآن، وهو مشروع يأمل من خلاله بأن يضم أطفال «المعرة». قال:
 «سمعت أنك مهتمة بالتعليم، أجبني: «جدًا يا أبو أحمد، هذا أهم
 عني فعنه» قال: «نحن نريد فتح مدرسة لتحفيظ أطفالنا القرآن». فست:
 «حراكم الله خيرًا، لكن القرآن للدين الناس، والتعليم لعقل
 الناس، ونحن نحتاج العقل لشري، دع الله في المواد». هز رأس
 سعيد. وهممت أن أعزته بنفسي، لكن بطراب «أبو طارق» لجمتي.
 انضمت بسرعة بالسيارة. كان «أبو طارق» واثمًا، وبقينا صامتين.
 فحبب كفي، بعد أن صرت خارج «المعرة» وكنت تاربع الرابع من
 اب عيني شكل جيد على راحتي.

«أبو طارق» في الأربعين كان يملك ورشة لتصنيع بدلات
 الأعراس والأفراح. وكنت ورشة «مواديك» ورحام. ميسور الحال
 خرج في بدهول سمينة منذ اليوم الأول، وهو يريد دولة مدنية،
 ويؤيد دنلا من تسجيل تطبيق الشريعة الإسلامية على المجتمع
 سوري. هد مخالف طبيعة المجتمع». درس حتى الضفت الحادي
 عشر (الشوي شوي) خرج مع الشوار طوال سنة وبقي ملاحقًا قبل
 خروج حرس. رعه أنه فند فضاء عسكري كامل، ويلدرج تحت امرته
 سوف يحاصر مع دين. عدى بسقط بشر سوف يقوم بترك السلاح
 ويعود بر عنه

بعد أسابيع. وبدأ الحديث مع المفانلين. كان «أبو طارق»

يتحدث بلغة الأرقام، ويسأل عن احتياجات القطاعات، ويحضر الشاب بأنه سيراهم بعد الإفطار. يعلو صوت آحر من اللاسدكي، وتتكبر الأرقام أطلب منه المرور على خط الحبهة، فيقول أننا نقف على حدوده، ولن نصعد إلى أعلى الهضة في نهاية الشارع.

قطط تتشر في الشوارع. قطط هزيلة، وقطط سمبية. سميتها عربية معوكة. الذمار على ما هو عليه، يرداد فقط، وتحتلط المواد بعضها. هكذا في الحراب، تتماهى الأدوات والمعاصر مع كتنة من تقع الغريب.

عندما يقترب من الحبهة، تتحول هذه الكتل المدمرة إلى لون أسود، هي آخر مراحل تشكّل كتلتها المادّية، الحرق، بحيث لا يبقى منها سوى قصبان الحديد وإسمت وحجارة. لكن هذا يكون أفضل لأن الأوساخ تتحول إلى رماد.

هـ لا أثر للبيوت، «أبو طارق» الذي استشهد سعة من أصدقائه مدّ يده انقزال، بدا هادئاً وهو يطلب مني ألا أترخل من السيارة، وأصاف أنه «لا يمكنا البقاء لأكثر من دقائق». لم يكذب يهي حملته حتى بدأ أربير الرصاص من الحبهة الأخرى أدار «أبو طارق» محرك سيارة وعاد أذراجه.

كان يوم أمس ثقيلاً جداً، لأنّ عملنا كان بعد الإفطار والقصف
 مترامس معه، حيث الذهاب إلى المدرسة بقرية «الدار» في «باحر
 الكرامة»، ثم العودة ليلاً واستقنا مجموعة من الشباب والمفانيل
 والحوار معها. جاء رجل إلى المكتب الإعلامي، قال أنّه قادم من
 اندسارث، من أهل مارتس سودر، وهو يبحث عن حيط يدلّه عليه
 وصل ليلاً، وقال أنّه يريد رؤيتي من أجل الاستفسار عمّا حصل. كنت
 سست أنّ وعودي صار مكشوفاً، ومن الخطر البقاء، لكن شيئاً من
 بعد حملتي أنقذ لمتة أطول، إذ لا بمكسي الاستسلام بسهولة لفكرة
 أنّ المصحق التي أطلقنا عليها اسم «المحرّرة» صارت محرّمة، وتشكّل
 خطراً لا يقلّ عن خطر نظام الأسد، بالنسبة لامرأة مثلي! هي أسوأ
 تأكيد «أبو المجد»، قائد لواء فرسان الحق، قال إنّ عليّ ألاّ أحتي
 شيئاً بينهم، لأنهم يقومون بحمايتي بشكل جيّد. كنت أعرف أنّي
 بأمان بينهم، لكنهم هم أنفسهم لم يكونوا بأمان. وكنت أودّ إنماء
 مهمي مع النساء والأطفال

سهرًا حتى وقت متأخر، وعندما عدت إلى بيت دراز، كانت
الفتيات مستغرقات في النوم تحت الملاءات، وأصوات صحكات
الأطفال ورعيقهم في الأسفل تعترض دويّ الانمحارات البعيدة. إنه
نوم السادس هنا بلا كهرباء وبلا ماء وبلا «إنترنت» إلا ما بدر،
والحلولب الكهربائية لا تستخدمها إلا للضرورة من أجل توفير الوقود
هناك فتيات يدحlsen إلى ريف «إدلب» ومناطق الشمال يعملن في
إغاثة العلية وفي الإطعام، وقد تطوعن لهذا الأمر وتركن بيوتهن في
أمريكا وأوروبا والمناطق الحاضنة لقوات الأسد.

دسنت نفسي في المراش الأول على الأرض وغططت في مبات
عميق كقبيلة استيقظت في التاسعة والتصف صاخًا. في هذا النهار،
سددت للقاء أمير «حبة النصرة»

كنت أحول النقاء بأحدهم مد أكثر من ستة أشهر، ولم أستطع
«أبو طارق» سيأخذني إلى «الدرة» حيث سلتقه كنت على راحة يدي
عندما ركب السيارة الحاص من آب. كانت الكتابة تمحي في آخر
سهر، ونحوّل إلى لون أرق تصطبغ به عروق باطن راحتي، لكنني
فكرت في أن الرحلة الأخيرة استغرقت وقتًا طويلًا، وأني يجب أن
أفعل كل ما يمكنه فعله لنشيط دكرني التي بدأت تصعب. في نهاية
سهر، أكتب على دفنري في أعلى الورقة الشاربع كاملاً، لكن يدي
مضروحة هي نني كنت بحرنري في أيّ يوم بحر. بدمت بعد ذلك،
لأنني لم أستخدم هذه الوسيلة مد بداية عودتي إلى سورية. والثقب
أسود في دكرني كان يكر أبغ ثقان بتمدّان، بين قلبي وعقلي

في الطريق إلى «الدرة»، يستخدم «أبو طارق» الأسلكي للاتصال
ثلاثة أشخاص لتدريب النقاء. ذهب مع إبراهيم الأصل، وهو شاب
سوري مضوء، قدم ليقوم بتدريب النقاء على فن الإدارة. كان بنحوّل

في الزيف شجاعة وتغاي، ويدرب الإعلاميين والنشطاء المحلّين

لم يكن الوصول إلى أمير «جهة التصرة» سهلاً، فهو مصر
برحلته في آخر معركة خاصها. مع ذلك، كان مصرًا على المراقبة قرر
مصادات الظيران، والوصول إليه كان صعبًا، فهو في منطقة قتال وحطّ
جهة

هذا، في قرية «البارة» دمار كبير. نسمع من اللاسلكي أصوات
المقاتلين يتّون ويشتعلون، كانت قد حصلت معركة كبيرة بين كتائب
«الحيش الحر» و«داعش»، و«أبو طارق» يروي لنا تفاصيل المعركة.
يقول: «إن داعش سرقت الثورة، وإنه من الصعب تركها تفعل ما
تعمده، الحيار صعب بين أن نتمرّع لقتال جيش الأسد، أو التفرّع لقتال
الكتائب المنطرفة والمترزقة التي دخلت الثورة وحرقتنا. نحن نهد من
نساء، مع القنارات وراميلها وصواريخها، ومن الأرض، بهذه
الكتائب الناس تعوا حدًا».

الرحلة إلى «أبو حسن»، تشبه رحلة البحث عن كبر صانع. قبل
الوصول إليه، كان عيب الالتفاف من طرق عدّة، حسب تعليمات أحد
المندسين المحسوبين على المكتب الإعلامي لـ «جهة التصرة»، وكان
يجب أن نصل بعد تعليماته، حتى نصل إلى نقطة محدّدة لبقائه هذه
تحولات أدخلنا في قلب «البارة»، ثم أخرجنا منها ووضعنا على
أصرامها. انقصف منمر. نخرية محروقة ومهذمة كفاقي القرى بعد
كثير من ساعة، ونحن نفق إلى حجاب الطريق، توقفت سيارة «تفرب
م». ونرخل منها شتان. برل «أبو طارق» وغاب معهما لبعض الوقت،
ثم عدد وحف بهم احترق ستان نريبتون، وهصبة صغيرة

لا يوجد حبة مشربة هنا. مرّت سيارة حلس مفاتمون في

صدوقها. مقاتلون شباب يحمون راية سوداء مكتوب عليها «لا إله إلا الله»، واحتلت في درب فرعية وسط النسايس. النهار في منتصفه، ونحن نعلم، أنا نحب أن نعود قبل الإفطار ساعة.

قال نشاب الإعلامي من «جهة النصرة» أننا تأخرنا طلب أن يصورنا قبل إجراء النقاء. أنا رفضت، ولكن هذه طريقة جماعة «المناعة» في النقاء، بالصحافيين والإعلاميين. لم يصروا، فأنا مجرد مرء بعد النقاء، ونحن نعاد، سأحرره باسمي الحقيقي، دون ذكر أية تفاصيل إحصائية. كنت أشعر بحاجة إلى الانتماء إلى هذا المكان وبحاجة إلى الإعلان عن نفسي فهذا جزء من حرّيتي. رغم معرفتي بالأخطار، لكن باسمي من يحصل كان يدفعني إلى ذلك التصريح. حسرت، كانت موجات الغضب هذه تحتاجني، لا سيما عندما يتم «فصل» من قبل «حار» «داعش» وكل أفراد عرياء من تونس والمغرب والنفوذية واليمن والفيضان، ما كان يجعلني أشعر بذلك الغصة التي جعل كمعاني تطمو على رأس شعّتي عندما يسألون. «میں الحرمة؟» يقول أحد نشاب «حائتي أو أمي، أحتي». وهكذا هذه المرة سقطت وسط نفسي حتى آخر لحظة.

منّا في سجن الزينون حتى وصلنا إلى مدفن روماني أثري. كان مدفن يدعى «العمارة» لكنه تعرض لعديمه، داخل المدفن، الحجارة مسروقة، وفي بعض منها، ووراء المدفن بقايا القصف قد تحولت إلى كدم، هذا المدفن عمره قرابة الألفي سنة، لكن «جهة النصرة» ستحرمه هذا. أسأل الشاب «من سرق المدفن؟». يقول: «غير معروف حتى الآن، ثقت سرقات من نظرفين، هكذا هي الحرب». عند ذلك، نعلم من بين أشجار الزينون رجل مرموع، ممسك، أسمر جوه، يرتدي عباءة رمادية، يسكن على عكده. رجله مرتفعة عن

الأرض. كان هذا هو أمير «جبهة التحرير» في «البارة»، ويدعى «أبو حسن».

كان «أبو حسن» يعمل معقداً في بيروت، في جبل الشوف، في حزين ودير القمر. عمل في ترميم المنارل وبنائها، بقي سبع عشرة سنة في نساں يقول: «أثناء عودتي إلى سورية، عندما كنت أعود إلى الدرة، كانوا يقومون باعتقالي واستجوابي، ويتهمونني بأنني سلمي في إحدى المرات اعتقلوني لسبعة أيام، ثم أطلقوا سراحني. أنا لم أكن مهتماً بالسياسة. كانت تعهداتنا وعملنا مع الأثرياء في لبنان. اعتقلوا، أحيى لمدة أربع سنوات، وأطلقوا سراحه في شهر أيار». قلت: «في الشهر الثالث للثورة؟». أجاب: «نعم».

كنت هذه الشهادة التي تتكرر دائماً عن إطلاق سراح السلفيين والإسلاميين في شهور نيسان وأيار وحريان، تجعل من المقولات التي تردّد عن اعتقال الناشطين السلميين وتعذيبهم وقتلهم ونفيهم، وإطلاق سراح الإسلاميين المشدّدين، تزداد واقعية أمامي.

دع «أبو حسن» «أنا كنت ملاحقاً، ذهبت إلى بيروت قبل أربع سنين من حراج قدس. وبعد معرفتهم بحروحي من سورية جاؤوا إلى بني في الدرة. طوّار السنوات الأربع الماضية، عملت بعيداً عن سورية، ونكرت عدم مدّات أحدث درعا، عدت، وكانت الناس قد قرّرت الخروج ضدّ هذه الأسد. خرجنا في مظاهرة سلمية في حرس الشعور، وفي ندرة وفي حل الراوية. ثمّ بحمل سلاحاً حتى الشهر السادس من سنة ٢٠١١، عدم بدأوا يصفقون النار علينا عشوائياً ويفتحون بونا. لم نكن نوي الاشتباك مع الجيش. كانت أهدافنا مقتصرة على أجهزة الأمن. كان الجيش يثبته إتب حياً وطياً ولم يتوقع أن يقوم بصفاء. وبعد معركة المظومة، قرّروا حمل السلاح والقتال. الهدف هو

اندي جعل الناس تحمل السلاح . كان معي حبيها بندقية صيد فقط ،
 استخدمها في الصيد وفي الأعراس . نحن من بسطاء الناس كما ترون .
 هم يكن معروفين في الثورة صرنا معروفين . اجتاح الجيش جبل
 الراوية في التاسع والعشرين من حزيران ، واستخدما سلاحا بسيطا هو
 نكلاشيكوف ، قتلنا بعض الشيعة . لم نرغب أبدا بإطلاق النار على
 الجيش في البداية . واعتقدنا أن ما سيحدث في سورية ، سيكون كما
 حصل في مصر وتونس وليبيا . لكن الجيش اقتحم القرية وكان هناك
 محروون من أهل القرية دثوا علينا ، فتركنا بيوتنا . عندما قام أحد قناصة
 الجيش بقتل امرأة من بيت الحلاق وهي أرملة ، غضب أهل القرية ،
 ولم يهاجمة حاصر الجيش وأطلقنا عليه النار بشكل عشوائي ، فقاموا
 بعصف فريتا بمرمات بي إم بي . كنا نظن أن دخول الجيش القرية هو
 بمصل بيضا وبين رجال الأمن . ما حصل أنه دخل لمساندة قوات
 الأمن في التصدي لنا . كنا أمام معاجاة دخول الدتابات القرية . كان
 هذا احتلالا ، لذلك تركنا بيوتنا نحن الرجال وبقيت النساء والأطفال ،
 وفُرض القتل خمسة رجال في مواجعتهم كنا . حدث هذا في كل
 عرب والسنداب صارت مواجعة شعبية بين الأهالي من جهة ، وبين
 جنود والمخابرات من جهة أخرى ، وكل قرية قامت بتسليح بعض
 شبابها لنذوق عن بيوتها وأعراضها . هكذا ، بدأت الثورة ، بعد ذلك
 حسب الأمر عدانة قميت جعلنا على ثقة من نصرنا ، وقررنا مداومة
 حصر الجيش في البارة والاسنبلاء على السلاح ، لأننا لم يكن بملك
 سلاح ولا المال الكافي . وقصصونا بالذنابات داهما المحافر وفروع
 حرب السمك وأحد السلاح ، وكذلك داهما أفرع الشجيد وحصلنا
 على السلاح طفا ، كان ب محروون . وكنا صغفاء ، لكننا بدأنا سنقل
 مداومة حواجر في جبل الراوية ، لم نقل رجال الأمن في البداية . كنا

بصق سراحهم، وهذا احتلف لاحقاً. ثقّلت أنا بين إدلب وحماه وحلب، ثقّلت. كنت طبقة «اللي كيه سيه» عالية، سعرها ألف ليرة، ولم يكن يملك بقوداً، ووحشية النظام تزداد. كلّ يوم مجارر وقتل ونصف واعتقل. اشترينا السلاح من مدحراننا ومن موسم الزيتون، وك ساعد بعض وتنقارب، وبدا لنا حلم الانتصار قريباً، الأمور اختلعت لاحقاً أسأله: «كيف اختلفت؟».

ول «قضة طويلة، لكن أهمها أننا لا نملك السلاح، وأنّ أهلك وقتل معظم. أنا مدسة، قرّرت الانضمام إلى جبهة النصرة، وبضعة بيها الكثير من الضباط أيضاً. لكن، قل ذلك كلّنا كتيبة شهداء حل الزاوية، وتعرّفنا على شباب لم يكونوا حينها ما نات يعرف لاحقاً بحركة تحرير الشام، ولم يكن حينها أيّ سلاح يأتي من الخارج في شهر أيلول سنة ٢٠١١» قلت: «كنتم تقومون بما يشبه حرب العصابات، تعمرون على الحواجر، تحصلون على السلاح وتقاتلون النظام؟» أجاب: «تماماً».

مظهر رجل من بين أشجار الزيتون. كان من كتيبة حماد معروف أشهر أصلاً ومسمى بعضهم إلبا ولا يتحدّث، لكنّه بصعي. يتبع «أبو حرس» أمر جبهة النصرة. «أعياض القرية قالوا لنا، اشترُوا مصاد ضرر ونحن حذروا. لكنّنا سنقطع الحصول على مصادات طيران وبه يكن مشكله في تمويل لا يريدون بيع مصاد طيران، لذب في مرة منه شهد معروف على اثنين من الشباب المتحبين، وأحدهم كان صديقاً حمي في سجن حرج بعد الثورة بشهرين، وهم من كتيبة التسعة احتبوا عشرة أيام ثم عادوا عراقي على نصيبهم بأنهم من جبهة النصرة في ريف إدلب. حينها لم يكن لهم نشاط في حل برويه ووجودهم بسيط في إدلب وأرادوا أن أكون معهم».

إلى جبهة التصرة حتى تصبح قوة واحدة».

«وداعش؟ ما علاقتكم بهذا التطعيم؟» لا يحيب أبو حس بشكل مباشر: «دعش ليست موحدة على الجبهة. هي في الحطوط الخلفية. كانت كلها قلاً جبهة بصرة وهم عرباء وليسوا سوريس غالباً. نحن دين سامح، سنكون رحماء مع لأديان الأخرى. عمر رضى الله عنه كان رحيماً. لكننا نريد الدعوة إلى الإسلام، ونريد قتل بشار الأسد». قلت له: «عمر كان أول المجتهدين في الدين وأنتم تكفرون الناس». رد كانه اكتشف أمراً ما، مظهر إلي نظرة خاطئة من رأسي إلى أحمص قدمي، وبالأبتسامة العريضة نفسها أجاب: «أنا معتدل يا آنسه! بالتسبة نعبري أنا معتدل! ما تسمعيه لا يروق لكثيرين هنا التكفيريون هنا يدحون ويجلدون هناك مجموعات مخترقة فيا... أنا أريد ديناً إسلامياً يعم العالم كله، ولكن عن طريق الدعوة. هي جبهة التصرة نريد مجلس شوري بدل مجلس الشعب لا نقل بوحود التصاري بس نحن ندعو إلى دين الإسلام. من يدخل فليدخل، ومن لم يدخل بدفع الحرية، ولدي بيت مال للمسلمين. العلويون لا مكان لهم بيتنا».

وأنا اكتب أعرف أن عيني «أبو طارق» عليّ، وإبراهيم كذلك، حيث كان يحاوره أحياناً معي ويدخل معه في نقاش. لكن عند تلك اللحظة، كنت أرثر أكثر على شكل الكلمات التي أخاطها، حتى لا يدخل «أبو طارق» معي في نقاش يخص الإحراج المتعلق بي. يتابع أبو حس «أنا مقاتل وعسكري في جبهة التصرة، وأنا مسؤول عسكري منها، والآن، وبعد مرور سنتين ونصف على حربنا معهم، أقول لك هذه حرب سيئة - علوية، وهي حرب طويلة ولن تنتهي قبل عشر سنوات».

بنوقف عن الكلام المجموعة حولنا تشارك. كل يعطي رأيه.

كانوا ستة رجال. أصعب إليهم. يتمارحون ويصحكون. ينظر أبو
حسن إلي ويسحب من الحديث معهم. «أحرقوا ثلاثة وخمسين رجلاً
لأسيدي في قرية ليس... هكذا من أجل ماذا! سحرقهم. نحن نعرف
أن العالم كله يريد بشار الأسد، وهو لن يسقط ليس لأنه قوي، ولكن
لأنه مدعوم من إيران وروسيا وأميركا والصين، لكن لن نتوقف عن
تتبعه عندما يسقط سأترك كل هذا. وأعود للعمل كمتعهد بناء عدي
ر من ريتون والأولاد ينتظرونني مع زوجتي».

أتركه يتحدث لا أقاطعه، فيكمل. «أنا دخلت قرية عدوية وهم
أقرب النساء ولا الأطفال. أنا ضد القتل الإسلام دين تسمع، ولا
كره في نذير لكن ما أقوله أنا مع مرور الوقت لن يبقى. أنا
معدن، لكن صوتي وصوت أمثالي لن يبقى إذا استمر الحال هكذا
والنحاس سوف يسمو، نذير أرى المستقبل أسود من سيدفع الثمر؟
ليس بشار الأسد العدويون هم الذين سيدفعون ثمن ذلك هم كره
لادين هذا أنت محظي هم ليسوا كره»، أجبه بسرعة، ونظرت إلى
بواحد، «لاهمه أتي لن أتجاوز حدودي. فقال لي: «ما أدراك؟
أنا أعرفهم أكثر منك» فقلت «أنا أعرفهم قليلاً! ولكن يا أبو حسن
بدو أن الشعب السوري لا يعرف بعضه بعضاً».

محمود في الأعلى مثلث وينتهي بشكل مرتفع. القديمة تخترقه،
ومر مؤخره أن صرب هذه المنطقة مقصود، لأنها منطقة حقول ريتون
وبست مصفاة قال. قال الشاب المرافق، قصصه من أجل سرفه،
همر ذلك برحون ندي الصلة إلب من جماعة «جمال معروف»، لكن
شباب في... أنه بعد ممكناً الشكوك عن ذلك، لقد قاموا بسرعة
لأنهم يكرهون بشار وشيخته من فعل ذلك فقط» ولكنهم فعلوا

دنت من أجل شراء السلاح"، يجيبه الرجل ويصمت الشاب.

تحت أقدامنا عالم مختلف من الكائنات. جيوش من الحشرات، نهت وجه الحياة! يسألني «أبو حسن»: «ولماذا أنت هنا؟ وكتابك هذا ماذا سيصيد؟» أقول له: «أنا أفكر في أن أسجل حوارات مع الناس ندين صاروا في الثورة، أفكر في أن تكون هذه الحوارات صوت ندي لا صوت لهم». «وهل سيصدقونك؟» «ليس مهمًا»، أحسب. «انصب نظر إليّ بمصول: «أنت من دمشق؟». أقول له: «ما رأيك؟» يقول: «لا أعرف، لهجتك مختلطة؟» «أنا من كل الأمكنة»، أرد. ينسم ويصيف. «لكن هذه شجاعة أن تأتي إيسا». «وأنت ألسنت شجاعاً؟». يصحك وهو يقول: «أنا رجل وهذا طبيعي». فأقول: «وأنا امرأة وهذا طبيعي»، فيتوقف عن الضحك

سركهم رغم إصرارهم على استضافتنا. «أبو حسن» هادي، يقول أنه لن يقتل طفلاً أو امرأة مهما كلمه الأمر، لكنه يعرف أن ذلك سيحدث مع مرور الوقت. كان شجاعاً، «من الممكن الاستدلال على شجاعة الرجل من عيبه، هذه تحتاج إلى دراسة»، قلت لـ «أبو طارق» عدم سألني عن رأيي فيه لا بد من الاعتراف بأن الثورة علمتني نصر ومن الإصغاء

كنت تبادل الأدوار أنا وهؤلاء الرجال المقاتلون، تبادل أدوار حكيم في الشرد هكذا أقنت العالم رأساً على عقب. اللعب بالشرد كس أنتم بالشجاعة لأنني بحاجة إلى حيواتهم، وبحاجة إلى تحويلها إلى كلمات الحكاية شملت الحياة ستفقد كل هذا الحراب في سوا لأحوال شتى شاهدة حتى لا نذهب أذراع الربيع، وهكذا

«أبو حسن، «أبو أحمد» و«أبو المجد»، سينحولون إلى صوت شهرزاد، وأنا شهریار الذي يصفي. بالمعنى الحقيقي أنا شهریار ثنائي الجنس من يصعي ليعود ويتقمص شهرزاد، ثم يحكي. أنا من يتبادل الأدوار بين شهرزاد وشهریار داخل الشرنقة نفسها، تارة أحلّ فيه وتارة أحلّ فيها. تارة أستمع وتارة أخلق الحكاية. لولا ذلك لتوقفت عن العود إلى سورية. وبقيت في مساي. هذه نورية جماليّة لحسوني بمعرفة الحقيقة. نورية قيحة أجمل بها علاقتي بالرّغبة في كتابة الحكايات.

كان لا بد من العودة إلى «سراقب». تتشكل بيني وبين نفسي
أنا لتحدى فكرة الخروج نهائياً من هذا المكان، وفكرة طردي منه
كنت هذا أم أبيت. استنجار بيت في «سراقب» أو «كفرنبيل»، صار
منحياً، والبقاء هنا والعيش بشكل طبيعي يبدو ضرباً من الجنون،
ويعترض أن لكل إنسان الحق بممارسة جنونه. لكن الذي صار عنا
على الشاب هو تحميلهم مسؤولية حمايتي ومرافقتي في كل مكان أريد
التحرك فيه. فكرت في أنه بات معروفاً لكثيرين أنني في «سراقب».
نكر، كان لا بد من إنهاء العمل مع النساء.

في الطريق من «كفرنبيل» إلى «سراقب» مع مهل ومحمد، أصور
البيوت والأشجار والسماء، بشكل متواصل، البشر الذين يتحركون في
سهولة، لون السماء اللاروردي، الوجود الشاحبة للأطفال الذين
يتوزعون على الطرقات ويعلمون كل شيء.

على أبواب «سراقب»، القصف مستمر. هذا أمر عادي هنا.

«كمبريل» مكان آمن نسبيًا، مقارنة بالجحيم الذي تعيش فيه
«سراقه»

عندما وصدا، برلنا مباشرة إلى القو، كان القصف كثيفًا، وبورا
و«أبو إبراهيم» يجلسان هناك

لم أتم. بقيت حتى الرابعة فجراً مرديّة ثيابي. البعوص يحرم
الشوم. وحسبي يحكي من لسع البعوص الذي منذ حتى جموي،
وعندما استطعت أن أعمو لساعه، كان القصف كثيفًا بإيقاظي.
العجوزان نمتان. بقيت لي عرفتاهما مع عيوش لا أعرف لم فعلت
ذلك حسدي صار ثقيلًا، ولم أعد أتحرّك. أردت الاستحمام لم
يكن هناك ماء كثير، لكنّ هناك ما يكفي لإزالة أدراة بهارس
متواصلين الحمام معصلة هنا. تنقي بورا إلى حائبي من أجل
طمانني، تقف قرب باب الحمام. القصف مستمر رغم أنّه ليس قريبًا.
استحم على عجل بذهب مباشرة إلى عرفة العائلة الكبيرة حيث كان
هناك احبار الناحية، وحيث سقطت أيضًا قذيفة بالقرب منّا وبحر
بعرها، لكننا ارتشف القهوة بهدوء إلى جانب العجوزين، واستطعت
بدحس سجدرة كان تدحس سجارة حلماً مالتة لي هي العراء. هنا
سسمع اندحس نوهة، شمعت بالحرر لأنني سأعذر بعد أنام.

أبوء سيكون ضوئًا أيضًا في التحولات على بيوت النساء

بصف أب، ولا شيء ينغرر تتغير الوصعيات التي يموت فيها
أشهر ونحيف ضرتق مونهه، وما يبقى من أشلائهم فقط تكرار
نصير نعر، لا شيء يمكن الحدت عنه أكثر من تاسل الحكيات
من الحكيات بقاء الشر من الشر واللاهة التي تعطي الوحوه تحت
وحدة القصف الشومي والاصمرار الدائم لحدقات العيود ومجموعات

المشردين لا شيء يزداد سوى حجم كره الكراهية التي تنساقط عبر
سموم تلقي بها الطائرات من السماء. تتكرر اليوميات، وحوه النساء
الحميلات الأرامل تحت عيون الشمس، الملتفات حول بعضهن،
بعض من الموت حياة، ويقمن بتوصيب حقائب موت آخر

لا شيء حديد. تفاصيل عن شراء كيلو غرام من الخصار، والرحلة
نضمة من البيت إلى سوق الحصار. رحلة مؤقتة لموت مؤجل ولعب
لا يتوقف مع طائرات «المبيخ». الحداقات نفسها لا تتغير، تتحول
لاصقات تسم العيون بانفعال واحد. الرعب، وبين تفاصيل اليوميات
والحوالات المسائية والصباحية إلى بيوت النساء والعمل معهن، لا
يتغير شيء أيضا. تفتح قنور وتردم أخرى. تُكتشف حثث مرمية في
لوديان وفي الهصاب. تُهدم أضرحة دينية على أيدي الكتائب
الكهربية، وتُسى مكانها معسكرات حديدة لـ «داعش»، وعبر هذه
تفاصيل لا تزال عروق تنص بالمقاومة. لا يزال هناك جنود لم يقلوا
بالأرتهان لإرادات الدول الكبرى ومصالحها. جنود وناشطون مدنيون
وسمّنون يُعنفون من قبل «داعش» ويُقتلون، أو إعلاميون سوريتون
وأحد بنة حطهم وقتلهم أو الاحتفاظ بهم من أجل الفدية، ومن
بعض تفننه طائرات الأسد.

معدنون شارب في أوائل العشرينات يبيعون أثاثهم ويأكلون سادات
سرية ليدافعوا عن سونهم ووجودهم. هنا تختلط المعاني، لا شيء
وصح كذائب تنصاع مع كذائب، العسكر يأكل الثورة العسكر
سببي المنظر فمصانه كفة بصير وحشا الأطفال الأوس يدعق بهم
وهم يحممون السلاح ويحلمون بين الأرقعة ليلا، والذين لا يتجاوز
كسرهم السادسة عشرة عصابت الشرقة التي تتحلل أسماء كذائب
ومهم، وسحور في شبيحة السلاذ التي لم تعد بلاذ، ونحو كل

حرة، فيها إلى منطقة تحت سيطرة ألوية عسكرية متناحرة، تحصن
 جميعها لسيطرة مطلقة لسماء قاتلة. لكننا هنا نتابع الحياة. هم سيقفون
 تحت السماء القاتلة ووحشية المنظرين الدينيين الجدد. أنا سأؤسب
 حفني الضعيرة وأتركهم مقيمة صوب المصمى. هم وأنا نعرف أننا لن
 نفدسم نموت سوياً، وهذه الشراكة بيبي وبينهم مؤقتة، لكنهم لا
 يريدون لي الموت. قالت لي امرأة قبل أن أغادر يوم «لا تموني
 هنا، طلي معنفة يسا وبين العالم الخارجى، كوني حبلنا المعلق». وأنا
 لنني كس أنظر إلى النساء اللواتي طبحن مختلف أصناف الطعام ورش
 مائدة عامرة لتوديعي، كنت أنظر ناسهار. كيف فهمت هذه المرأة التي
 تحاورت المشتب ولا تستطيع فك الحرف، ما أنا عليه. أنا ذلك المحيط
 نحتنى في المصمى بلا بداية ولا نهاية، ولا مستقر لي. ولا شكل لي،
 ولا هوته ني سوى لعني، لكنني وقل الرحيل بأيام، كنت عارقة
 بمحصل الموت وأصمت بأرق. الأيام الأربعة الأخيرة من شهر آب،
 له بعض عادي، بذلك اكتشفت الحياة ليلاً، والتي كانت تشط لأن
 السماء عصمت قديلاً

إنه ليل بسمح بحركة الناس الذين يخرجون من بيوتهم لترتيب نهار
 موت قدم الليل الذي رافقت فيه الشباب وهم يقومون بالإشراف على
 سطح مرافق من أكوام القمامة المتراكمة في الشوارع، الليل
 عربت ساحر ندي سماني منه ومجموعة قبيلة من شباب نعت
 مدبها ونفيا ما يرميه الشر الذين يفر على قيد الحياة، لقل من
 احسان الموت «أمر من والأوتة. وبين شارع وشارع، السيارة تسير
 من من مدائف والناسيل العقودنة، ويحتن عد الناس، وفي
 بيوت لأصدد. نحن في بيوت نقيم عراء لأسانها في بيوت بناء
 نسا على فراش حبيب، وأعضاؤهم منورة، ثم نخرج، ونتابع صفة

التطيف أضواء السيارة مطفأة خوفاً من رشاش فوقنا في طائرة.

الأطفال أيضاً لا ينامون. يقفون أمام أبواب بيوتهم. يراقبون عملية إفراغ القمامة بسيارة مهترئة تمشي بثلاث عجلات لأن عجلتها الرابعة تعرضت لشظية، لكنها تمشي وتشخر. الروائح قاتلة، وما يتم تحميمه يُحرق مباشرة.

في اليوم التالي، أستمّر في تنقلي بين بيوت النساء. هكذا... لا نفاصيل إضافية. تكرار يومي للمشهد. ساحة مفتوحة على الموت. المصادفة وحدها هي التي تقوم باختيار البشر الذين سيفادرون لعبة النكت هذه.

في يوم الرّحيل وأنا أتجه إلى الحدود، تحت وهج الشمس الحارقة، لم أكن أملك أية مشاعر. أراقب فقط، وأتحرك بعريضة حياء، وأبهي ما يحب إبهائه بحرفية تقتضي أمرين: السرعة والدقة. ما عدا ذلك، لا أهمية لشيء. لا وقت للحرر. لا وقت للسكاء. لا وقت لتفكير والتأمل. البقاء هنا يعطل العقل والقدرة على التفكير. سيكون أقصى ما يمكن الحلم به، الاستيقاظ صباحاً ونحن لسنا جنباً بحب أقدار، أو سحر من تقطع رؤوساً على أيدي «داعش» لذلك، كنت أقرب إلى الحدود بمثابة برهة، رغم حشرنا في السيارة ورغم الحر، ورغم اضطرابنا لنوقف مرّات عدّة للاحتماء من القصف.

كنت هادئة، ولم أعد أفكر في ما إذا كنت سأعيش أو أموت، أراقب سائبي الزيتون، والناس على الطرقات فهمت كيف تمسأ المضادة المدودة عبر الموت، عبر تعيب العقل. ها حفرة العدم، وها يمكن أن يفهم أن موتاً جماعياً كهذا وعمّا تنفسه الأرض، وحده فقط قدر على إحداث قطيعة حاسمة مع التاريخ الذي سلفه أما الآن في

تكون الانفلات صوب تلك القطيعة، أعرف ذلك وألمسه وتفسه

كان يحب أن يلتقي بأحد المقاتلين لأدوّن شهادته، وكان هذا فقط ما أذكره حتى أنني لم أطر كالعاده في عيون الشبان الجميلين لمشوري الأطراف، كما أعمل دائماً كنت مسرلة بتكثيف الألم وإقصائه ما عني معه هو فصله عن دمي. مثل رنار بار أنجسه لم أطر إلى الجموع وسأنتظر قرب السيارة محي، المقاتل لذي لم يتأخر. وهي شهادة الأحياء التي سأدونها. كان بحوزتي أكثر من خمسين حواراً مع المقاتلين، لكن هذا المقاتل، كان له وجه آخر!

لعمري «الحجي» من مخيم الرمل الفلسطيني، في مدينتي اللاذقية وصل في تعلمه إلى الصف الابتدائي السادس. والده عمل سائق دكسي. وهو كان عملاً في الميهاء، حليق الدق والشارين. ولد في مخيم الرمل الفلسطيني في اللاذقية سنة ١٩٧٨، هو قائد كتيبة «أحرار اللاذقية» يعيش متنقلاً بين الحدود السورية - التركية وبين جبال الساحل السوري شمال اللاذقية.

أعرفه سمي ومن أكون، فيرتحب بحرارة: التقينه على الحدود سورية - تركية. كان صديقاً لمسرة، وبدا متحمساً لرواية حكايته يرى أن في مرحلة حرب طائفة مستمرة لعشرين سنة قادمة، لم نحر حلاها عنه الأسد انحسروا هم العلويون، لأن ما فعلته عنه الأسد من جرائم، سنة فعله بالعلويين كما يقول ثم استطع من رأيه كان يحدث عنه، ونصيبه، ويحدد أيضاً وبأسى. روى لي حكاية كانت أعمل في الحرف مابوفا جميل الأسد وأن الأسد سبوا على حرم وحولوا إلى عبيد أنا لم أكمل دراستي، وكان يحب أن أعمل مد مصري أكره النظام وطائفة. لقد دلونا في العمل ودلونا بصفة العشي من مدر الأسد، من جميل الأسد، اللاذقية

ملكنتهم ونحن العيد، سورية كلها يطوبها مررعتهم ونحن العيد، لكن في اللادقية كانت الأمور أشد قسوة وطمناً. لقد كنت أسمع الشتيمة بأديني من شتيحة آل الأسد وعملائهم: سنّي حزير أنت بت اللادقية وتعرفين. ممكن ابنة ضابط مسؤول، تمرّع أب أكبر رجل. بين سنة ٢٠٠٣ و ٢٠٠٥، اكتشفنا أنهم يجهزون لعشر حسيّيات هي اللادقية وشعرنا بأنّ ديننا في خطر لأنّ تكتلات شيعة بدأت تظهر، خاصة بعد موت حافظ الأسد واستلام ابنه. الموضوع بالنسبة لي هو موضوع عقيدة، فكّرنا من حينها واجتمعنا وأقربا بأنّ ذلك غير مقبول، حتى إنّي فكرت أن أقوم بالتمحيّرات بعد أن شاهدت بافطة مكتوب عليها معهد لتعليم اللغة الفارسية في حي الزراعة. وبدأوا يسون الحوامع في القرى العلوية. كان الإيرايتون يسونها. صمنا سوات على ذلك رعم أن هويتنا الذبّية تُمسّ ويتم الاستخفاف بها نحن نعرف أن النظام السوريّ من أيام حافظ الأسد كان يرسل المتطرفين ونحهاديين إلى العراق، وشيوخنا السنة كانوا على علاقة جيدة مع نظام وهم حرة منه، ونحن لم يكن يريد أن يكون متطرفين ولا أن يكون حرة من النظام، فاجتمعنا كشباب لوحدينا. عندما بدأت ثورة بوس ومصر ونيسا، كنّا ساحت في ما سعمله، في هذه الأثناء شجعت درعا وحصنت محررة، وفي يوم الجمعة في حي الزمل اعططين في جامع المهاجرين قرّرا أن نعلّي صلاة العائت. وما خرجت مظاهرة عموية وحماسية بعد الصلاة إلى ساحة الشكاسي ووصفنا إلى باب المحررة الأمية. صربونا فأحرقنا المفجرة الأمية وصربنا الأمر. واستمرّت المظاهرة حتى وصلت إلى جامع حند من سوبد. ثمّ إلى حي لصفنة وكل هذا حدث بدون تنظيم وبطريقة عفوية في ذلك اليوم عدد وكأنت سميت العائت، بعد استعطف القول

للمرة الأولى. الله سورية حرة ويس في الجمعة التالية، حُرقت
 مظاهرات من عدة جوامع وكان هناك عشرون ألف متظاهر، وأطلق
 الجيش النار علينا، وقتل حوالي خمسة عشر شخصًا وعدد الجرحى
 كان كبيرًا في الرملة الفلسطينية كان هناك سلاح قبل الثورة، وهناك
 نحارة محدّرات وفقر شديد وبطالة استمرينا بالمظاهرات والعمل
 بشكل سرّي. حملنا السلاح بشكل مخفي من الأسبوع الثالث
 للمظاهرات السلمية، ولكنه كان محفياً وللدفاع عن النفس ولم
 ننحس. بعد محررة بن العلي أظهرنا سلاحنا. في ذلك اليوم اتفقا
 على الخروج بمظاهرات سلمية، من عدة جوامع، للاعتصام في ساحة
 بن العلي في حي الضبيّة، اجتمعنا في الساحة وكان هناك ساء
 وأعمال حملوا القرآن وقالوا. اعتصام حتى يسقط النّظام. بعد صلاة
 العشاء وحوالي الساعة الحادية عشرة والتصف عرفت أن الجيش طوّق
 الاعتصام. دهمت فوراً هناك. كان الناس يهتفون بالاعتصام: الجيش
 ولشعب يد واحدة، ويدون سمية سلمية سلمية. أمرهم الجيش بعض
 الاعتصام ورفضوا، فأطلق عليهم النار بكثافة. قتل يومها متنا شخص،
 أن كب شهدا على ذلك من بين القنلى ساء وأطمان، ونكّومت
 الحش فوق بعضهما من دفع على شرفات الأسية وشاهدنا حصل
 قتلوه أيضاً. الجيش فعل ذلك، وهذا ما رأيته بعيني كانت هناك بنت
 عمر ست عشرة سنة، أمسكت العقيد بصدرة، فطلب من العسكري
 منها عندما رفض العسكري قتلها، قتله ثم قتل الفتاة. في تمام أذبه
 عشرة إلا ربع ثلثا ثاني مبادرات ونحمل الحش، وخلال دقائق، نطف
 مبادرات الإساءة المكان، ولا يبقى أثر. كان هذا في اليوم السابع عشر
 من نيسان سنة ٢٠١١ يومها قررا أن السلاح هو الحل الوحيد وبدأنا
 فعلاً بأنني بالسلاح. وكان عبارة عن صادق كلاشيكوف، وبصكش،

وصرنا نخرج مظاهرات وسحبيها، ولم نسمع لقوات الجيش والمخابرات بدخول المخيم. صمدنا ستة أشهر على هذه الحال. كنا صعباء وكان هناك الكثير من المحبرين بيننا. لم نعد نملك السلاح الكافي، وهم يطلقون علينا الرصاص بشكل متواصل، كنت أتنقل على دراجة بارية، أنام في اليوم نصف ساعة. أنهكت تمامًا. ولم أكن أمامي مكان واحد أو أعود إلى المكان الذي أخرج منه، لأن ثلاث محاولات اغتيال نحوت منها علمتي الحذر.

«الحقي» لا يتوقف عن الكلام. غاضب. حاد ومختلف عن باقي المفاتين الأديس دوت شهاداتهم، يحب الحياة! يريد أن يعيش! هو استثناء بين المفاتلين. أسر لي بأنه لا يريد الزواج كي يبقى حرًا، وانسم، نكه لا يرال عاصبًا وهو يتابع حديثه: «في المخيم كان الناس يساعدون بعضهم بالإعاقة، وهناك نسبة كبيرة تتعاطى المخدرات. منعنا المخدرات، وانتشرت الترفات، فورعنا حراسًا بين البيوت ليقوموا بمهمة الأمن بين الناس، وطلبت أن تفتح الناس بيوتها لبعضها واستمرزينا منطاهر وسمع الجيش من الدحول. كنا وزعنا دوريات نحراسة مداخل ومحارج المخيم، وشاوب بشكل مستمر على ذلك، حتى من جهة البحر كانت مظاهراتنا كل جمعة نخرج من الجوامع. أكثر من عشرة آلاف شخص كنا نخرج للنطاهر. وأقمنا دولتنا المستقلة في حي الزمل المدسطين واستطعنا تنظيم حياتنا لمدة ستة أشهر، وأسسنا أول مجلس عسكري كان هذا في الشهر الرابع من الثورة، وأنا كنت القائد الميداني، وندي حرة هي السلاح لأنني كنت أستخدمه من مسوات، وموقعه حاول نأجبر محوم الحبر، وحاولنا إيصال رسالته أننا لا نريد حرب وهي حتى التكتوري كانت الأمور سيئة، ولكنهم مثلنا أولاد لم يتعمقوا وهم عمال أو سائقو تاكسي وعاليتهم

عاطفون عن العمل. صارت سبعا معركة معنا دياميت فقط ومعهم
الزوارق الحربية والدوشكا. اقتحمونا من جهة السكتوري، حيث كان
وزع السلاح مخفيا، كان الشباب يريدون لهجوم أيضا لكني منعهم
لأن إمكانية صعبة، وقلت أنتظر ريثما يتم إرسال الإمداد إلي. كنت
أنتظر الجيش الحر صراحة. أنتظر أن تساعدنا بقية المناطق، لكن أيًا
من هذا لم يحدث. شعرت بأنه تمت خديعتنا وأنا بقينا وحدنا، كان
يوحد مع ثلاثة آلاف وخمسمئة طلقة وعشر سادق، وبمكش، وقررنا
أنا مقاوم حتى نموت ولن نستسلم.

يتهدد الحجي، يدخل باستمرار ويحاول سر ردود فعلي على ما
يقوله، أنا أكتب متجاهلة نظراته:

«كنت حقت أن نواجه الاقتحام. حطة دفاعية فقط، وحلنا
الوحد في هذا هو ألا سمح بدخول الجيش لأطول مدة ممكنة، فحين
مجرد حن في مدينة وبدد يسيطر عليه الجيش. وزعا المقاتلين بحيث
سعود الحارات نبي يعيشون فيها عندما دخلت أول دبابة المحيتم
أضفوا عنها نساء، كان هذا خطأ ففقدنا السيطرة على الشباب، وبم
سعدوا بالأوامر وصاروا يطلقون النار على الجسود والذنابات،
واسمعت لمدومه من نهر وحتى اليوم الثاني ظهرًا. قصفتنا بواخترهم
من نهر وذنابهم من النهر فاصبحوا المحيتم ووصلوا ساحة
شكسي صعد لأرقه في محم ساعدنا قتلنا منهم خمسة وأربعين
رجلا وقسموا من ثلاثة عشر ودخروا سافلات الجسود وبشروا الفضاة
على نضوج ورس لأسية حمص النساء والأطفال في شارع عين
سره سرحهم من لمحتم كنت أتي وأحتي معهم فم دلهجوم
على حاجر محش بسنطيع الجسود بهم، بقينا أربعة أيام بلا نوم ولا
عدم نفوذ وبدل وعندما وصل الجيش إلى السكتوري، هرب

الكثيرون، وأنا لم أعرف ما الذي سأفعله. بقينا في الأبنية المهجورة وغير المكتملة الساء، نتنقل، واحتشأت في أحد البيوت. أثناء ذلك اعتقلوا خمسة وأربعين شأنا في حيّ الرّمل ونحس نحونا. هربنا عبر الحدود التركيّة إلى مخيم بلدا. كان معي ستمئة شاب وأنا مسؤول عنهم ولا أعرف ماذا سأفعل. ولا أملك أيّ مال أقدمه لهم. كنت صائغا، فذهبت إلى أنطاكية، وهناك كانت الضدمة الثّانية حيث فوجئت بأنّ هناك من ادعى العمل الميدانيّ العسكريّ عوضا عني لقد حصلت الكثير من الادّعاءات والخبيات والكذب في الثورة. التقيت بالعديد من الضّباط وقدمت لهم حطّطا للمعركة، وحصلت على دفعات من الأموال من أجل السّلاح، وحرصت على عدم البدء بمعركتي قبل صغار أن يبقى إمداد السّلاح متاحا، وعدونا أن يأتوا بالسّلاح عبر البحر وأنا رفضت. أعرف أنّ هذا مستحيل، لقد خذّلنا العالم كلّهُ، والبأس أصاب المقاتلين وقادة المعارك. كنّا لا نجد ما نأكله ولا سام طلبت المساعدة من الجميع ولم أحصل عليها ومسؤوليتي صارت ترداد. حسب جمعيت المقاتلين الذين خرجوا معي، وقلت لهم: من يريد الانشقاق بأيّ جهة للقتال فهو حرّ لأنّي لا أملك السّلاح، ثمّ عدتُ لقتال في حلّ الأكراد منذ بداية سنة ٢٠١٢، وبقيت هناك حتّى معركة دوريس. هي نخور كنّا في قلب الحلّ وكلّ يوم لدينا خطة بمعركة جديدة نهمحوم على حاجر أو ممرّة آمن وكنّا سنولي على التّيارات قتل أحيانا من فيها، وسرقها، لأننا لم يكن بملك المال.

بنوّف عن كلام أعرف أنّه بظّر إليّ ليحاسب ردّ فعلي. لا أرفع رأسي فسمي في يدي. وأقول: «ماذا حصل بعد ذلك؟» لا يجب سمر دفنك من انضمت هارفع رأسي وأحذق فيه شدت كان بظّر إليّ دون أن يرف له حصل فنت وأنا أحذق فيه شدت «تدع»، فتابع

حديثه محدثاً بي بالتظرة الشاقة نفسها: «قبل أن يبدأ الطيران يقصف كانت المعارك سهلة وكنا نتقدم. بعد أن بدأ الطيران يقصفنا خنلنا الأمور. حصل ذلك منذ معركة الحفة، وبعد معركة دورين لم يبق عدي دحيرة، وتركنا وحد تحت القصف، تركت الشباب في الجبال ودهمت إلى تركيا. قمت بتأمين مال وسلاح وعدت للقتال، وبقلت السلاح من جبل الأكراد إلى جبل التركمان، وهناك كانت أول معركة في جبل الـ ٤٥ والثانية في سح المرّ عند معبر كسب، ودخنا بيت عثمان وهي قرية علوية، لم يكن فيها أحد. تركوا بيونهم، وكان قد بقي بصعة شباب فقتلناهم، أخذنا ادّواجن لناكلها، وسرق الشباب ما استطاعوا من طعام من أهل الكتيبة. حرقوا بعض السوت وتركوا الباقي بعد فترة بيع جبل الـ ٤٥ من قبل إحدى الكتائب، نحن فوجنا معودة الجيش إلى جبل الـ ٤٥. الخيانات لم تتوقف بيننا. كانت الحشود تناع بعد أن يتم تحريرها. هناك من تاجر بالمعارك وبجيئات الفصال، وعندما أخطأ بسبب فقدان الثقة ولم يعد نعرف من هو الحائن ومن هو الرجل الذي يثق به، وصار دعم معركة استأجل بالسلح بيد مجموعة أشخاص تتحكم بمصير القتال أثناء ذلك حدثت معركة نزعسية وسيطرت على الفوج ١٣٥ لمدة ساعتين وقتلنا منهم كثيرين»

أقول له: «تحدثت عن القتل بساطة وسعادة. أنت قاتل؟». ينظر إليّ بعصب: «نعم، أنا قاتل. أنا أدافع عن حقّ لكتي لى أقتلك». قمت له: «رأى لآنا على الحدود التركية. تخاف على نفسك. لو كنا داخل سورية لقتلناكي». قال: «لر أقتلك. أشفق عليك من العذابات القادمة، قتلنا راحة لك! أنت في حالة لا تحسدني عليها، ومعصنة عن الواقع ما يحصل الآن هو حرب دية فقط!»

حَدَّثْتُ فِي عَيْنِيهِ مِنْ جَدِيدٍ، أَرَدْتُ رُؤْيَتَهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِّي! أَصَافُ: «نَعَمْ، أَمَا أَشْفَقُ عَلَيْكَ وَأَتَمَنَّى أَنْ تَكُونِي بِعِيدَةٍ عَنْ هَذِهِ الْحَرْبِ الْقَذَرَةِ. أَعْرِفُ صَاطِطًا عَلَوِيًّا انْشَقَّ، وَاسْتَحَرَّ. بَعْدَ اشْتِقَاقِهِ وَحْدَانِهِ مَسْتَحَرًّا بِكُتَيْبَةِ لِلْجَيْشِ الْحَرِّ». «اسْتَحَرَّ أَمْ قُتِلَ؟»، أَسْأَلُهُ. «اسْتَحَرَّ بِإِثْكَائِي هَذَا كَانَ فِي الْبَدَايَةِ. سَأُحْكِي لَكَ حِكَايَةَ حَصَلَتْ مَعِي فِي حُلِّ الْأَرْبَعِينَ بِاعْتِسَارِ أَنَّكَ تَحْبِبُ الْحِكَايَاتِ. أَحْذَتْ مَعِي حِمْسَةَ عَشْرِ رَجُلًا، وَوَصَلْنَا عَمَامَاتِ الْفَرَنْلِقِ، كَانَتْ هُنَاكَ تَحَرُّكَاتٌ لِلْجَيْشِ انْطِطَامَ. سَمِعْنَا بِهَا، وَكَانَ أَمَامَنَا جَرَفُ حُلِّ. دَخَلْنَا فِي مَسَاحَةٍ كَبِيرَةٍ وَصَرْنَا فِي قَلْبِ الْحُلِّ. رُبِيعٌ ثَلَاثَةٌ حَالٌ، انْهَالٌ عَلَيْنَا الْقَصْفُ مِنْ كُلِّ الْأَحْجَافِ، فَاحْتَسَيْنَا وَرَاءَ الضُّحُورِ. كَانَ الْقَصْفُ مِثْلَ الْمَطَرِ. طَلَّتْ مِنَ الشَّيَابِ النَّحَاقِ بِي الطَّرِيقَ تَرَابِي، وَخَلَعَهُ مَاشِرَةً طَرِيقَ مَعْتَبٍ، وَالْمَكَّ مَكْشُوفٍ، وَإِطْلَاقِ النَّارِ عَلَيْنَا مُتَوَاصِلٍ، صَرَخْنَا بِالْحُدُودِ. يَا حُدُودَ بِعَسْكَرٍ اسْتَفَوْا نَحْنًا إِخْوَانَكُمْ فَكَانُوا يَحْيِيُونَ عَلَيْنَا بِالْمُسَبَّاتِ، ثُمَّ بَدَأَ الشَّابُ مِنَ الْقُرْبِيِّ، وَصَرَخَتْ بِهِمْ أَنْ يَسْلَمُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّا حَاصِرُهُمْ، فَرَدُّوا بِالشَّيَابِ وَأَطْلَقْنَا النَّارَ عَلَيْهِمْ. هَلْ نَصَدِّقُ، كُنْتُ مَرَعْنًا حَذًّا، لِأَنَّا كُنَّا سَوْرِيَّيْنِ بِقَتْلِ سَوْرِيَّيْنِ. وَلَكِنْ مَاذَا نَفْعَلُ؟! اسْتَحَسْنَا وَرَحْمَةً لِمَوْقِعِنَا فَالْتَفَيْنَا عَلَيْنَا وَقَصَصْنَا بِالذُّوْشِكَا وَمَدَافِعِ الْهَدُونِ هَرَبًا وَنَحْوًا، كُنَّا سَمُوتَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ أَثَرْتُ بِي، لِأَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَصْوَاتَ نَحْنًا نَحْنًا وَنَتَحَدَّثُ. فِي مَعْرَكَةِ الرَّعْبِيَّةِ كَانَ قَتْلَى انْطِطَامَ بِخُفُونٍ فِي الْأَعْرَاءِ كَانُوا يَأْتُونَ بَعْدَ حَبْسٍ وَيَدْمُنُونَ الْحَثَّ شَاحِدَاتٍ وَأَحْيَاءَ بِفُوقٍ فِي أَمَكْنَتِهِمْ فَتَشْهَرُ الْكَلَابُ الْحَثَّ لَقَدْ قَتَلْنَاهُمْ حَقِيقًا فِي مَعْرَكَةِ الرَّعْبِيَّةِ وَلَمْ يَتْرَكْ أَحَدًا، وَكَانَتْ الْحَثُّ أَمَامَنَا عَنِّي مِنْ لُطْفٍ وَبَعْدَ الرَّعْبِيَّةِ كَدٌّ مَقَرَّ كُنَيْتِي فِي حُلِّ الْتَرْكَمَانِ وَتَابَعَةُ ثَمَوَاءِ الْعَاشِرِ الْتَابَعُ لِلْأَرْكَانِ بَقِيَتْ فِي الْحَدَادِ فِي إِحْدَى الْفَرَى

العدوية التي هرب أهلها وسيطرتا عليها لمدة ثلاثة أسابيع تقدم في
 منطقة النصارى أربعة عشر كيلومتراً، والتحقت بي ثلاث كتائب بعد
 ثلاثة شهور ضلت مزاردة من الأركان كنت على مرمى النصارى. شكل
 مواضع قصف وقصر كان وضعها يشبه الانتحار ورفض أحد التقدم
 معاً، وبقيت الكتائب في قرية كديسة، عندما شعرت بأنه سيتم بيعي
 ن وعاصري وسأترك للموت، أحترت المجلس العسكري بأنني
 سأسحب من المحور واستحيت بعد ذلك تراكت الديون علي،
 وبعد مدفع نهاون والروسي حتى أبي بالديون. عدت إلى مقر قيادة
 الأركان ووضعت بصي تحت تصرفها، والآن اسم كتيتي هو كبة
 الح. اللادف، أذهب معهم إلى المعارك المطلوبة متى فقط. نحن
 الآن في محور مشعب التي تبعد عن المدينة خمسة عشر كيلومتراً.

الكن، حسبنا نفون معركة الساحل ليست حقيقة؟. يحيب
 نعم، حسب حسبته أهل ذلك برأيي دول الحارح تريد أن يتقاتل
 النصارى في ما سهم لنفك يجعلونها نكر على بعضنا ونهز هذه
 بعضنا من أساد كان يقاتل معنا لنفك، أما الآن حزير أكثر من أي
 وقت مضى، لأن كثير من النصارى الشورية ستسقط مجاًناً. هناك أمر
 عرب نصف، وهو أن داعش في خط جهة الساحل، ولكنها ليست في
 محور الأمانه بوحده أكثر من خمسة وخمسين شخصاً منهم،
 وهم سرحور لأن فقط لا أعرف ما الذي سيفعلونه في المستقبل
 الح. شاء نصف هم وحوود، ونحن أسماء اللادفية الذين يريد دول
 سورية ومنت. بنته بعددنا ونعرب أكثر أن داعش هي من تقوم لأن
 نصف عدو نحن نحن يقومون بهذا عوضاً عن النظام مد فترة
 حادو بصور مع عراد وأردو صرب قرية عدوية مأهولة بالسكان وأن
 نصف ذلك، كنهم سرحور ذلك يوم ويفصلون حتى نلادف فنت

لهم اذهبوا إلى مكان غير هذا كانوا من الثومسيين واللبسيين
 والتموديين، تطورت المشكلة بيني وبينهم ووصلت إلى الضرب
 «لايدي». «ماذا ستفعل حتي بعد سقوط النظام؟»، أقول. يصحح
 ويحمر وجهه، ويظهر أنني بحسب: «لن يسقط الآن. طريقنا طويلة
 نحتاج لعشرين سنة لتتوقف الحرب، ولا أعرف ما الذي سأفعله بعد
 ذلك. نكتي أحرم أنني لن أبقى على قيد الحياة حتى ذلك الوقت، هذا
 مؤسف، فأنا أحت الحياة. نكتي على خط الجبهة بشكل دائم أنا هي
 حكمة لميت، لو كان هناك قائد يتقدما ويرأسا لكانت الأمور أفضل
 بكثير»

نفس مع «الحشي» آخر المقاتلين الذين دوت شهاداتهم أجهز
 عنى ما بقي في رأسي من تركيز، لكنني ولمصادفة ما لا ينفصل عن
 عنه ما يحصل، كنت أمشي مسرعة بالأشياء، وواجب أن أمشي فقط
 لغير النواة الأخيرة.

كلّ المتضادات المتجاورة في عقلي ومن حولي لم تغلح في نرعي
من بهمة حركتي، وأنا أنقاد وراء مجموعات العابرين. هكذا، يمكن
القول أن العدم أندي يعني صفة الوجود، يعني الحياة أيضًا. أن أصف
العدم، ألا يعني أن يكون هناك مقابل له؟ العدم كتلة الجزيئات التي
توالد من موت بعضها، وتتربّأ أمامي الآن على هيئة بشر تائهين
إنهم لا يمشون ولا يعيشون أيضًا، هم ظلال لأجسادهم فقط! تدفق
الحياة وتسارع الموت، يعني اقتراب الحياة والموت، يتلاهيان ويصعب
التعبير بهما. هل هم أحياء أم أكمات تتحرك؟ الجمع الخارج من
موت، النهار من القصف إلى شفاء اللجوء ولغفر واشيه والشتاب
روح الآخر المصاة القادم إلى الموت، والمقاتلون الذين يتدفقون ليل
الموت كحجر بحر الأبدية في حثتهم المفترضة. ألياب وعربات
الأسلحة والسماحة، مسامرة الشر ومسامرة السلاح في نقطة ما
يتلافون، أراقهم، وأتابع دهمولي.

هنا وعلى المعبر الحدودي الأخير ومع أمواج هائلة من الشر

المتراحمين للحروح. هاربون وخائفون. مقاتلون جرحى، وممثلو
مطقات إنسانية. مراسلو إذاعات، صحافيون أجاب. المبتورو
الأطراف يقاتلون بين جموع النساء والأطفال. الجمع البشري يفقد
حس الفضول، كأن مخرجاً سينمائياً يفقد حركتهم. عيونهم إلى
الأمم، قلقة. لكنها زائغة، تزيد حرارة الشمس من تيهها. هنا يتكرر
المشهد رغم اختلاف بوابات العبور والحروح الجموع الشرية تتزاح
باتجاه صورة متخيلة ليوم القيامة.

مخيم «أطمة» على ما هو عليه. ازداد عدد الأطفال الحفاة،
والخيم المتناثرة وحواجز المسلحين وغالبيتهم من «الجهاديين»، إضافة
إلى معسكر كبير لـ «داعش» الذي لا يعد كثيراً عن مخيم «أطمة»، وهو
سواء صحم مكون من أقسام عدة، بين أشجار الزيتون، يمتد على
مساحة عريضة، مؤلف من طبقة واحدة، ومحاط بحراسة شديدة
ممنوع الاقتراب منه، ولا أحد من الكتائب الأخرى يعرف ما يوجد
داخله. هناك سيارات دفع رباعي حوله، وشاحنات تدخل وتخرج إليه،
وكنها معطاة بقماش من الكتان الككي السميك. أما عناصر «داعش»،
فكادوا حول مخيم «أطمة» يتوزعون، ويعترضون الطريق الواصل بين
المخيم مع الداخل السوري بحواجز عدة. وحتى ذلك الوقت، في
نهاية شهر آب من سنة ٢٠١٣، كان «داعش» يحافظ على علاقة ودّية
مع الكتائب الجهادية الأخرى مثل «جبهة النصرة» و«أحرار الشام».
لاحقاً سيتبدّل الوضع، وسيدخل «داعش» في حرب معها، ويتضح أن
مشروعه لا يفتقد عد حدود حيث سيظهر كتعليم يؤسس لدولة قادمة

الحاضر ما قبل الأخير الذي أوقف كان لـ «داعش» أيضاً أربعة
شأن يحتمون أسلحتهم ويؤرّحونها في الهواء، يفهمون وأرحتهم نصف
مصححة ماقبل، أثناء مهم ملثمة تماماً، والأحرار يطهران نصف

وحبيهما، ليسوا سورتيين كنت هادئة على غير عادتي عندما رأيتهما
ليس الهدوء تمامًا، لكنني أحقق في نقطة ثابتة أمامي على الطريق،
ولا أنفتحت إلى ما يحيط بي، وغير مكترثة بما يريدون، وبما قالوه
لنشاب، انتهت فقط إلى أنهم بدوا أكثر عجيبة وثقة، صياحهم كان
عائياً يتحركون كأسباب المكان حتى لحاهم ليست طويلة كالعادة
نهمهم عريّة ولم أفهم شيئاً ممّ قالوه، أشاروا بأيديهم سامحين لما
سأعبر.

عند المحبّة وعلى السب الرئيسي، حاجز لمقاتلين من أنصار
الإسلام، هناك توزيع أدوار بين الكتائب المسلحة في حراسة المخيم
كما في لنشاب، وعلى الجاسين في الحظ الحدودي الفاصل سيارات
شحن معانة بصاديق خشية. إحدى هذه الشاحنات، يُفرّج جرم من
حمولتها بحدود كنت المحمولة أسدحة، هذا كان يتم في وصح النهار
وعلى حدود، وبين الزحاح المعابر والنساء والأطفال والتجار
والهريس ومخزني المظلمات، والصخافيين.

في حرف ساد ريتون كان شاب من حسيّات مختلفة، يجلسون
بجانب النجس هم مقاتلون ينتظرون دورهم للتدخل والالتحاق
بفصل في كوروا سورتيين أيضاً.

في لنشاب حتى آخر نقطة على الحدود وهي النقطة التي
وحسبها، حيث كنت حرة من التركيب الشرطي المرسوم كلوحة من
لوحات «عوي» برمي كثير من ساعة لثلاثها من نقطة العبور فتاة
حسنة بي حسيّات سدح مع شاذين في التركيب، في الرئاسة عشرة،
بما صغر سب أو كبر بي حسيّات أمها أحمرني أنها بترك محنة
أصداً وسروج أمها بصرها إلى الطرف الثاني، قبل والدها في
مضيق، بيها حسيّات حواء، وهي أكبرهن، سألنها عن زوجها

المستقلتي، ومادا يعمل. قالت، أنه يعيش في تركيا، لكنه أردني الجنسية، وأنها ستعيش في أطاكية، لأنه يعمل بالتجارة بين عمان وتركيا. لم أحاول الاستفسار عن عمر الرجل، حتى لا أخرجها، لكن الفتاة التي تدعى فاطمة، وفتيات كثيرات هنا يحملن هذا الاسم، سأنتهي ما أندي أفعله هنا. أجبتها، أنتي من جبل الراوية. صمتت ولم تعرمي اهتماماً بعد ذلك. لكنني رأيتها لاحقاً، وأنا أعبر إلى الجهة الأخرى من الحدود، وسيارة أحرة تستظرها. رجل يتجاوز الستين، ربما أكبر. على حشته الزينة الخاضة بالمسلمين الذين يصلون، ويرندي عصابة بيضاء. هذا رأيتة بعيني، ولم أسمع. كنت قرية منهم، وسألتها: «روحك؟»، فانكمش الزوج، وأجابني بحصوت وبظرت في عيني حطفاً، فل أن تدبر ظهرها لي: «اممممم».

رجل أندي يقوم بتدوين الأسماء ويضع اسماً مستعاراً لي، كان سطر في وجهي قبل العصور، ويمرّ عليه كباقي الوحوش. قطرات العرق صفت منه. لا أدت أردني ثيابي السود معظاة من رأسي إلى أسفل قدمي. ورأني صفت طويل من النساء والرجال والأطفال الذين يتطرون أدوارهم تحت قبض الشمس، ولا يحملون أوراقاً تثبت شخصيتهم. كنت امرأة خلف وراء الزوجة الصغيرة تحمل رضيعها وتحاول تهدئته بحباء خفيف. أنصت إليها، التزصيع مدفوف الذراعين بشاش طني أسمر، من كعبه وحتى نهاية أصابعه عصمت بصري وأكملت سحدين في سمي لحديد أندي أعاد به في ذلك الوقت بدت كثرت الاسم أندي سافرت به مشجرة للمرة الأولى التي هربت فيها من بيت عائلي، وصحكت لقد حملت أسماء عدة في حياتي لمصيرة هذه، وأنا أبتل من حرة أروع فيها حدوداً، لأعود وأقتنع بمسي

بشر الرجل أندي يدون الأسماء وقد معناه من صحبكاني

«صحبكيا معك» أنا نفسي لم أعرف سبب صحبكي، فهذه العدة تعلمنها من المفاتلين الشباب، وصرت عندما أوشك على الاختناق، أصحك! صحكك أكثر بصوت عالٍ، وقلت له: «لن تصحك». المشككة إذا أحسرتك لن تصحك!»، ثم انسحبت من الدور، أنظر إلى السحبة المقلنة، حيث سأصير بعد قليل في تركيا.

لا يزال الشباب يراقبون حركتي ضمن صف البشر الذين بدأوا يتفرقون. ومن ثم وأن أعادر، أحاول عدم إطالة لحظات الوداع، بكفي تنويع باليد هم على الجهة الأخرى يتفادون الجموع يلوحون. معي ميسرة الذي لم يسر بحرف، وهو يراقب دموعي التي تدفقت مرارة، وتساقطت مثل أفلام الرسوم المتحركة. ربما لن أراهم بعد هذه المحطات، ألوح ثابتة. أقول لميسرة: «أنا شخصية كرتونية مع خطوط انممع هذه» بصمت ويشير إلي لا تبعه أدير رأسي أخيرًا، ما يجب فعنه الآن هو إظهار أكثر قدر من التماسك أمام الشباب على الجهة الأخرى دخل لحدود كدوا يراقبوني أحتفي عن أظارهم

فكره و حده سطر علي بعد أن رأيت الزوحة الظلمة تغدر مع أمها وروحها انتسي. هي رؤية ساحرتي الضعيرة آلاء، بطلتي التي سسرى في أنطكة مع إحوتها وأسها، أرتب الحكايات التي سأرويها لآلاء. عد وصوتي إلى سها، وكيف سأصف لها بيتها في «سراف»؟ وما فعلها في عبيد أن وورا روحه عمتها والحدثان أحضر نفسي، لأنك معها في الحكايات حكمة كل شخصية في هذا الكتاب، كيف سأفخر على الضعيرة التي يحب. حكايات حيرانها وأقربانها هؤلاء، فقد كسر جميعهم من عائدة واحدة في «سراف» أحاول ترتيب تفاصيلهم، ربما أصل إلى بينهم أن معرّد قطعة لحم صغير، قسمة نسفت ويحب على الوصول إلى نهاية مع شخصية آلاء التي ستكر

يومًا ونروي حكاية هروبها ولجئها. وربما لن نروي شيئًا، أو مستنسى وتحاول ألا تعرف أي شيء عن طفولتها.

سارت بنا لسيارة بمحاذاة الحدود. كانت سورية إلى يساري. أما العدو، في دمي ثارات كل القتل والمقتولين، أنقسهم واحدًا واحدًا. أما الذاب المشطية المشطرة التي تقلع جذورها، وتتقن النمو في تربة حديد، ثم تقلع جذورها ثانية. أما الباحثة عن هوية والهاربة من هوية. من تعيش بين صالات المطارات وأرصعة القطارات مطردة من هذا المكان. فكرة البقاء المستحيلة توقظني من حلم العودة. أعترف لنفسي بأني أغادر إلى المنفى وأترك ورائي أرضًا يكتشفها لخراب وتلعب بها الحفايا، ككاتب مسلحة جهادية تكفيرية تعروها الأرض التي حررها السوريون بدعائهم، من قرى وبيدات الشمال، احتلت من حديد، لم تعد أرضًا محررة، ولا أرضًا سورية. سرقت أحلام نورنها. تلعب الدول الكبرى الآن في ساحتها عبر تحريك الكنائس العسكرية، وعبر تمويل جهات وهمية. الحدود مفتوحة من تركيا شكل علني لكل أنواع المقاتلين. وعمر سلاح يأتي من أطراف هذه ممولو «داعش» من هم؟ ممولو «جبهة النصرة» من هم؟ من يقاتل قادة الحش الحرة؟ من يقتل الصحافيين والناشطين السلميين؟ كيف تتم سرقة ثورة وتحويلها إلى حرب دينية؟ أسئلة معلقة في الفراغ بالنسبة لي، ماضل إلى باريس خلال يومين، وينتهي هذا المشهد أمام بطري، سنعب السيارة في التصاريح التركية، وذهب أنا ومبسرة إلى البيت. وبانتظاري شكود آلاء وجمعية الحكايا التي لن تتوقف حتى معاذري مطر أظاكية إلى إسطنبول سأروي لها أحجار الحيران، والنسب، وسأكدب كثيرًا لن أحررها عن أحساد أصدقائها الأطفال الذين مانوا سأردعها بأداة، وأعددها يأتي سأعود بعد بضعة أشهر

لقد دخلت طبقه ححيم أنهيت بها شهادتي الأولى في كتابي
 وقاطع سراً عن بداية الثورة وشهورها الأربعة الأولى. والآن وفي
 شهادتي الثانية هذه أخرج من طبقه، لأدخل الطبقة الأعمى من هوية
 الححيم. احترت هذا الشعور: المضي من جديد، ولا شيء أصفه
 اسمي عن المنحرف كمضي، والذي لم يجد له شكلاً حديداً في رحمة
 سارع الأحداث. والذي يحتاج إلى إعادة تعريف بالمعنى الحديدي
 لئلا نكنمة ونمضي الذي أغرقته الصور المرئية ووسائل الاتصال
 الاجتماعي الحديثة، لم يعد هو المضي!

هكذا، والحدود تستعد حلقنا، فكرت للحظة أن التبخر بسلامة
 سكون محبتي أن تفصل أجراء الكتلة اللحمة التي هي أن عن
 بعضه وتحويل إلى ذرات عشية في الفضاء، فهو أمر رائع ويشبه
 التفرخ في ملاءم عامة، حيث يمكنني التسرب منها إلى الأشياء
 هكذا، وفي بيت النحصة تدكرت أننا في نهاية شهر آب، وأنتي قد لا
 أعود أبداً. وأن الأرض محتلة، والسماء محتلة، ورأسي لا يتحرك،
 مثل سائر راحة نفسي عساي حامدتان. لا ترقان. تحذقان في العدم
 بدي حبه داخل الحدود

ملحق

أنهيت كتابي هذا في نهاية شهر أيلول سنة ٢٠١٤، كنت توقفت عن الكتابة بعد حروحي الأخير ومضت أشهر لا أستطيع البدء بتدوين ما حصل وحدث حينذاك أن لا جدوى مما سأكتبه، وجدت أن الحدث عما حصل من العث. تبست أصابعي، وأصبت شلل ذهني معني من العودة إلى أوراقي وحواراتي، لم يكن من الممكن أن أواجه كل هذا العث، إلا بالعث نفسه والاستسلام لفكرة عدة، هي الموت! أنهى ما يمكن الحصول عليه هو وجهة هذا الموت المكثف والأحداث المماثلة التي لا برك محالاً للعقل. الشرور التي تبست في كل مكان، تكثف هذه نشاعة، بدءاً بالعلاقات بين الشر، وانتهاء براميل الموت مداحة غصم ونمحرر التوميه، أحرسني لرمي وقت، لاستعيد قسرتي على الكتابة

نكتة هي وعي فعل الموت وهي مهرومة أمامه نكتة هريمة
نشاعة. لم أع هذا انبداحل الحتمي من الموت والكتابة قبل الأنا

قضت سنة على خروجي النهائي من سورية. لست استثناء،
 فالخروج المهل والكبير للشعب السوري سيصبح علامة فارقة في
 التاريخ، أراقب ما يحصل من بعد. أن تراقب الصورة، وتفرا
 الأخبار، وتصل بمن بقي لا تعني الكثير. يضع أهم ما في الأمر. أن
 تفرا عن سقوط البراميل والقنابل لأيام عشرة متتالية في المدينة التي
 عشت فيها، «سراقب»، لا يشبه أن تعيش تحت وقع انفجار تلك
 البراميل. منذ سنة و«سراقب» تقصف يوميًا بالبراميل والقنابل
 العنقودية. أن ترى الجثث المنكومة تحت الأنقاض، ليس كأنك
 تلمسها، رائحة الأرض بعد القنابل العنقودية، لا تصل إليك عبر
 الصور وأفلام الفيديو التي يثها النشطاء الذين ما زالوا على قيد الحياة
 يوثقون ما يحصل. رائحة الاحتراق، عيون الأمهات المرتعبات،
 وهسيس الضممت الموقت بعد دوي كل انفجار. الصورة والأفلام
 القادرة على جعلنا نتواصل مع ما يحصل بشكل آني، لا تعني إلا
 المزيد من الحزن، لأن مقارنة عصابة على الفهم تتداخل بين الواقعي
 والمنحيل، بين العث والمنطق، وبين الموت والحياة.

لن يصدق العالم الخارجي أن ما يحصل في سورية وعيون هذا
 العالم تراقبه، ليس إلا رغبة في رؤية خلاصه نفسه. هناك من يموت
 عوضاً عنه. شيء ما يحرك رغبته في متابعة الحياة وهي تموت أمامه،
 إنه الساعي الوحيد، وهذا يكفي! شيء ما كالغريزة الجنسية. تتلذذ
 عيون العالم وهي تلتصق على مشهد النجاة القائم على جثث الضحايا
 التوربين، العالم يشاهد. نعم، إنه يفعل! وثائقي الصورة المفتعلة
 للحرب بين الأسد و«داعش» يحقلها ويطورها ويحولها فزاعة للحقل،
 ليربح صميره العائب. هذا لم يكن جديدًا على البشرية وتاريخها.
 لطالما حدث هذا. لكنه الآن يحصل علنا ومباشرة ونحت أعيننا وبين

أيدينا. عالم الصورة المتوحشة التي تصنع وحوشاً لا مبالية. الآلة الإعلامية العالمية التي تمهد لنسيان الضحايا، عبر تكثيف موتهم ونشره بوحشية تخلق الاعتياد، ثم ترميه كمادة مستهلكة.

هكذا هم السوريون بعد أربع سنوات، بدأوا فيها ثورة شعبية سلمية ضد ديكاتور، تحولت ثورة مسلحة، ثم خطفتها الكتائب الجهادية، وصارت سورية مسرحاً لعرائس الدّم، والآن يحتل «داعش» صدارة المشهد.

«داعش» الذي ظهر في شهر نيسان سنة ٢٠١٣، هو الآن دولة وقوة احتلال، والغرباء الذين تدفقوا عبر الحدود التركية، تحولوا آلات موت مدققة. التطرف والعنف يسيطران على كل شيء.

احتل «داعش» مدناً سورية. التحالف بقيادة أميركا يفصف «داعش»، يقوم بمغازلته، يضرب ويهرب، يتقدم «الدواعش»، وتستمر المحزنة، خطط وسياسات دولية، تمرّ ببطء، والذماء تسيل، ملايين اللاجئين، ملايين النازحين، وسورية لم تعد كما كانت. صارت مقطعة ومقسمة. العالم كله مشغول بـ «داعش»، بينما طائرات الأسد تقصف المدنيين في ريف «إدلب» وريف «دمشق»، وفي «حمص» و«حلب»، العالم يريد لهذه الصورة أن تبلور، ويستمر سقوط الضحايا والأبرياء، من المدنيين تحت قصف الأسد، وسيوف «داعش» وغيره من الكتائب الجهادية.

أتابع الاتصال بالشباب والنساء في الداخل. محمد لم يغادر «سراقب»، رفض أن يخرج للعلاج. وما زال لا يرى بعينه. قال لي في آخر اتصال بيننا، أنه عندما يصير خارج الحدود السورية يشعر بـ «الاحتناق». الآن هو والشباب يحفرون مغارات تحت الأرض، ينامون

فيها ليلاً، وفي النهار ينقذون ضحايا القصف، ويوثقون الانتهاكات ويساعدون الناس. ضبيب أيضاً رفض الخروج، ولم يعد إلى أوروبا حيث كان يعيش، قال: أموت هنا، ولا أرحل. ميسرة وزوجته وساحرتي الصغيرة آلاء، لا يزالون في أنطاكية. آلاء حظيت باخ جديد، وهي سعيدة، وتتابع حياتها مع إخوتها، يتعلمون التركية، ويذهبون إلى المدرسة. ميسرة بين وقت وآخر يذهب إلى «سراقب»، رائد فارس، تعرّض لمحاولة اغتيال، ولا يزال يتعرّض لتهديد من قبل «داعش» والمجموعات المسلحة التكفيرية، ويرفض مغادرة «كفرنبيل». الشباب أيضاً رفضوا المغادرة، عبد الله وخالد وعزت وحمود، وأبو طارق وأبو وحيد، يتشبثون بحلم البقاء. لم تعد أعمالهم كما كانت عليه، لكنهم نطقوا بجملة مشتركة: «نموت هنا ولا نرحل. هذه أرضنا». لم يقبلوا الانصياع والدخول في لعبة الارتزاق والتمويل والكنائب التكفيرية. أحمد وأبو ناصر لا يزالان يقاتلان أيضاً. لكن أحمد أصيب في إحدى المعارك. عبد الله تزوج وصار أباً. ولم يعالج ساقه وبقي يعرج. منهل استقر في تركيا. رزان خرجت من «كفرنبيل»، رفضت إرثاء الحجاب، ونعيش في مدينة تركية مجاورة للمحدود النورية.

«أبو إبراهيم» و«نورا» وهما من كنت أعيش معهما، تركا البيت وسط «سراقب». ودها للعيش في المزرعة بعيداً من القصف في سهل «سراقب». لكن القصف طاولهما، وحدثت مجزرة بالقرب منهما، وانفلتت معهما عبوش أيضاً. أما الأم فقد حملوها معهم، وبقيت في المزرعة مانت الحانة. تلك الحدة الحميلة التي فارقت الحياة بعد أن اضطرت للحروج من بينها، توفيت بعد شهر من ذهابهم إلى المزرعة «أبو إبراهيم» برقص الحروج من «سراقب». ونورا التي أحنته بشعب،

أخبرتني عبر الـ «سكايب» أنها لن تغادر وتترك زوجها أبداً، رغم
الخوف والذعر اللذين لا يفارقانها، تقول إنها عاشت معه وستموت
معه.

هؤلاء هم أبناء التراجيديا الكبرى للقرن الحادي والعشرين، وهم
الدليل الدامع على السقوط الأخلاقي للإنسانية.

ذهبوا إلى ثورتهم بأحلام عن الحرية والعدالة. دفعوا دماءهم ثم
حلمهم المجهض. هؤلاء هم أبناء الملحمة السورية الكبرى الذين لا
استطيع نسيانهم، في باريس حيث يفور الجمال من أصفر التفاصيل،
ويقتلني القبح. يعيش في صدري. أنفُس البشاعة في موضع الجمال
نفسه. لم تقدر بعد هذه المدينة على اقتلاعي من أرضي، المنفى الذي
اعتقدت أنني سأطرده من حياتي وأقاومه، يتفوق الآن. قبل هذه
التجربة، كنت غير مكترثة بتعريف المنفى كحالة استثنائية مغلقة في
صيق الهوية التي تحصر الإنسان في لغة أو قومية أو دين أو حتى أرض
وحدود جغرافية. نضي وسردي هما هويتي، هكذا تصوّرت.

الزوايا هي مكاني الوحيد الذي آمنت به، حصل هذا لأكثر من
عشرين سنة، لكنني اكتشفت الآن وبعد سنة من المنفى الذي أعيش
فيه، أن المنفى هو المنفى، ولا شيء آخر، هو أن تمشي وتعرف أنك
عريب.

هنا في المنفى، تعلمت كيف أسير وأفكر وأنا نائمة، أو ربّما
مبتة! لا فرق! أنا في حالة غياب عن الواقع!

هنا أمشي برأس مقطوع. ألتصق جسدي، أصابعي لا أعرفها.
وينحول نضي إلى غرفة مضاعفة. كلما انتحيت إليه، توغّلت في
المنفى!